سُورَةُ الأَعْرَافِ

مَكِّيَّةٌ، غيرُ ثَمانِ آياتٍ: ﴿وَٱسْئَلْهُمْ عَنِ القَرْيَةِ...﴾، إِلَى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الجَبَلَ...﴾ وَهِيَ مَائَتَانِ وَسِتُّ آياتٍ [نَزَلَتْ بَعْدَ ص]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ﴾

﴿كِتَٰبٌ﴾: خبر مبتدأ محذوف، أي: هو كتاب، و﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾: صفة له، والمراد بالكتاب السورة: ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ أي: شك منه[1]؛ كقوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٩٤]، وسمي الشك حرجاً؛ لأن الشاك ضيق الصدر حرجه، كما أن المتيقن منشرح الصدر منفسحه، أي: لا تشك في أنه منزل من الله، ولا تحرج من تبليغه[2]؛ لأنه كان يخاف قومه، وتكذيبهم له، وإعراضهم عنه وأذاهم، فكان يضيق صدره من الأداء، ولا ينبسط له، فأمّنه الله ونهاه عن المبالاة بهم.

فإن قلت/ ٢٣٣ب: بم تعلق قوله: ﴿لِتُنذِرَ﴾؟

---

(١) قال محمود: «الحرج: الشك... إلخ» قال أحمد: ويشهد له قوله تعالى ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ ولهذه النكتة ميز إمام الحرمين بين العلم والاعتقاد الصحيح، بأن «العقد» ربط الفكر بمعتقد. و«الاعتقاد» افتعال منه، والعلم يشعر بانحلال العقود وهو الانشراح والتبلج والثقة. وما أحسن تنبيهه بقوله: والاعتقاد افتعال منه. يريد: إذا كان العقد مبايناً للعلم، فما ظنك بالاعتقاد؛ لأن صيغة الافتعال أبلغ معنى. ومنه الاعتماد والاحتمال. ومن ثم ورد في الخير «كسب» وفي نقيضه «اكتسب» لأن النفوس في الشهوات والمخالفات واتباع الأهواء أجدر منها في الطاعات وقمع الأغراض، وعلى ذلك جاء ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ وإن كان «العلم» من «الأعلم» المأخوذ من «العلمة» بالتحريك، وهي انشراح الشفة وانشقاقها؛ فالذي ذكره الإمام حينئذ نهاية في نوعه، والله الموفق.

(٢) عاد كلامه. قال: «أو ولا تحرج من تبليغه، لأنه كان يخاف قومه وتكذيبهم له... إلخ» قال أحمد: ويشهد لهذا التأويل قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ...﴾ الآية.

قلت: بـ «أنزل»، أي: أنزل إليك لإنذارك به أو بالنهي؛ لأنه إذا لم يخفهم أنذرهم، وكذلك إذا أيقن أنه من عند الله شجعه اليقين على الإنذار؛ لأن صاحب اليقين جسور متوكل على ربه، متكل على عصمته.

فإن قلت: فما محل ذكرى؟ قلت: يحتمل الحركات الثلاث، النصب بإضمار فعلها، كأنه قيل: لتنذر به وتذكر تذكيراً؛ لأن الذكرى اسم بمعنى التذكير، والرفع عطفاً على كتاب، أو بأنه خبر مبتدأ محذوف، والجر للعطف على محل أن تنذر، أي: للإنذار وللذكر.

فإن قلت: النهي في قوله: «فلا يكن» متوجه[1] إلى الحرج فما وجهه؟

قلت: هو من قولهم: لا أرينك ههنا.

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم﴾: من القرآن والسنة، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ﴾: من دون الله، ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ أي: ولا تتولوا من دونه من شياطين الجن والإنس، فيحملوكم على عبادة الأوثان، والأهواء، والبدع، ويضلوكم عن دين الله، وما أنزل إليكم، وأمركم باتباعه، وعن الحسن: يا ابن آدم، أمرت باتباع كتاب الله، وسنة محمد ـ ﷺ ـ والله ما نزلت آية إلا وهو يحب أن تعلم فيم نزلت، وما معناها؟ وقرأ مالك بن دينار: «ولا تبتغوا»، من الابتغاء، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا﴾، ويجوز أن يكون الضمير في: «من دونه»: لما أنزل، على: ولا تتبعوا من دون دين الله دين أولياء، ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾، حيث تتركون دين الله وتتبعون غيره، وقرىء: تذكرون، بحذف التاء، ويتذكرون، بالياء، و«قليلاً»: نصب يتذكرون، أي: تذكرون تذكراً قليلاً، و(ما) مزيدة؛ لتوكيد القلة.

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾﴾

﴿فَجَاءَهَا﴾: فجاء أهلها، ﴿بَيَاتًا﴾: مصدر واقع موقع الحال، بمعنى بائتين، يقال: بات بياتاً حسناً، وبيتة حسنة، وقوله: ﴿هُمْ قَائِلُونَ﴾: حال معطوفة[2] على «بياتاً»، كأنه

---

(١) عاد كلامه. قال: «فإن قلت النهي في قوله فلا يكن متوجه إلى الحرج، فما وجهه؟ قلت: هو من قولهم لا أرينك ههنا» قال أحمد: يريد أن الحرج منهي في الآية ظاهراً والمراد النهي عنه، والله أعلم.

(٢) عاد كلامه. قال: «وقوله ﴿هُمْ قَائِلُونَ﴾ حال معطوفة على «بياتاً» كأنه قيل، لجاءهم... إلخ» قال أحمد: الاكتفاء بالضمير في الجملة الاسمية الواقعة حالاً ضعيف. والأفصح دخول الواو؛ كما =

قيل: فجاءهم بأسنا بائتين أو قائلين.

فإن قلت: هل يقدر حذف المضاف الذي هو الأهل قبل: ﴿قَرْيَةٍ﴾، أو قبل الضمير في ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾؟

قلت: إنما يقدّر المضاف للحاجة ولا حاجة؛ فإنّ القرية تهلك كما يهلك أهلها، وإنما قدّرناه قبل الضمير في: ﴿فَجَاءَهَا﴾ لقوله: ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾.

فإن قلت: لا يقال: جاءني زيد هو فارس، بغير واو، فما بال قوله ﴿هُمْ قَائِلُونَ﴾؟

قلت: قدّر بعض النحويين الواو محذوفة، ورده الزجاج، وقال: لو قلت: جاءني زيد راجلاً، أو هو فارس، أو جاءني زيد هو فارس، لم يحتج فيه إلى واو؛ لأن الذكر قد عاد إلى الأول، والصحيح: أنها إذا عطفت على حال قبلها، حذفت الواو استثقالاً، لاجتماع حرفي عطف؛ لأنّ واو الحال هي واو العطف استعيرت للوصل، فقولك: جاءني زيد راجلاً أو هو فارس/ ٢٣٤أ، كلام فصيح وارد على حدّه، وأمّا: جاءني زيد هو فارس، فخبيث.

== اختاره الزمخشري. وأما الزجّاج وغيره فيجعلون أحد الأمرين كافياً في الاسمية، إما الواو وإما الضمير. وأما قول الزمخشري: إن الجملة المعطوفة إنما حذفت منها واو الحال كراهية لاجتماعها وهي واو عطف أيضاً مع مثلها، ففيه نظر. وذلك أن واو الحال لا بد أن تمتاز عن واو العطف بمزية. ألا تراها تصحب الجملة الاسمية عقيب الفعلية في قولك جاءني زيد وهو راكب، ولو كانت عاطفة مجردة لاستقبح توسطها بين المتغايرين وإن لم يكن قبيحاً، فالأصح خلافه، فلما رأيتها تتوسط بينهما والكلام حينئذ هو الأفصح أو المتعين، علمت أنها ممتازة بمعنى وخاصية عن واو العطف، وإذا ثبت امتيازها عن العاطفة، فلا غرو في اجتماعها معها، وإن كان فيها معنى العطف مضافاً إلى تلك الخاصية. فأما أن تسلبه حينئذ لإغناء العاطف عنها، أو تستمر عليه، كما تجتمع الواو. ولكن لما فيها من زيادة معنى الاستدراك في مثل قوله ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ فعلى هذا كان من الممكن أن تجتمع واو الحال مع العاطف بلا كراهية، والذي يدل على ذلك أنك لو قلت: سبح الله وأنت راكع، أو وأنت ساجد؛ لكان فصيحاً لا خبث فيه ولا كراهة، فالتحقيق ـ والله أعلم ـ في الجملة المعطوفة على الحال: أن المصحح لوقوعها حالاً من غير واو، هو العاطف؛ إذ يقتضي مشاركة الجملة الثانية لما عطفت عليه في الحال، فيستغني عن واو الحال، كما أنك تعطف على المقسم به فتدخله في حكم القسم من غير واو موقعة في مثل ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ وفي مثل ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۝١٦ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧﴾ ولو قلت في غير التلاوة: وبالليل إذا عسعس، لجاز، ولكن يستغنى عن تكرار حرف القسم لنيابة العاطف منابه. فهذا والله أعلم سبب استغناء الجملة المعطوفة على الحال عن الواو المصححة للحالية، فالحاصل من هذا أنك إن أتيت بواو الحال مصاحباً للعاطف، لم تخرج عن حد الفصاحة إلى الاستثقال، بل أفدت تأكيداً. وإن لم تأت بها فكذلك في الفصاحة مع إفادة الاختصار، والله الموفق للصواب.

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾ والإهلاك إنما هو بعد مجيء البأس؟

قلت: معناه: أردنا إهلاكها؛ كقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: ٦]، وإنما خصّ هذان الوقتان: وقت البيات، ووقت القيلولة؛ لأنهما وقت الغفلة والدعة، فيكون نزول العذاب فيهما أشد وأفظع، وقوم لوط أهلكوا بالليل وقت السحر، وقوم شعيب وقت القيلولة.

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥﴾

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ﴾: ما كانوا يدعونه من دينهم، وينتحلونه من مذهبهم إلا اعترافهم ببطلانه وفساده، وقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾: فيما كنا عليه، ويجوز: فما كان استغاثتهم إلا قولهم هذا؛ لأنه لا مستغاث من الله بغيره، ومن قولهم دعواهم: «يا لكعب»، ويجوز، فما كان دعواهم ربهم إلا اعترافهم، لعلمهم أن الدعاء لا ينفعهم، وأن لات حين دعاء، فلا يزيدون على ذمّ أنفسهم، وتحسرهم على ما كان منهم، «ودعواهم»: نصب خبر لكان، و﴿أَن قَالُوٓاْ﴾: رفع اسم له، ويجوز العكس.

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾: «أرسل»: مسند إلى الجار والمجرور وهو «إليهم»، ومعناه: فلنسألنّ المرسل إليهم وهم الأمم، يسألهم عما أجابوا عنه رسلهم، كما قال: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦٥﴾ [القصص: ٦٥]، ويسأل المرسلين عما أجيبوا به، كما قال: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩]، ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم﴾: على الرسل، والمرسل إليهم ما كان منهم، ﴿بِعِلْمٍ﴾: عالمين بأحوالهم الظاهرة والباطنة، وأفوالهم وأفعالهم، ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾: عنهم وعما وجد منهم.

فإن قلت: فإذا كان عالماً بذلك، وكان يقصه عليهم، فما معنى سؤالهم؟

قلت: معناه: التوبيخ، والتقريع، والتقرير إذا فاهوا به بألسنتهم، وشهد عليهم أنبياؤهم.

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩﴾

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ يعني: وزن الأعمال، والتمييز بين راجحها، وخفيفها، ورفعه على الابتداء، وخبره: «يومئذ»، و«الحق»: صفته، أي: والوزن يوم يسأل الله الأمم[1]، ورسلهم الوزن الحق، أي: العدل، وقرىء: «القسط»، واختلف في كيفية الوزن، فقيل: توزن صحف الأعمال بميزان له لسان وكفتان، تنظر إليه الخلائق؛ تأكيداً للحجة، وإظهاراً للنصفة، وقطعاً للمعذرة، كما يسألهم عن أعمالهم فيعترفون بها بألسنتهم، وتشهد بها عليهم أيديهم، وأرجلهم، وجلودهم، وتشهد عليهم الأنبياء، والملائكة، والأشهاد، وكما تثبت في صحائفهم فيقرؤونها في موقف الحساب.

وقيل: هي عبارة عن القضاء السويّ والحكم العادل، ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾: جمع ميزان أو موزون، أي: فمن رجحت أعماله الموزونة التي لها وزن وقدر، وهي الحسنات، أو ما توزن به حسناتهم، وعن الحسن: وحقّ لميزان توضع فيه الحسنات أن يثقل/ ٢٣٤ب، وحق لميزان توضع فيه السيئات أن يخف، ﴿بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾: يكذبون بها ظلماً؛ كقوله: ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٠٣].

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾

﴿مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: جعلنا لكم فيها مكاناً وقراراً، أو ملكناكم فيها وأقدرناكم على التصرف فيها، ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾: جمع معيشة، وهي ما يعاش به من المطاعم، والمشارب، وغيرها، وما يتوصل به إلى ذلك، والوجه: تصريح الياء، وعن ابن عامر: أنه همز، على التشبيه بصحائف.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ يعني: خلقنا أباكم آدم طيناً غير مصوّر، ثم صورناه بعد ذلك؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ . . .﴾ الآية ﴿مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾: ممن سجد لآدم.

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾

---

(١) قوله: «أي والوزن يوم يسأل الله الأمم» هذا إنما ينبني على أن يومئذ متعلق بالوزن، والحق خبر. أما على ما قاله، فالتقدير: ويوم يسأل إلخ، ويمكن أن مراده: والوزن كائن يوم يسأل الله الأمم ورسلهم، أي الوزن الحق، وكان الأقرب: أي والوزن الحق يوم يسأل... إلخ.

﴿أَلَّا تَسْجُدَ﴾: «لا» في: (أن لا تسجد): صلة؛ بدليل قوله: «ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي»، ومثلها: (لئلا يعلم أهل الكتاب)، بمعنى: ليعلم.

فإن قلت: ما فائدة زيادتها؟

قلت: توكيد معنى الفعل الذي تدخل عليه، وتحقيقه، كأنه قيل: ليتحقق علم أهل الكتاب، وما منعك أن تحقق السجود وتلزمه نفسك؟ ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ لأن أمري لك بالسجود أوجبه عليك إيجاباً وأحتمه عليك، حتماً لا بدّ لك منه.

فإن قلت: لم سأله عن المانع من السجود، وقد علم ما منعه؟

قلت: للتوبيخ، ولإظهار معاندته، وكفره، وافتخاره بأصله، وازدرائه بأصل آدم، وأنه خالف أمر ربه معتقداً أنه غير واجب عليه، لما رأى أنّ سجود الفاضل للمفضول خارج من الصواب.

فإن قلت: كيف يكون قوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ جواباً لما منعك، وإنما الجواب أن يقول: منعني كذا؟

قلت: قد استأنف قصة أخبر فيها عن نفسه بالفضل على آدم، وبعلة فضله عليه، وهو أنّ أصله من نار، وأصل آدم من طين، فعلم منه الجواب وزيادة عليه، وهي إنكار للأمر، واستبعاد أن يكون مثله مأموراً بالسجود لمثله، كأنه يقول: من كان على هذه الصفة، كان مستبعداً أن يؤمر بما أمر به.

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾

﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ من السماء التي هي مكان المطيعين المتواضعين من الملائكة، إلى الأرض التي هي مقر العاصين المتكبرين من الثقلين، ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ﴾: فما يصح لك، ﴿أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾: وتعصي، ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾: من أهل الصغار، والهوان على الله، وعلى أوليائه؛ لتكبرك، كما تقول للرجل: قم صاغراً، إذا أهنته، وفي ضدّه: قم راشداً؛ وذلك أنه لما أظهر الاستكبار ألبس الصغار، وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ: من تواضع لله رفع الله حكمته[1]، وقال: انتعش أنعشك الله، ومن تكبر وعدا طوره، وهصه[2] الله إلى الأرض (٥٩٤).

---

٥٩٤ ـ أخرجه ابن أبي شيبة (٧/٩٦) رقم (٣٤٤٦١)، والبيهقي في «شُعب الإيمان» رقم (٨١٤٠) عن عمر =

---

(١) قوله: «رفع الله حكمته» في الصحاح: حكمة اللجام ما أحاط بالحنك.

(٢) قوله: «وهصه الله إلى الأرض»، وهصه: أي غمزه إلى الأرض. والوهص: كسر الشيء الرخو =

﴿ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

فإن قلت: لم أجيب إلى استنظاره، وإنما استنظر ليفسد عباده ويغويهم؟ (١)

قلت/ ٢٣٥أ: في ذلك من ابتلاء العباد، وفي مخالفته من أعظم الثواب، وحكمه حكم ما خلق في الدنيا من صنوف الزخارف، وأنواع الملاذ والملاهي، وما ركب في الأنفس من الشهوات؛ ليمتحن بها عباده.

﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

﴿ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي ﴾: فبسبب إغوائك إياي لأقعدنّ لهم، وهو تكليفه إياه ما وقع به في الغي، ولم يثبت كما ثبتت الملائكة، مع كونهم أفضل منه، ومن آدم أنفساً ومناصب (٢)، وعن الأصم: أمرتني بالسجود، فحملني الأنف على معصيتك، والمعنى: فبسبب وقوعي

= وقد ورد بعضه مرفوعاً من حديث ابن عباس، أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢/ ٢١٨ ـ ٢١٩) رقم (١٢٩٣٩) من طريق علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس مرفوعاً بلفظ: «ما من آدمي إلا في رأسه حكمة بيد ملك فإذا تواضع قيل للملك: ارفع حكمته، وإذا تكبر قيل للملك: ضع حكمته». وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٨٥) وقال: رواه الطبراني في «الكبير» وإسناده حسن.

قال الحافظ: أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه. حدثنا أبو خالد الأحمر وعبد الله بن إدريس وسفيان ابن عتبة عن ابن عجلان عن بكير بن الأشج عن معمر بن أبي حية عن عبيد الله بن عبيد الله بن عدي بن الخيار قال: قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: «إن العبد إذا تواضع لله رفع الله حكمته وقال: انتعش أنعشك الله. فهو في نفسه صغير، وفي أنفس الناس كبير. وإن العبد إذا تعظم وعدا طوره، وضعه الله إلى الأرض. وقال: اخْسَأْ خسأك الله فهو في نفسه كبير وفي أنفس الناس صغير، لهو أحقر عندهم من خنزير»، وأخرجه البيهقي في الشُّعَب من طريق علي بن المديني عن سفيان. وقد روي بعضه مرفوعاً، أخرجه الدارقطني في العلل من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «ما من آدمي إلا وملك آخذ بحكمته. فإذا رفع نفسه قيل للملك: ضع حكمتك ـ وإذا وضع نفسه قيل للملك: ارفع حكمتك، قال: لا يثبت. فيه علي بن زيد وهو ضعيف. انتهى.

= وشدة الوطء على الأرض، كذا في الصحاح.

(١) قال محمود: «فإن قلت: لم أجيب إلى استنظاره، وإنما استنظر ليفسد عباده... إلخ» قال أحمد: وهذا السؤال إنما يورده ويلتزم الجواب عنه القدرية الذين يوجبون على الله تعالى رعاية المصالح في أفعاله. وأما أهل السنة فقد أصغوا حق الإصغاء إلى قوله تعالى ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ فلا يورد أحد منهم هذا السؤال ولا يجيب عنه من يورده، والله الموفق.

(٢) قوله: «ومن آدم أنفساً ومناصب» هذا عند المعتزلة، أما عند أهل السنة فآدم أفضل منهم.

في الغيّ، لأجتهدن في إغوائهم[1] حتى يفسدوا بسببي، كما فسدت بسببهم.

فإن قلت: بم تعلقت الباء؛ فإنَّ تعلقها بلأقعدنّ يصدّ عنه لام القسم، لا تقول: والله بزيد لأمرّنّ؟

قلت: تعلقت بفعل القسم المحذوف تقديره: فبما أغويتني أقسم بالله لأقعدنّ، أي: فبسبب إغوائك أقسم[2]، ويجوز أن تكون الباء للقسم، أي: فأقسم بإغوائك لأقعدن، وإنما أقسم بالإغواء؛ لأنه كان تكليفاً، والتكليف من أحسن أفعال الله؛ لكونه تعريضاً لسعادة الأبد، فكان جديراً بأن يقسم به، ومن تكاذيب المجبرة، ما حكوه[3] عن طاوس

---

(١) قال محمود: «والمعنى: فبسبب وقوعي في الغي لأجتهدن في إغوائهم حتى يفسدوا بسببي... إلخ» قال أحمد: تحت كلام الزمخشري هذا نزغتان من الاعتزال خفيتان:
إحداهما: تحريفه الإغواء إلى التكليف، لأنه يعتقد أن الله تعالى لم يغوه، أي لم يخلق له الغي بناء على قاعدة التحسين. والتقبيح والصلاح والأصلح، فيضطره اعتقاده إلى حمل الإغواء على تكليفه بالسجود، لأنه كان سبباً في غيه. وكثيراً ما يؤول أفعال الله تعالى إذا أسندها إلى ذاته حقيقة إلى التسبب، ويجعل ذلك من مجاز السببية، لأن الفعل له ملابسات بالفاعل والمفعول والزمان والمكان والسبب، فإسناده إلى الفاعل حقيقة، وإسناده إلى بقيتها مجاز ويجعل الفعل مسنداً إلى الله ـ تعالى ـ لأنه مسببه لا أنه فاعله. وقد استدل على ذلك فيما سلف بقول مالك بن دينار لرجل رآه مقيداً محبوساً في مال عليه: هذه وضعت القيود في رجليك، وأشار إلى سلة فيها أخبصة وألوان مختلفة رآها عند المسجون، أي اعتناؤك بهذه الأطعمة كان سبباً في تبذير المال الذي آل بك إلى وضع القيود في رجليك. فعلى هذا يروم حمل هذه الآية، يعني بما كلفتني من التكليف الذي كان سبباً في خلقي الغي لنفسي لأقعدن، فيجعل إبليس هو الفاعل في الحقيقة. وأما إسناد الفعل إلى الله تعالى فمجاز. هذه إحدى النزغتين.
والأخرى: جعله التكليف من جملة الأفعال، لأنه يزعم أن كلام الله تعالى محدث من جملة أفعاله، لا صفة من صفاته، والتكليف من الكلام، فهاتان زلتان جمع القدرية بينهما. وإبليس لعنه الله لم يرض واحدة منهما، لأنه نسب الإغواء إلى الله تعالى، إذ هو خالق كل شيء، فما الظن بطائفة ترضى لنفسها من خفي الشرك ما لم يسبق به إبليس؟ نعوذ بالله من التعرض لسخط الله.

(٢) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وما ذكره من أن اللام تصد عن تعلق الباء بـ «لأَقْعُدَنَّ» ليس حكماً مجمعاً عليه، بل في ذلك خلاف قلت: أما الخلاف فنعم، لكنه خلاف ضعيف لا يعتد به أبو القاسم، والشيخ نفسه قد قال ـ عند قوله تعالى: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ﴾ في قراءة من كسر اللام في «لِمَنْ» ـ: «إنَّ ذلك لا يجيزه الجمهور». وسيأتي لك مبيناً إن شاء الله تعالى. انتهى. الدر المصون.

(٣) قوله: «ومن تكاذيب المجبرة ما حكوه» يعني أهل السنة. وسماهم المعتزلة بذلك. لقولهم: إن خالق أفعال العباد ولو قبيحة هو الله تعالى، فيكون العبد مجبوراً فيها؛ فكيف يصح تكليفه؟!.
ولكنهم أثبتوا للعبد الكسب في أفعاله، ولذلك صح تكليفه. أما الجبر المنافي للتكليف، فهو أن لا يكون للعبد دخل في فعله أصلاً، بحيث يكون كالريشة المعلقة في الهواء؛ وبه قالت المجبرة الحقيقية، كما هو مذكور في أواخر المواقف.

أنه كان في المسجد الحرام، فجاء رجل من كبار الفقهاء يرمي بالقدر، فجلس إليه، فقال له طاوس: تقوم أو تقام، فقام الرجل، فقيل له: أتقول هذا لرجل فقيه؟ فقال: إبليس أفقه منه، قال: «رب بما أغويتني»، وهذا يقول: أنا أغوي نفسي، وما ظنك بقوم بلغ من تهالكهم على إضافة القبائح إلى الله سبحانه، أن لفقوا الأكاذيب على الرسول والصحابة والتابعين[1]، وقيل: «ما»: للاستفهام؛ كأنه قيل: بأي شيء أغويتني؟ ثم ابتدأ لأقعدنّ، وإثبات الألف إذا أدخل حرف الجر على «ما» الاستفهامية، قليل شاذ، وأصل «الغي» الفساد، ومنه: غوى الفصيل، إذا بشم، والبشم: فساد في المعدة، لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم: لأعترضن لهم على طريق الإسلام، كما يعترض العدوّ على الطريق، ليقطعه على السابلة وانتصابه على الظرف؛ كقوله: [من الكامل]

. . . . . كَمَا عَسَلَ الطَّرِيقَ الثَّعْلَبُ[2]

وشبهه الزجاج بقولهم: ضرب زيد للظهر والبطن، أي: على الظهر والبطن، وعن رسول الله ـ ﷺ ـ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقَةٍ: قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الإِسْلاَمِ، فَقَالَ لَهُ: تَدَعُ دِينَ آبَائِكَ، فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الهِجْرَةِ، فَقَالَ لَهُ: تَدَعُ دِيَارَكَ وَتَغَرَّبُ، فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الجِهَادِ فَقَالَ لَهُ: تُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ فَيُقْسَمُ مَالُكَ وَتُنْكَحُ امْرَأَتُكَ،

---

(١) عاد كلامه. قال: «ومن تكاذيب المجبرة: ما حكوه عن طاوس أنه كان في المسجد الحرام فجاء رجل من كبار الفقهاء يرمي بالقدر، فجلس إليه فقال له طاوس تقوم أو تقام؟ فقام الرجل. فقيل له: أتقول هذا لرجل فقيه؟ فقال: إبليس أفقه منه، قال رب بما أغويتني. وهذا يقول: أنا أغوي نفسي. انتهى كلام طاوس على زعمهم. وما ظنك بقوم بلغ من تهالكهم على إضافة القبائح إلى الله سبحانه وتعالى أن لفقوا الأكاذيب على الرسول والصحابة والتابعين» انتهى كلامه. قال أحمد: وإنما أوردت مثل هذا من كلامه وإن كان غير محتاج إلى التنبيه على فساده وحيده عن العقائد الصحيحة لتبلج الحجة في وجوب الرد عليه وتعينه على من هداه الله إليه. ولقد صدق طاوس رضي الله عنه. وأما قول الزمخشري في أهل السنة الذين سماهم مجبرة أنهم يتهالكون في نسبة القبائح إلى الله تعالى، فحاصله: أنهم يخلصون التوحيد حتى لا يؤمنون بخالق غير الله، ولكي يصدقوا قوله تعالى متمدحاً ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ لا كالقدرية الذين هم يتهالكون حتى هم يشركون ويحرفون الكلم عن مواضعه، فيؤولون الفاعل بالمسبب، فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون، والله الموفق للصواب.

(٢) لدن بهز الكف يعسل متنه فيه كما عسل الطريق الثعلب

لساعدة بن جؤية، يصف رمحاً بأنه لين يضطرب صلبه في الكف بسبب هزه، فلا يبس فيه، كما عسل أي اضطرب الثعلب في الطريق، فحذف الجار من الثاني للضرورة، واغتفر لذكره في الأولى. وفي عسل معنى الدخول بسرعة.

ينظر: ديوان الهذليين ١/ ٩٠١، الكتاب ١/ ١٦، الخصائص ٣/ ٣١٩، أمالي ابن الشجري ١/ ٤٢، الهمع ١/ ٢٠٠، الدرر ١/ ١٦٩، الدر المصون ٣/ ٢٤٢.

فَعَصَاهُ فَقَاتَلَ (٥٩٥) ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم﴾: من الجهات الأربع، التي يأتي منها العدوّ في الغالب، وهذا مثل لوسوسته/ ٢٣٥ ب إليهم، وتسويله ما أمكنه وقدر عليه؛ كقوله: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤].

فإن قلت: كيف قيل: ﴿مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ بحرف الابتداء، ﴿وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ بحرف المجاوزة؟

قلت: المفعول فيه عدّي إليه الفعل، نحو تعديته إلى المفعول به، فكما اختلفت حروف التعدية في ذاك، اختلفت في هذا، وكانت لغة تؤخذ، ولا تقاس، وإنما يفتش عن صحة موقعها فقط، فلما سمعناهم يقولون: جلس عن يمينه، وعلى يمينه، وعن شماله، وعلى شماله، قلنا: معنى: «على يمينه»: أنه تمكن من جهة اليمين تمكن المستعلي من المستعلى عليه، ومعنى: «عن يمينه»: أنه جلس متجافياً عن صاحب اليمين، منحرفاً عنه، غير ملاصق له، ثم كثر حتى استعمل في المتجافي وغيره، كما ذكرنا في: «تعال»، ونحوه من المفعول به قولهم: «رميت عن القوس»، وعلى القوس، ومن القوس؛ لأنّ السهم يبعد عنها، ويستعليها إذا وضع على كبدها للرمي، ويبتدىء الرمي منها؛ كذلك قالوا: جلس بين يديه، وخلفه، بمعنى فيه؛ لأنهما ظرفان للفعل، ومن بين يديه ومن خلفه؛ لأن الفعل يقع في بعض الجهتين، كما تقول: جئته من الليل، تريد بعض الليل.

وعن شقيق: ما من صباح إلا قعد لي الشيطان على أربع مراصد: من بين يدي، ومن خلفي، وعن يميني، وعن شمالي، أمّا من بين يدي فيقول: لا تخف؛ فإن الله غفور رحيم، فأقرأ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [طه: ٨٢]، وأمّا من خلفي: فيخوّفني الضيعة على مخلفي، فأقرأ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، وأمّا من قبل يميني: فيأتيني من قبل الثناء، فأقرأ: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢] وأمّا من قبل شمالي، فيأتيني من قبل الشهوات فأقرأ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤] ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾: قاله تظنياً؛ بدليل قوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ [سبأ: ٢٠]، وقيل:

---

٥٩٥ ـ أخرجه النّسائي (٦/ ٢١): كتاب الجهاد باب ما لمن أسلم وهاجر وجاهد، وأحمد (٣/ ٤٨٣)، والطبراني في معجمه الكبير (٧/ ١٣٨)، حديث (٦٥٥٨)، وابن حِبان (١٠/ ٤٥٣) حديث (٤٥٩٣).

قال الحافظ: أخرجه النّسائي وأحمد وابن حِبان وأبو يَعلى والطبراني من حديث سبرة بن الفاكه وابن أبي الفاكه به وأتم منه.

(تنبيهان) أحدهما: قوله: «بأطرقة» ضبطه ثابت في الدلائل بكسر الراء، بمثناه، وبضم الراء وبهاء.

ثانيهما: قوله «بأطرته» وقع عند الطيبي، رواه النّسائي من حديث سبرة بن معبد وهو وهم. انتهى.

سمعه من الملائكة بإخبار الله ـ تعالى ـ لهم.

﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾

﴿مَذْءُومًا﴾: من: ذأمه إذا ذمّه، وقرأ الزهري: «مذوماً» بالتخفيف، مثل مسول في مسئول، واللام في: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ﴾: موطئة للقسم، و﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾: جوابه، وهو ساد مسدّ جواب الشرط، ﴿مِنكُمْ﴾: منك ومنهم، فغلب ضمير المخاطب؛ كما في قوله: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، وروى عصمة عن عاصم: «لِمن تبعك»، بكسر اللام، بمعنى: لمن تبعك منهم هذا الوعيد، وهو قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، على أن «لأملأنّ»: في محل الابتداء، و«لمن تبعك»: خبره.

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ﴾: وقلنا يا آدم، وقرىء: هذي الشجرة، والأصل الياء، والهاء بدل منها، ويقال: «وسوس»، إذ اتكلم كلاماً خفيًا يكرره، ومنه وسوس الحليّ، وهو فعل غير متعدّ، كولولت المرأة ووعوع الذئب، ورجل موسوس/ ٢٣٦أ بكسر الواو ـ ولا يقال موسوس بالفتح، ولكن موسوس له، وموسوس إليه، وهو الذي تلقى إليه الوسوسة، ومعنى: وسوس له: فعل الوسوسة لأجله، ووسوس إليه: ألقاها إليه، ﴿لِيُبْدِيَ﴾: جعل ذلك غرضاً له ليسوءهما إذا رأيا ما يؤثران ستره ألاّ يطلع عليه مكشوفاً؛ وفيه دليل على أن كشف العورة من عظائم الأمور[1]، وأنه لم يزل مستهجناً في الطباع مستقبحاً في العقول.

---

(١) قال محمود: «فيه دليل على أن كشف العورة من عظائم الأمور... إلخ» قال أحمد: وفي هذه الكلمات أيضاً جنوح إلى قاعدة الاعتزال في أمرين، أحدهما: قوله إن كشف العورة لم يزل مستقبحاً في العقول، فإنه ينشأ عن اعتقاده أن القبح والتحسين بالعقل وإن جاز أن يصدر هذا الكلام من المعتقد لعقيدة السنة، إلا أنه لا يريد به ظاهره، إذ التحسين والتقبيح إنما يدركان بالشرع والسمع لا بالعقل. ومعنى هذا الإطلاق ولو صدر من سني: أن العقل يدرك المعنى الذي لأجله حسن الشرع الستر وقبح الكشف. الأمر الثاني: استدلاله على تفضيل الملائكة على الأنبياء وقد =

فإن قلت: ما للواو المضمومة في: ﴿وُۥرِيَ﴾ لم تقلب همزة كما قلت في أو يصل؟

قلت: لأن الثانية مدّة كألف وارى، وقد جاء في قراءة عبد الله: «أورى»، بالقلب، ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾: إلا كراهة أن تكونا ملكين، وفيه دليل على أن الملكية بالمنظر الأعلى، وأن البشرية تلمح مرتبتها كلا ولا، وقرىء: «مِلكين»، بكسر اللام؛ كقوله: ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]. ﴿مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾: من الذين لا يموتون ويبقون في الجنة ساكنين، وقرىء: «من سوأتهما»، بالتوحيد، «وسوَّاتهما»، بالواو المشدّدة، ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾: وأقسم لهما، ﴿إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

فإن قلت: المقاسمة أن تقسم لصاحبك ويقسم لك[1]، تقول: قاسمت فلاناً حالفته، وتقاسما تحالفا، ومنه قوله تعالى: ﴿تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾ [النمل: ٤٩].

قلت: كأنه قال لهما: أقسم لكما إني لمن الناصحين، وقال له: أتقسم بالله إنك لمن الناصحين؟ فجعل ذلك مقاسمة بينهم، أو أقسم لهما بالنصيحة، وأقسما له بقبولها[2]، أو أخرج قسم إبليس على زنة المفاعلة، لأنه اجتهد فيه اجتهاد المقاسم، ﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾ فنزلهما إلى الأكل من الشجرة، ﴿بِغُرُورٍ﴾: بما غرهما به من القسم بالله، وعن قتادة: وإنما يخدع المؤمن بالله، وعن ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ: أنه كان إذا رأى من عبده طاعة وحسن صلاة، أعتقه، فكان عبيده يفعلون ذلك؛ طلباً للعتق، فقيل له: إنهم يخدعونك، فقال:

---

٥٩٦ ـ أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥) من طريق عبد العزيز بن أبي رواد عن نافع عن ابن عمر به. وأخرجه أيضاً ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٤/ ١٢٥ ـ ١٢٦) من طريق عبد =

= مضى أن ذلك معتقد المعتزلة وإن كان بعض أهل السنة قد مال إليه، والجواب ممن يعتقد تفضيل الأنبياء أنه لا يلزم من اعتقاد إبليس ذلك ووسوسته بأن الملائكة أفضل أن يكون الأمر كذلك في علم الله تعالى. ألا ترى إبليس لعنه الله قد أخبر أن الله تعالى منعهما من الشجرة حتى لا يخلدا أو لا يكونا ملكين؟ وهو في ذلك كاذب مبطل، فلادليل فيه، إذ ليس في الآية ما يوجب تقرير الله تعالى لإبليس على ذلك ولا تصديقه فيه، بل ختمت الآية بما يدل على أنه كذب لهما وغرهما، إذ قال الله تعالى عنه ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ فلعل تفضيله الملكية على النبوة من جملة غروره، والله أعلم.

(١) عاد كلامه. قال: «فإن قلت: المقاسمة أن تقسم لصاحبك ويقسم لك... إلخ» قال أحمد: ويكون في الكلام حينئذ لف، لأن آدم وحواء عليهما السلام لا يقسمان له بلفظ المتكلم، ولكن بالخطاب، فجعل القسم من الجانبين كلاماً واحداً مضافاً لإبليس.

(٢) عاد كلامه. قال: «أو أقسم لهما على النصيحة وأقسما له على قبولها» قال أحمد: وهذا التأويل يتم لوجود المقاسمة عن ذكر المقسم عليه. وأما حيث جعل المقسم عليه هو النصيحة لا غير، فيبعد التأويل المذكور؛ إلا أن يحمل الأمر على أنه سمى قبول النصيحة نصيحة للمشاكلة والمقابلة، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ﴾ أنه سمى التزام موسى للوفاء والحضور للميعاد ميعاداً، فأسند التعبير بالمفاعلة، والله أعلم.

من خدعنا بالله انخدعنا له (٥٩٦)، ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾: وجدا طعمها آخذين في الأكل منها، وقيل: «الشجرة» هي «السنبلة»، وقيل: «شجرة الكرم» ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ أي: تهافت عنهما اللباس، فظهرت لهما عوراتهما، وكانا لا يريانها من أنفسهما، ولا أحدهما من الآخر، وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: ما رأيت منه، ولا رأى مني (٥٩٧).

وعن سعيد بن جبير: كان لباسهما من جنس الأظفار.

وعن وهب: كان لباسهما نوراً يحول بينهما وبين النظر، ويقال: طفق بفعل كذا،

= العزيز بن أبي رواد به.

قال الحافظ: أخرجه ابن سعد من رواية نافع قال: «كان ابن عمر إذا اشتد عجبه بشيء من ماله قربه لربه ـ وكان رقيقه قد عرفوا ذلك منه. فربما شمر أحدهم فيلزم المسجد، فإذا رآه ابن عمر على تلك الحالة الحسنة أعتقه. فيقول له أصحابه. فذكره. وأخرجه أبو نعيم في الحلية من هذا الوجه. انتهى.

٥٩٧ ـ عزاه الزيلعي في «تخريج الكشاف» (١/٤٥٨) إلى أبي يعلى في مسنده، ومن طريقه ابن الجوزي في الوفا ولفظه: «ما أتى رسول الله ﷺ أحداً من نسائه إلا متقنعاً يرخي الثوب على رأسه، ولا رأيته من رسول الله ﷺ ولا رآه مني».

وضعفه الحافظ في «تخريج الكشاف».

وللحديث طريق آخر عن عائشة:

أخرجه الدارقطني في «غرائب مالك» من طريق محمد بن كامل بن ميمون الزيات ثنا زيد بن الحسن ثنا مالك بن أنس عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت: «ما نظرت إلى فرج رسول الله ﷺ ولا نظر إلى فرجي قط».

قال الدارقطني: محمد بن كامل وزيد بن حسن ضعيفان، ولا يصح هذا عن مالك ولا عن الزهري.

ينظر «تخريج الكشاف» للزيلعي (١/٤٥٨).

وله طريق ثالث عن عائشة:

أخرجه ابن ماجه (١/٢١٧) كتاب الطهارة: باب النهي أن يرى عورة أخيه حديث (٦٦٢)، والتِّرمذي في «الشمائل المحمدية» (٣٦٠) من طريق موسى بن عبد الله بن يزيد عن مولى لعائشة عن عائشة قالت: «ما نظرت أو ما رأيت فرج رسول الله ﷺ قط».

وإسناده ضعيف. لجهالة مولى عائشة.

قال الحافظ: أخرجه أبو يعلى من رواية كامل أبي العلاء عن أبي صالح ـ رواه ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قالت عائشة «ما أتى رسول الله ﷺ أحداً من نسائه إلا متقنعاً مرخي الثوب على رأسه، وما رأيته من رسول الله ﷺ. ولا رآه مني ـ تعني الفرج» إسناده ضعيف. وروى التِّرمذي وابن ماجه وأحمد وابن أبي شيبة من رواية عبد الله بن يزيد عن مولى عائشة قالت: «ما رأيت فرج رسول الله ﷺ قط» وروى الدارقطني في غرائب مالك عن الزهري ورواه الطبراني في الصغير من رواية أنس عن عائشة مثله ـ وزاد: «ولا نظر إلى فرجي قط»، وفي إسناده زيد بن الحسن عن مالك. وهو ضعيف. وقال: لا يصح هذا عن مالك ولا عن الزهري. وروى الطبراني في الصغير من رواية أنس عن عائشة نحوه. وفي إسناده بركة بن محمد الحلبي، وهو متروك. انتهى.

بمعنى: جعل يفعل كذا، وقرأ أبو السمال: و«طفقاً» بالفتح، ﴿يَخْصِفَانِ﴾: ورقة فوق ورقة على عوراتهما ليستترا بها، كما يخصف النمل، بأن تجعل طرقة على طرقة، وتوثق بالسيور، وقرأ الحسن: «يخِصّفان»، بكسر الخاء وتشديد الصاد، وأصله «يختصفان»، وقرأ الزهري: «يُخصفان»، من أخصف، وهو منقول من خصف، أي: يخصفان أنفسهما، وقرىء/ ٢٣٦ب: «يخصفان»، من خصَّف بالتشديد ﴿مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾: قيل: كان ورق التين، ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا﴾: عتاب من الله ـ تعالى ـ وتوبيخ، وتنبيه على الخطأ؛ حيث لم يتحذرا ما حذرهما الله من عداوة إبليس، وروي: أنه قال لآدم: «ألم يكن لك فيما منحتك من شجر الجنة مندوحة عن هذه الشجرة؟» فقال: بلى وعزتك، ولكن ما ظننت أنّ أحداً من خلقك يحلف بك كاذباً. قال: فبعزتي لأهبطنك إلى الأرض، ثم لا تنال العيش إلا كدّاً»، فأهبط وعلم صنعة الحديد، وأمر بالحرث فحرث، وسقى، وحصد، وداس، وذرى، وطحن، وعجن، وخبز.

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

وسمّيا ذنبهما وإن كان صغيراً، مغفوراً، ظلماً لأنفسهما[1]، وقالا: ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾: على عادة الأولياء، والصالحين في استعظامهم الصغير من السيئات، واستصغارهم العظيم من الحسنات.

﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿ٱهْبِطُوا۟﴾: الخطاب لآدم، وحواء، وإبليس، و﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾: في موضع الحال، أي: متعادين يعاديهما إبليس ويعاديانه، ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾: استقرار، أو موضع استقرار، ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾: وانتفاع بعيش إلى انقضاء آجالكم، وعن ثابت البناني: لما أهبط آدم وحضرته الوفاة، أحاطت به الملائكة، فجعلت حواء تدور حولهم، فقال لها: خلي ملائكة ربي، فإنما أصابني الذي أصابني فيك، فلما توفي، غسلته الملائكة بماء، وسدر، وتراً،

---

(١) قال محمود: «سميا ذنبهما ظلماً وإن كان صغيراً مغفوراً... إلخ» قال أحمد: وهذا أيضاً اعتزال خفي، لأنهم يزعمون أن اجتناب الكبائر يوجب تكفير الصغائر وإن لم يتب العبد منها. فهذا معنى قول الزمخشري: وإن كان صغيراً مغفوراً. وإنما وسمت هذا الاعتزال بالخفاء، لأن هذا الكلام يستقيم وروده عن أهل السنة، لكنهم يعنون بكونه مغفوراً: أن الله تعالى تفضل بغفرانه، ولو شاء لآخذ به وإن كان الأنبياء معصومين من الكبائر، لا كما يزعمه المعتزلة من وجوب مغفرته، والله الموفق.

وحنطته، وكفنته في وتر من الثياب، وحفروا له ولحدوا، ودفنوه بسرنديب بأرض الهند، وقالوا لبنيه: هذه ستتكم بعده.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦﴾

جعل ما في الأرض منزلاً من السماء؛ لأنه قضى ثم وكتب، ومنه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖ﴾، والريش لباس الزينة، استعير من ريش الطير؛ لأنه لباسه وزينته، أي: أنزلنا عليكم لباسين: لباساً يواري سوآتكم، ولباساً يزينكم؛ لأن الزينة غرض صحيح، كما قال: ﴿لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ﴾ [النحل: ٨]. ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ﴾ [النحل: ٦]، وقرأ عثمان ـ رضي الله عنه ـ: «ورياشاً»، جمع ريش، كشعب وشعاب، ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾: ولباس الورع، والخشية من الله ـ تعالى ـ وارتفاعه على الابتداء، وخبره إمّا الجملة التي هي: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾، كأنه قيل: ولباس التقوى هو خير؛ لأن أسماء الإشارة تقرب من الضمائر فيما يرجع إلى عود الذكر، وأمّا المفرد الذي هو خير؛ وذلك صفة للمبتدأ، كأنه قيل: ولباس التقوى المشار إليه خير، ولا تخلو الإشارة من أن يراد بها تعظيم لباس التقوى، أو أن تكون إشارة إلى اللباس المواري للسوأة؛ لأنّ مواراة السوأة من التقوى، تفضيلاً له على لباس الزينة، وقيل: لباس التقوى خبر مبتدأ محذوف، أي: وهو لباس التقوى، ثم قيل: ذلك خير، وفي قراءة عبد الله وأبيّ: «ولباس التقوى خير»، وقيل: المراد/ ٢٣٧أ بلباس التقوى: ما يلبس من الدروع، والجواشن، والمغافر[1]، وغيرها مما يتقى به في الحروب، وقرىء: «ولباسَ التقوى»، بالنصب عطفاً على «لباساً» و«ريشاً»، ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: الدالة على فضله ورحمته على عباده، يعني: إنزال اللباس، ﴿لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾: فيعرفوا عظيم النعمة فيه، وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقيب ذكر بدو السوآت، وخصف الورق عليها؛ إظهاراً للمنة فيما خلق من اللباس، ولما في العري وكشف العورة من المهانة والفضيحة، وإشعاراً بأنّ التستر باب عظيم من أبواب التقوى.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧﴾

---

(١) قوله: «الجواشن والمغافر» الجواشن: هي ما ينسج من الدروع على قدر الصدر. والمغافر: ما ينسج منها على قدر الرأس، يلبس تحت القلنسوة.

﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: لا يمتحننكم بألاً تدخلوا الجنة، كما محن أبويكم بأن أخرجهما منها، ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾: حال، أي: أخرجهما نازعاً لباسهما، بأن كان سبباً في أن نزع عنهما، ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ﴾: تعليل للنهي، وتحذير من فتنته، بأنه بمنزلة العدوّ المداجي[1]، يكيدكم ويغتالكم من حيث لا تشعرون، وعن مالك بن دينار: إنّ عدواً يراك، ولا تراه، لشديد المؤنة إلا من عصم الله، ﴿وَقَبِيلُهُۥ﴾: وجنوده من الشياطين، وفيه دليل بين أن الجنّ لا يرون[2]، ولا يظهرون للإنس، وأن إظهارهم أنفسهم ليس في استطاعتهم، وأن زعم من يدّعي رؤيتهم زور، ومخرقة، ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: خلينا بينهم وبينهم[3] لم نكفهم عنهم حتى تولوهم، وأطاعوهم فيما سوّلوا لهم من الكفر والمعاصي، وهذا تحذير آخر أبلغ من الأول.

فإن قلت: علام عطف «وقبيله»؟

قلت: على الضميرفي «يراكم» المؤكد بـ «هو» والضمير في «أنه» للشأن والحديث، وقرأ اليزيدي: (وقبيله): بالنصب، وفيه وجهان: أن يعطفه على اسم «إن»، وأن تكون بمعنى «مع»، وإذا عطفه على اسم «إن»، وهو الضمير في أنه، كان راجعاً إلى إبليس.

﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾

الفاحشة: ما تبالغ في قبحه من الذنوب، أي: إذا فعلوها اعتذروا بأن آباؤهم كانوا يفعلونها فاقتدوا بهم، وبأنّ الله تعالى أمرهم بأن يفعلوها، وكلاهما باطل من العذر[4]؛

---

(١) قوله: «العدو المداجي» في الصحاح «المداجاة» المداراة. يقال: داجيته، إذا، داريته، كأنك سائرته العداوة.

(٢) قال محمود: «وفيه دليل بين أنهم لا يرون... إلخ» قال أحمد: أين يذهب به عما ورد في الحديث الصحيح، من اعتراض إبليس رأسهم ومقدمهم للنبي ﷺ يروم أن يشغله عن صلاته، حتى أمكنه الله منه فأخذه ـ عليه الصلاة والسلام ـ فدغنه وأراد أن يربطه إلى سارية من سواري المسجد يلعب به الصبيان، حتى ذكر دعوة سليمان عليه السلام فتركه. وإذا جاز ذلك للنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان جائزاً لأولياء الله والمتبعين لسنة رسول الله ﷺ كرامة، لكن الزمخشري يصده عن ذلك جحده لكرامة الأولياء، لأنه عقيدة إخوانه، إذ الكرامة إنما يؤتاها الولي الصادق، فكيف ينالها من يشك في إسلامه، فإنهم لفي عذر من جحدها والتكذيب بها. رزقنا الله الإيمان بالكرامات إن لم نكن لها أهلاً، والله الموفق.

(٣) قوله: «أي خلينا بينهم وبينهم» فسر الجعل بذلك؛ لأنه تعالى لا يخلق الشر عند المعتزلة. وعند أهل السنة يخلقه كالخير.

(٤) قال محمود: «وكلاهما باطل من العذر لأن أحدهما... إلخ» قال أحمد: وهذا أيضاً من الاعتزال الخفي، وغرضه أن يمهد قاعدة التحسين والتقبيح، ومراعاة الصلاح والأصلح، واستحالة مخالفة =

لأن أحدهما تقليد، والتقليد ليس بطريق للعلم.

والثاني: افتراء على الله، وإلحاد في صفاته، كانوا يقولون: لو كره الله منا ما نفعله، لنقلنا عنه، وعن الحسن: إن الله ـ تعالى ـ بعث محمداً ـ ﷺ ـ إلى العرب، وهم قدرية مجبرة[1]، يحملون ذنوبهم على الله؛ وتصديقه قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾؛ لأنّ فعل القبيح مستحيل عليه[2]؛ لعدم الداعي، ووجود الصارف، فكيف يأمر بفعله، ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: إنكار لإضافتهم القبيح إليه، وشهادة على أن مبنى قولهم على الجهل المفرط، وقيل: المراد بالفاحشة: طوافهم بالبيت عراة.

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿بِٱلْقِسْطِ﴾: بالعدل، وبما قام/ ٢٣٧ب في النفوس أنه مستقيم حسن عند كل مميز، وقيل: بالتوحيد، ﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ وقل: «أقيموا وجوهكم» أي: اقصدوا عبادته مستقيمين إليها، غير عادلين إلى غيرها، ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾: في كل وقت سجود، أو في كل مكان سجود، وهو الصلاة، ﴿وَٱدْعُوهُ﴾: واعبدوه، ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: الطاعة، مبتغين بها وجه الله خالصاً، ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: كما أنشأكم ابتداء يعيدكم؛ احتجّ عليهم في إنكارهم الإعادة بابتداء الخلق، والمعنى: أنه يعيدكم، فيجازيكم على أعمالكم، فأخلصوا له العبادة.

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾: وهم الذين أسلموا، أي: وفقهم للإيمان، ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ﴾: أي كلمة الضلالة، وعلم الله أنهم يضلون ولا يهتدون، وانتصاب قوله:

= ذلك على الله تعالى، ولا يتم من ذلك غرض؛ لأن المنكر عليهم: دعواهم أن الله تعالى أمرهم بالفحشاء، وهم كاذبون في هذه الدعوى، ولا يلزم من سلب الأمر الإرادة، لأن الله تعالى يأمر بما لا يريد، ويريد ما لا يأمر به.

(١) قوله: «وهم قدرية مجبرة»، أي: كالمجبرة يعني أهل السنة، لقولهم: إن الله يريد الشر كالخير، والإرادة هي الأمر عند المعتزلة، لكنها غيره عند أهل السنة، فالفحشاء بإرادته تعالى، لكنه لا يأمر بها. وتحقيقه في التوحيد.

(٢) قوله: «فعل القبيح مستحيل عليه» يريد أن الله لا يريد فعل القبيح؛ وهي عقيدة المعتزلة. أما عند أهل السنة فالله يريد القبيح والحسن «ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن».

﴿وَفَرِيقًا﴾: بفعل مضمر يفسره ما بعده، كأنه قيل: وخذل فريقاً حق عليهم الضلالة، ﴿إِنَّهُمُ﴾: إنّ الفريق الذي حقّ عليهم الضلالة، ﴿ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: تولوهم بالطاعة فيما أمروهم به؛ وهذا دليل على أن علم الله لا أثر له في ضلالهم، وأنهم هم الضالون باختيارهم، وتوليهم الشياطين دون الله.

﴿۞ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾

﴿خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ﴾ أي: ريشكم، ولباس زينتكم، ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾: كلما صليتم أو طفتم، وكانوا يطوفون عراة، وعن طاوس، لم يأمرهم بالحرير، والديباج؛ وإنما كان أحدكم يطوف عرياناً ويدع ثيابه وراء المسجد، وإن طاف وهي عليه، ضرب، وانتزعت عنه، لأنهم قالوا: لا نعبد الله في ثياب أذنبنا فيها، وقيل: تفاؤلاً ليتعروا من الذنوب كما تعروا من الثياب، وقيل: الزينة المشط، وقيل: الطيب، والسنة أن يأخذ الرجل أحسن هيئته للصلاة، وكان بنو عامر في أيام حجهم لا يأكلون الطعام إلا قوتاً، ولا يأكلون دسماً يعظمون بذلك حجهم، فقال المسلمون: فإنا أحق أن نفعل، فقيل لهم: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: كل ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان: سرف، ومخيلة (٥٩٨)، ويحكى أنّ الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق، فقال لعلي بن الحسين بن واقد: ليس في كتابكم من علم الطب شيء، والعلم علمان: علم الأبدان، وعلم الأديان، فقال له: قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابه، قال: وما هي؟ قال: قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾، فقال النصراني: ولا يؤثر من رسولكم شيء في الطب؟ فقال: قد جمع رسولنا ـ ﷺ ـ الطب في ألفاظ يسيرة، قال: وما هي؟ قال: قوله: «المَعِدَةُ بَيْتُ الدَّاءِ، وَالْحَمِيَّةُ رَأْسُ الدَّوَاءِ، وَأَعْطِ كُلَّ بَدَنٍ مَا عَوَّدْتَهُ» فقال النصراني: ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طباً (٥٩٩).

---

٥٩٨ ـ علقه البخاري موقوفاً على ابن عباس (١٠/ ٢٦٤) كتاب اللباس: باب قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾، قال الحافظ: ووصله ابن أبي شيبة والدينوري.
وأخرجه النَّسائي في السنن الكبرى (٢/ ٤١) حديث (٢٣٤٠)، وابن ماجه (٢/ ١١٩٢): كتاب اللباس: باب البس ما شئت، ما أخطأك سرف أو مخيلة، حديث (٣٦٠٥)، وأحمد (٢/ ١٨١، و١٨٢)، والحاكم في المستدرك (٤/ ١٣٥) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعاً إلى النبي ﷺ.
قال الحافظ: أخرجه ابن أبي شيبة حدثنا سفيان عن إبراهيم بن ميسرة عن عطاء وطاوس عنه بهذا؛ لكن قال: «خلتان». وروى النَّسائي وابن ماجه وأحمد والحاكم من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رفعه: «كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا ما لم تخالطوا إسرافاً ولا مخيلة». انتهى.
٥٩٩ ـ ذكره الزيلعي في «تخريج الكشاف» (١/ ٤٦٠) وقال: غريب جدا. =

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿زِينَةَ ٱللَّهِ﴾: من الثياب، وكل ما يتجمل به، ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾: المستلذات من المآكل والمشارب، ومعنى الاستفهام في من: إنكار تحريم هذه الأشياء/ ٢٣٨أ، قيل: كانوا إذا أحرموا حرّموا الشاة، وما يخرج منها من لحمها، وشحمها، ولبنها، ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ غير خالصة لهم؛ لأنّ المشركين شركاؤهم فيها، ﴿خَالِصَةً﴾: لهم، ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: لا يشركهم فيها أحد.

فإن قلت: هلا قيل: «هي للذين آمنوا ولغيرهم».

قلت: لينبه على أنها خلقت للذين آمنوا على طريق الأصالة، وأن الكفرة تبع لهم؛ كقوله تعالى: ﴿ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار﴾ [البقرة: ١٣٦] وقرىء: «خالصة» بالنصب على الحال، وبالرفع على أنها خبر بعد خبر.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿ٱلْفَوَٰحِشَ﴾: ما تفاحش قبحه، أي: تزايد، وقيل: هي ما يتعلق بالفروج، ﴿وَٱلْإِثْمَ﴾: عام لكل ذنب، وقيل: شرب الخمر، ﴿وَٱلْبَغْىَ﴾: الظلم والكبر، أفرده بالذكر؛ كما قال: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النحل: ٩٠]. ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾: فيه تهكم؛ لأنه لا يجوز أن ينزل برهاناً بأن يشرك به غيره[1]، ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾: وأن

= وقال الحافظ: لم أجد له إسناداً.
قال الحافظ: لم أجده، وروى العقيلي في الضعفاء من رواية إبراهيم بن جريج الرهاوي عن زيد بن أبي أنيسة عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة ـ رفعه: «المعدة حوض البدن. والعروق إليها واردة: فإذا صحت المعدة صدرت العروق بالصحة، وإذا فسدت المعدة صدرت العروق بالسقم»، وقال: حديث باطل لا أصل له. وقال الدارقطني لا يصح ولا يعرف من كلام النبي ﷺ لسند إبراهيم بن جريج غير هذا وكان طبيباً، فجعل له إسناداً». انتهى.

---

(١) قال محمود: «في هذا تهكم؛ لأنه لا يجوز أن ينزل برهاناً بأن يشرك به غيره، قال أحمد: وإنما يعني التهكم منه لأن الكلام جرى مجرى ماله سلطان، إلا أنه لم ينزل؛ لأنه إنما نفى تنزيل السلطان به ولم ينف أن يكون له سلطان، وكان أصل الكلام: وأن تشركوا بالله ما لا سلطان به فينزل فيكون على طريقة [من الطويل]:

على لا حب لا يهتدي بمناره ....

تقوّلوا عليه، وتفتروا الكذب من التحريم وغيره.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾: وعيد لأهل مكة بالعذاب النازل في أجل معلوم عند الله كما نزل بالأمم، وقرىء: «فإذا جاء آجالهم»، وقال: ﴿سَاعَةً﴾؛ لأنها أقل الأوقات في استعمال الناس، يقول المستعجل لصاحبه: في ساعة، يريد أقصر وقت وأقربه.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾: هي «إن»: الشرطية ضمت إليها «ما» مؤكدة لمعنى الشرط؛ ولذلك لزمت فعلها النون الثقيلة أو الخفيفة.

فإن قلت: فما جزاء هذا الشرط؟

قلت: الفاء وما بعده من الشرط والجزاء، والمعنى: فمن اتقى وأصلح منكم، والذين كذبوا منكم.

وقرىء: «تأتينكم»، بالتاء.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾: فمن أشنع ظلماً ممن تقوّل على الله ما لم يقله، أو كذب ما قاله، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: مما كتب لهم من الأرزاق، والأعمار، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾: حتى غاية لنيلهم نصيبهم واستيفائهم له، أي: إلى وقت وفاتهم، وهي: «حتى» التي يبتدأ بعدها الكلام، والكلام ههنا الجملة الشرطية، وهي إذا جاءتهم رسلنا قالوا، و﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾: حال من الرسل، أي: متوفيهم، والرسل: ملك الموت وأعوانه، «وما»: وقعت موصولة بأين في خط المصحف، وكان حقها أن تفصل؛ لأنها موصولة بمعنى: أين الآلهة الذين تدعون، ﴿ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾: غابوا عنا، فلا نراهم، ولا ننتفع بهم؛ اعترافاً منهم بأنهم لم يكونوا على شيء فيما كانوا عليه، وأنهم لم يحمدوه في العاقبة.

﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟﴾ أي: يقول الله ـ تعالى ـ يوم القيامة لأولئك الذين قال فيهم: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٣٧]، وهم كفار العرب، ﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾: في موضع الحال، أي: كائنين في جملة أمم، وفي غمارهم مصاحبين لهم، أي: ادخلوا في النار مع أمم، ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم﴾: وتقدّم زمانهم زمانكم، ﴿لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾: التي ضلت بالاقتداء بها، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا﴾/ ٢٣٨ب أي: «تداركوا» بمعنى: تلاحقوا واجتمعوا في النار، ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ﴾: منزلة، وهي الأتباع، والسفلة، ﴿لِأُولَىٰهُمْ﴾: منزلة وهي القادة والرؤس، ومعنى «لأولاهم»: لأجل أولاهم؛ لأن خطابهم مع الله لا معهم، ﴿عَذَابًا ضِعْفًا﴾: مضاعفاً ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾؛ لأنّ كلاً من القادة والأتباع كانوا ضالين مضلين، ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾: قرىء بالياء والتاء، ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾: عطفوا هذا الكلام على قول الله ـ تعالى ـ للسفلة، «لكل ضعف»، أي: فقد ثبت أن لا فضل لكم علينا، وأنا متساوون في استحقاق الضعف، ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾: من قول القادة، أو من قول الله لهم جميعاً.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾

﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾: لا يصعد لهم عمل صالح، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾﴾ [المطففين: ١٨].

وقيل: إنّ الجنة في السماء، فالمعنى: لا يؤذن لهم في صعود السماء، ولا يطرّق لهم إليها ليدخلوا الجنة.

وقيل: لا تصعد أرواحهم إذا ماتوا كما تصعد أرواح المؤمنين.

وقيل: لا تنزل عليهم البركة، ولا يغاثون، «بفتحنا أبواب السماء، وقرىء: «لا تفتّح»، بالتشديد، ولا «يفتح» بالياء، «ولا تفتح»، بالتاء، والبناء للفاعل، ونصب

الأبواب، على أنّ الفعل للآيات، وبالياء على أن الفعل لله، عز وجل.

وقرأ ابن عباس: «الجمل»، بوزن القمل، وسعيد بن جبير: «الجمل»، بوزن النغر.

وقرىء: «الجمل»: بوزن القفل، و«الجمل»: بوزن النصب، و«الجمل»: بوزن الحبل، ومعناها: القلس الغيظ؛ لأنه حبال جمعت وجعلت جملة واحدة.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: إنّ الله أحسن تشبيهاً من أن يشبه بالجمل، يعني: أن الحبل مناسب للخيط الذي يسلك في سم الإبرة والبعير لا يناسبه، إلا أن قراءة العامّة أوقع؛ لأن سم الإبرة مثل في ضيق المسلك، يقال: أضيق من خرت الإبرة، وقالوا للدليل الماهر: خرّيت، للاهتداء به في المضايق المشبهة بأخرات الإبر، و«الجمل»: مثل في عظم الجرم، قال: [من البسيط]

. . . . . جِسْمُ الْجِمَالِ وَأَحْلاَمُ الْعَصَافِيرِ[1]

إن الرجال ليسوا يجزر تراد منهم الأجسام، فقيل: لا يدخلون الجنة، حتى يكون ما لا يكون أبداً من ولوج هذا الحيوان الذي لا يلج إلا في باب واسع، في ثقب الإبرة.

وعن ابن مسعود أنه سئل عن الجمل؟ فقال: زوج الناقة؛ استجهالاً للسائل، وإشارة إلى أن طلب معنى آخر تكلف.

وقرىء: ﴿فِي سَمِّ﴾: بالحركات الثلاث، وقرأ عبد الله: «في سم المخيط»، والخياط والمخيط كالحزام والمحزم: ما يخاط به وهو الإبرة، ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: ومثل ذلك الجزاء

---

(١) حار بن عمرو ألا أحلام تزجركم ... عنا وأنتم من الجوف الجماخير
لا بأس بالقوم من طول ومن عظم ... جسم الجمال وأحلام العصافير
كأنهم قصب جوف أسافله ... مثقب نفخت فيه الأعاصير

لحسان. و«حار» مرخم حارث، مبنى على الضم؛ لأنه منادى حذف قبله ياء النداء. و«الأحلام» جمع حلم بالضم: العقول. و«الجوف» بالضم: جمع أجوف، أي واسع الجوف. و«الجماخير» جمع جمخور؛ أي عظيم الجسم. يقول: كيف لا يكون لكم أحلام وأنتم عظام الأجرام، ثم بين ذلك بقوله: لا بأس ولا ضرر يعتري هؤلاء من جهة الطول والغلظ، يعني: لا نقص بهم من ذلك. وفيه تهكم بهم. أو لا يستنكفون من ذلك فهم أحقاء به، أو لا بأس يعتريك بسبب القوم من أجل طولهم وغلظهم فأجسامهم كأجسام الجمال، وعقولهم كعقول العصافير إن كان لها عقول، يعني أنه لا عقل لهم. ويروى «جسم البغال» وشبههم في فراغ أجوافهم من العقل والشجاعة بالقصب: إذا انشقت أجواف أسافله فأعاليه أكثر. وشبه منافذ حواسهم بثقوبه الخالية عن الحس. و«الأعاصير» جمع إعصار، وهي ريح تهب مستديرة ذاهبة نحو السماء. واستعار النفخ لإدخالها الهواء فيه بقوة كالنفخ. وفي القافية الإقواء، لاختلاف حركة الروي بالكسر والضم.
ينظر: الكتاب (٢/ ٧٤)، الخزانة (٤/ ٧٢)، الدر المصون (٣/ ٢٦٩).

الفظيع، ﴿نَجْزِي ٱلْمُجْرِمِينَ﴾: ليؤذن أن الإجرام هو السبب الموصل إلى العقاب، وأن كلّ من أجرم عوقب، وقد كرره فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لأن كلّ مجرم ظالم لنفسه، ﴿مِهَادٌ﴾: فراش، ﴿غَوَاشٍ﴾: أغطية.

وقرىء: «غواش». بالرفع/ ١٢٣٩أ؛ كقوله تعالى: ﴿وله الجوار المنشآت﴾ [الرحمن: ٢٤] في قراءة عبد الله.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾: جملة معترضة بين المبتدأ والخبر؛ للترغيب في اكتساب ما لا يكتنه وصف الواصف من النعيم الخالد مع التعظيم بما هو في الوسع، وهو الإمكان الواسع غير الضيق من الإيمان، والعمل الصالح، وقرأ الأعمش: «لا تكلف نفس».

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا ۖ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾

من كان في قلبه غل على أخيه في الدنيا، نزع منه، فسلمت قلوبهم، وطهرت، ولم يكن بينهم إلا التواد والتعاطف، وعن عليّ ـ رضي الله عنه ـ: إني لأرجو أن أكون أنا، وعثمان، وطلحة، والزبير، منهم (٦٠٠)، ﴿هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ أي: وفقنا لموجب هذا الفوز العظيم، وهو الإيمان، والعمل الصالح، ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ﴾: اللام: لتوكيد النفي[1]،

---

٦٠٠ ـ أخرجه الطبري (٥/ ٤٩٣) رقم (١٤٦٦٨)، وأخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٥٤٤) رقم (٣٧٨٢١) من طريق ربعي بن حراش عن علي.
وأخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ٨٤) من طريق جعفر بن محمد عن أبيه عن علي به.
قال الحافظ: أخرجه ابن سعد من رواية جعفر بن محمد عن أبيه. والطبري من رواية معمر عن قتادة عن علي وكلاهما منقطع. وفي ابن أبي شيبة من رواية ربعي عن علي. وهو متصل. انتهى.

---

(١) قال محمود: اللام لتوكيد النفي يعنون وما كان يستقيم... إلخ» قال أحمد: وهذه تكفح وجوه القدرية بالرد، فإنها شاهدة شهادة تامة مؤكدة باللام على أن المهتدي من خلق الله له الهدى، وأن غير ذلك محال أن يكون، فلا يهتدي إلا من هدى الله، ولو لم يهده لم يهتد، وأما القدرية فيزعمون أن كل مهتد خلق لنفسه الهدى، فهو إذاً مهتد وإن لم يهده الله، إذ هدى الله للعبد خلق الهدى له ـ وفي زعمهم أن الله تعالى لم يخلق لأحد من المهتدين الهدى، ولا يتوقف ذلك على =

ويعنون: وما كان يستقيم أن نكون مهتدين، لولا هداية الله وتوفيقه، وفي مصاحف أهل الشام: «ما كنا لنهتدي» بغير واو، على أنها جملة موضحة للأولى، ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾: فكان لنا لطفاً وتنبيهاً على الاهتداء، فاهتدينا، يقولون ذلك سروراً، واغتباطاً بما نالوا، وتلذذاً بالتكلم به لا تقرباً وتعبداً؛ كما نرى من رزق خيراً في الدنيا، يتكلم بنحو ذلك، ولا يتمالك ألاَّ يقوله للفرح، لا للقربة، ﴿أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ﴾: أن مخففة من الثقيلة، تقديره: ونودوا بأنه تلكم الجنة، ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾: والضمير ضمير الشأن، والحديث أو تكون بمعنى أي؛ لأنّ المناداة من القول، كأنه قيل: وقيل لهم: «أي تلكم الجنة أورثتموها»[1] ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: بسبب أعمالكم لا بالتفضل، كما تقول المبطلة[2].

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

= خلقه ـ تعالى الله عما يقولون ـ ولما فطن الزمخشري لذلك، جرى على عادته في تحريف الهدى من الله تعالى إلى اللطف الذي بسببه يخلق العبد الاهتداء لنفسه، فأنصف من نفسك واعرض قول القائل: المهتدي من اهتدى بنفسه من غير أن يهديه الله ـ أي يخلق له الهدى، على قوله تعالى حكاية عن قول الموحدين في دار الحق ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ وانظر تباين هذين القولين، أعني قول المعتزلي في الدنيا، وقول الموحد في الآخرة في مقعد صدق. واختر لنفسك أي الفريقين تقتدي به، وما أراك ـ والخطاب لكل عاقل تعدل بهذا القول المحكي عن أولياء الله في دار السلام منوهاً به في الكتاب العزيز، قول قدري ضال تذبذب مع هواه وتعصبه في دار الغرور والزوال، نسأل الله حسن المآب والمآل.

(١) عاد كلامه. قال: «وقوله تعالى ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ المراد بسبب أعمالكم، لا بالتفضل كما تقول المبطلة» قال أحمد: يعني بالمبطلة قوماً سمعوا قوله عليه الصلاة والسلام «لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله ولكن بفضل الله وبرحمته. قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة» فقالوا صدق رسول الله ﷺ، وهؤلاء هم أهل السنة. قيل لهم: فما معنى قوله تعالى ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾؟ قالوا: الله تفضل بأن جعل الجنة جزاء العمل، فضلاً منه ورحمة، لا أن ذلك مستحق عليه وواجب للعباد وجوب الديون التي لا اختيار في أدائها، جمعا بين الدليلين على وجه يطابق دليل العقل، الدال على أن الله تعالى يستحيل أن يجب عليه شيء، فانظر أيها المنصف، هل تجد في هذا الكلام من الباطل ما يوجب أن يلقب أصحابه بالمبطلة؟ وحاكم نفسك إليها، ثم إذا وضح أنهم برآء في هذا البر، فاعرضه على قوم زعموا أنهم يستحقون على الله تعالى حقا بأعمالهم التي لا ينتفع بوجودها ولا يتضرر بتركها ـ تعالى وتقدس عن ذلك ـ ويطلقون القول بلسان الجراءة أن الجنة ونعيمها أقطاعهم بحق مستحق على الله تعالى لا تفضل له عليهم فيه. بل هو بمثابة دين تقاضاه بعض الناس من مديانه. وانظر أي الفريقين المذكورين أحق بلقب المبطلة، والسلام.

(٢) قوله: «كما تقول المبطلة» يريد أهل السنة القائلين: دخولها بالفضل، واقتسامها بالأعمال، كما في الحديث.

«أن» في ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا﴾: يحتمل أن تكون مخففة من الثقيلة، وأن تكون مفسرة كالتي سبقت آنفاً، وكذلك: ﴿أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، وإنما قالوا لهم ذلك، اغتباطاً بحالهم، وشماتة بأصحاب النار، وزيادة في غمهم؛ لتكون حكايته لطفاً لمن سمعها؛ وكذلك قول المؤذن بينهم: لعنة الله على الظالمين، وهو ملك يأمره الله فينادي بينهم نداء يسمع أهل الجنة، وأهل النار.

وقرىء: «أَنَّ لعنة الله»، بالتشديد، والنصب.

وقرأ الأعمش: «إن لعنة الله»، بكسر «إن» على إرادة القول، أو على إجراء «أذّن» مجرى «قال».

فإن قلت: هلا قيل: «ما وعدكم ربكم»، كما قيل: «ما وعدنا[1] ربنا؟».

قلت: حذف ذلك تخفيفاً لدلالة وعدنا عليه، ولقائل أن يقول: أطلق ليتناول كل ما وعد الله من البعث، والحساب، والثواب، والعقاب، وسائر أحوال القيامة؛ لأنهم كانوا مكذبين بذلك أجمع، ولأن الموعود كله مما ساءهم، وما نعيم أهل الجنة إلا عذاب لهم؛ فأطلق لذلك[2].

---

(١) عاد كلامه: قال: فإن قلت هلا قيل ما وعدكم ربكم كما قيل ما وعدنا... إلخ» قال أحمد: ولقائل أن يقول: ولو ذكر المفعول حسب ذكره في الأول فقيل: فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا، لكان الفصل مطلقاً أيضاً باعتبار الموعود به، لأنه لم يذكر، فكان يتناول كل موجود من البعث والحساب والعقاب، الذي هو أنواع من جملتها التحسر على نعيم أهل الجنة، فليس ذلك خاصا بحذف المفعول الواقع على الموعودين، فالوجه أن حذفه إيجاز وتخفيف واستغناء عنه بالأول. والله أعلم.

(٢) قال السمين الحلبي: قُلْتُ: قوله: «ولقائل.... إلى آخره» هذا الجواب لا يطابق سؤاله؛ لأن المدعي حذف المفعول الأول، وهو ضمير المخاطبين، والجواب وقع بالمفعول الثاني الذي هو: الحساب والعقاب وسائر الأحوال، فهذا إنما يناسب لو سئل عن حذف المفعول الثاني، لا المفعول الأول. و «نَعَمْ» حرف جواب كَأَجَلْ وإي وَجَيْرَ وبَلَى. ونقيضتها «لا». و «نَعَمْ» تكون لتصديق الإخبار، أو إعلام استخبار، أو وعد طالب. وقد يجاب بها النفي المقرون باستفهام، وهو قليل جدا، كقوله [من الوافر]:

أَلَيْسَ اللَّيْلُ يَجْمَعُ أُمَّ عَمْرٍو ... وإيَّانَا، فَذَاكَ بِنَا تَدَانِي؟
نَعَمْ، وَتَرَى الهِلاَلَ كَمَا أَرَاهُ ... وَيَعْلُوهَا النَّهَارُ كَمَا عَلاَنِي

فأجاب قوله: «أَلَيْسَ» بـ«نَعَمْ»، وكان من حقه أن يقول: «بَلَى»، ولذلك يُرْوَى عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ لو قالوا: نَعَمْ لكفروا وفيه بحث يأتي إنْ شاءَ اللَّهُ تعالى قريباً. وتكسر عينها، وبها قرأ الكسائي والأعمش ويحيى بن وثاب، وهي لغة كنانة، وطعن أبو حاتم عليها، وقال: «ليس الكسر بمعروف». واحتج الكسائي لقراءته بما يُحْكَى عن عمر بن الخطاب أنه سأل قوماً، فقالوا: نَعَمْ، بالفتح، فقال: «أمّا النَّعَم فالإبل، فقولوا: نَعِم». أي بالكسر. قال أبو عُبَيْد: «ولم نَرَ العَرَبَ يعرفون ما رووه عن عمر، ونراه مولداً». قُلْتُ: هذا طعن في المتواتر، فلا =

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾؛ يعني: بين الجنة والنار، أو بين الفريقين، وهو السور المذكور في قوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾ [الحديد: ١٣]. ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ﴾: وعلى أعراف الحجاب، وهو السور المضروب بين الجنة والنار، وهي أعاليه، جمع عرف استعير من عرف الفرس وعرف الديك، ﴿رِجَالٌ﴾: من المسلمين من آخرهم دخولاً في الجنة؛ لقصور/ ٢٣٩ب أعمالهم، كأنهم المرجون لأمر الله، يحبسون بين الجنة والنار إلى أن يأذن الله لهم في دخول الجنة، ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّۢا﴾: من زمر السعداء والأشقياء، ﴿بِسِيمَىٰهُمْ﴾: بعلامتهم التي أعلمهم الله ـ تعالى ـ بها، يلهمهم الله ذلك، أو تعرّفهم الملائكة.

﴿۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۖ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾

إذا نظروا إلى أصحاب الجنة نادوهم بالتسليم عليهم، ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾: ورأوا ما هم فيه من العذاب، استعاذوا بالله، وفزعوا إلى رحمته ألاّ يجعلهم معهم، ونادوا رجالاً من رءوس الكفرة يقولون لهم: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾: إشارة لهم إلى أهل الجنة، الذين كان الرؤساء يستهينون بهم، ويحتقرونهم؛ لفقرهم، وقلة حظوظهم من الدنيا، وكانوا يقسمون أن الله لا يدخلهم الجنة، ﴿ٱدْخُلُوا۟

= يقبل. وتبدل عينها حاء، وهي لغة فاشية، كما تُبْدَلُ حاءُ «حَتَّى» عيناً. وقوله: «بَيْنَهُمْ» يجوز أن يكون منصوباً بـ «أَذَنٌ»، أو بـ «مُؤَذِّنٌ»، وأن يكون متعلقاً بمحذوف، على أنه صفة لـ «مُؤَذِّنٌ». قال مكي ـ عند إجازته هذا الوجه ـ: «ولكن لا يعمل «أَنْ» في «مُؤَذِّنٌ»، إذ قد نعته؛ يعني أن قوله: «أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ» لا يجوز أن تكون معمولة لـ «مُؤَذِّنٌ»، لأنه موصوف، واسم الفاعل متى وصف لم يعمل. قُلْتُ: هذا يوهم أنا إذا لم نجعل «بَيْنَهُم» نعتاً لـ «مُؤَذِّنٌ» جاز أن يعمل في «أَنْ»، وليس الأمر كذلك، لأنك لو قلت: «ضرب ضَارِبٌ زَيْداً»، فإنك تنصب «زيداً» بـ «ضَرَبَ»، لا بـ «ضَارِب»، لكني قد رأيت الواحدي أجاز ما أجاز مكي من كون «مُؤَذِّنٌ» عاملاً في «أَنْ»، وإذا وصفته امتنع ذلك، وفيه ما تقدم، وهو حسن. و «أن» يجوز أن تكون المُفَسِّرة، وأن تكون المخففة، والجملة الاسمية بعدها الخبر، فلا حاجة هنا لفاصل. وقرأ الأخوان وابن عامر والبزي: «أَنَّ» بفتح الهمزة وتشديد النون، ونصب «اللعنة» على أنها اسمها، و«عَلَى الظَّالِمِينَ» خبرها، وكذلك في النور ﴿أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ خَفَّفَ «أَنَّ» ورفع «اللعنة» نافعٌ وحده والباقون بالتشديد والنصب. وقرأ عصمة عن الأعمش «إنَّ» بالكسر والتشديد، وذلك إمّا على إضمار القول عند البصريين، وإمّا على إجراء النداء مُجْرَى القول عند الكوفيين. انتهى. الدر المصون.

﴿ٱلْجَنَّةَ﴾: يقال لأصحاب الأعراف: «ادخلوا الجنة»، وذلك بعد أن يحبسوا على الأعراف، وينظروا إلى الفريقين، ويعرفوهم بسيماهم، ويقولوا ما يقولون؛ وفائدة ذلك بيان أن الجزاء على قدر الأعمال، وأن التقدّم والتأخر على حسنها، وأن أحداً لا يسبق عند الله إلا بسبقه في العمل، ولا يتخلف عنده إلا بتخلفه فيه، وليرغب السامعون في حال السابقين، ويحرصوا على إحراز قصبتهم، وليتصوروا أن كل أحد يعرف ذلك اليوم بسيماه التي استوجب أن يوسم بها من أهل الخير والشر، فيرتدع المسيء عن إساءته، ويزيد المحسن في إحسانه، وليعلم أنّ العصاة يوبخهم كل أحد حتى أقصر الناس عملاً، وقوله: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ﴾: فيه أن صارفاً يصرف أبصارهم؛ لينظروا، فيستعيذوا، ويوبخوا.

وقرأ الأعمش: و«إذا قلبت أبصارهم».

وقرىء: «أدخلوا الجنة»، على البناء للمفعول.

وقرأ عكرمة: دخلوا الجنة.

فإن قلت: كيف لاءم هاتين القراءتين قوله: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾؟

قلت: تأويله: «أدخلوا»، أو دخلوا الجنة مقولاً لهم: «لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون».

فإن قلت: ما محل قوله: لم يدخلوها وهم يطمعون؟

قلت: لا محل له؛ لأنه استئناف، كأن سائلاً سأل عن حال أصحاب الأعراف، فقيل: لم يدخلوها وهم يطمعون، يعني: حالهم أنّ دخولهم الجنة استأخر عن دخول أهل الجنة، فلم يدخلوها؛ لكونهم محبوسين وهم يطمعون لم ييأسوا، ويجوز أن يكون له محل، بأن يقع صفة لرجال، ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾: المال، أو كثرتكم، واجتماعكم، ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾: واستكباركم عن الحق وعلى الناس.

وقرىء: تستكثرون، من الكثرة.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾

﴿أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا﴾: فيه دليل على أن الجنة فوق النار، ﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾: من غيره

من الأشربة؛ لدخوله في حكم الإفاضة، ويجوز أن يراد/ ٢٤٠أ: أو ألقوا علينا مما رزقكم الله، من الطعام، والفاكهة؛ كقوله: [من الرجز]

عَلَفْتُهَا تِبْناً وَمَاءً بَارِداً[1] . . . . . .

وإنما يطلبون ذلك مع يأسهم من الإجابة إليه حيرة في أمرهم، كما يفعل المضطر الممتحن، ﴿حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: منعهم شراب الجنة، وطعامها، كما يمنع المكلف ما يحرّم عليه ويحظر؛ كقوله: [من الطويل]

حَرَامٌ عَلَىٰ عَيْنَيَّ أَنْ تَطْعَمَ الْكَرَىٰ[2] . . . . . .

﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ﴾: نفعل بهم فعل الناسين الذين ينسون عبيدهم من الخير، لا يذكرونهم به، ﴿كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾: كما فعلوا بلقائه فعل الناسين، فلم يخطروه ببالهم ولم يهتموا به.

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

---

(١) لما حططت الرحل عنها وارداً علفتها تبناً وماء بارداً

يقول: لما حططت الرحل عن الناقة حال كوني وارداً للماء، علفتها تبناً وسقيتها ماء بارداً، على حذف العامل في ماء. ويحتمل أن المعنى: ناولتها تبناً وماء على التجوز في العلف، وذلك لأن الماء لا يكون معلوفاً لها. ويجوز أن يكون مفعولاً معه، أي: علفتها تبناً مصاحباً للماء، فلا يلزم أن يكون الماء معلوفاً، ومنعه لأن الماء لا يصاحب التبن في العلف، فيه نظر؛ لجواز أنه وضع لها التبن ووضع لها ماء معه، لتتناول ما شاءت. ورواية الفراء هكذا:

علفتها تبناً وماء بارداً حتى شتت همالة عيناها

وشتوت بموضع كذا: أقمت به زمن الشتاء، أي حتى كانت زمن الشتاء همالة: أي كثيرة الدموع عيناها؛ فهمالة: نصب على الحال، وعيناها: فاعل به. ويروى: حتى غدت، وحتى بدت.
البيت ينظر: مشاهد الإنصاف ٢/ ٨٥، حاشية الشهاب ٤/ ١٧٢، الدر المصون ٣/ ٢٧٨.

(٢) حرام على عيني أن تطعم الكرى وأن ترقآ حتى ألاقيك يا هند

«الكرى» النعاس، وهو أول النوم. يقال: كرى يكرى كرى، من باب تعب إذا نعس. وشبه بالمطعوم على طريق المكنية. و«أن تطعما» أي تذوقا تخييل. ورقأ الدمع والدم ـ بالهمز ـ: سكن. وإسناده للعين مجاز عقلي، لأنه للدمع. ويحتمل أنه استعار ترقآ لتغمضا، لأن فيه سكون الجفون. يقول: ممتنع على المكلف، ففيه استعارة تصريحية حتى ألاقيك يا هند، وأنال من نوالك. وفي النداء معنى التفجع.

﴿فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾: عالمين كيف نفصل أحكامه، ومواعظه، وقصصه، وسائر معانيه، حتى جاء حكيماً قيمًا غير ذي عوج.

وقرأ ابن محيصن: «فضلناه»، بالضاد المعجمة، بمعنى: فضلناه على جميع الكتب، عالمين أنه أهل للتفضيل عليها، و﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾: حال من منصوب «فصلناه»، كما أن على علم حال من مرفوعه، ﴿إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾: إلا عاقبة أمره، وما يؤول إليه من تبين صدقه، وظهور صحة ما نطق به من الوعد والوعيد، ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: تبين وصح أنهم جاؤا بالحق، ﴿نُرَدُّ﴾: جملة معطوفة على الجملة التي قبلها، داخلة معها في حكم الاستفهام؛ كأنه قيل: هل لنا من شفعاء، أو هل نردّ، ورافعه وقوعه موقعاً يصلح للإسم، كما تقول ابتداء: هل يضرب زيد؟ ولا يطلب له فعل آخر يعطف عليه، فلا يقدّر: هل يشفع لنا شافع أو نردّ.

وقرأ ابن أبي إسحاق: «أو نردّ»، بالنصب عطفاً على «فيشفعوا لنا»، أو تكون «أو» بمعنى «حتى أنّ» أي: يشفعوا لنا حتى نردّ فنعمل، وقرأ الحسن بنصب: «نردّ»، ورفع «فنعملُ» بمعنى: فنحن نعمل.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾، وقرىء «يغشّي» بالتشديد، أي: يلحق الليل النهار، والنهار بالليل يحتملهما جميعاً؛ والدليل على الثاني قراءة حميد بن قيس: «يغشى الليلَ النهارُ»، بفتح الياء، «ونصب الليل»، «ورفع النهار»[1]، أي: يدرك النهار الليل، ويطلبه حثيثاً، حسن الملاءمة لقراءة حميد، ﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾: بمشيئته، وتصريفه، وهو متعلق بمسخرات، أي: خلقهن جاريات بمقتضى حكمته، وتدبيره، وكما يريد أن يصرفها سمي ذلك أمراً على التشبيه، كأنهنّ مأمورات بذلك.

وقرىء: «والشمس والقمر والنجوم مسخرات»، بالرفع، ولما ذكر أنه خلقهنّ

---

(١) قال السمين الحلبي: وقد روى الزمخشري قراءة حُمَيْد، كما رواها أبو الفتح، فإنه قال: «يُغَشّي» بالتشديد، أي: يَلحِقَ اللّيْلَ بالنهار، أو النَّهارَ باللّيْل، يحتملهما جميعاً، والدليل على الثاني قراءة حُمَيْد بن قيس «يَغْشَى» بفتح الياء، ونصب «الليل»، ورفع «النهار» انتهى. وفيما قاله أبو القاسم نظر، لما ذكرت لك من أن الآية الكريمة مما يجب فيها تقديم الفاعل المعنوي، وكأن أبا القاسم تبع أبا الفتح في ذلك، فلم يلتفت إلى هذه القاعدة المذكورة سهواً. انتهى. الدر المصون.

مسخرات بأمره قال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ أي: هو الذي خلق الأشياء كلها، وهو الذي صرفها على حسب إرادته.

﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾: نصب على الحال، أي: ذوي تضرع وخفية، وكذلك خوفاً، وطمعاً، والتضرع تفعل من الضراعة[1]، وهو الذل، أي تذللاً وتملقاً.

وقرىء: «وخفية»[2] وعن الحسن ـ رضي الله عنه ـ: إنّ الله يعلم القلب التقي، والدعاء الخفي، إن كان/ ٢٤٠ب الرجل لقد جمع القرآن، وما يشعر به جاره، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير، ولا يشعر الناس به، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة، وعنده الزور، وما يشعرون به، ولقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدرون على أن يعملوه في السر فيكون علانية أبداً، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم؛ وذلك أنّ الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ وقد أثنى على زكريا، فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾﴾ [مريم: ٣]، وبين دعوة السر، ودعوة العلانية سبعون ضعفاً، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أي:

---

(١) قال محمود: «التضرع تفعل من الضراعة وهي الذل... إلخ» قال أحمد: وحسبك في تعين الأسرار في الدعاء اقترانه بالتضرع في الآية. فالإخلال به كالإخلال بالضراعة إلى الله في الدعاء وإن دعاء لا تضرع فيه ولا خشوع لقليل الجدوى «فكذلك دعاء لا خفية ولا وقار يصحبه وترى كثيراً من أهل زمانك يعتمدون الصراخ والصياح في الدعاء، خصوصاً في الجوامع حتى يعظم اللغط ويشتد، وتستد المسامع وتستد، ويهتز الداعي بالناس، ولا يعلم أنه جمع بين بدعتين: رفع الصوت في الدعاء، وفي المسجد. وربما حصلت للعوام حينئذ رقة، لا تحصل مع خفض الصوت ورعاية سمت الوقار وسلوك السنة الثابتة بالآثار، وما هي إلا رقة شبيهة بالرقة العارضة للنساء والأطفال، ليست خارجة عن صميم الفؤاد، لأنها لو كانت من أصل لكانت عند اتباع السنة في الدعاء وفي خفض الصوت به أوفر وأوفى وأزكى، فما أكثر التباس الباطل بالحق على عقول كثير من الخلق، اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه.

(٢) قوله: «وقرئ: وخفية» لعل هذه بالكسر.

المجاوزين ما أمروا به في كل شيء من الدعاء وغيره، وعن ابن جريج: هو رفع الصوت بالدعاء، وعنه: الصياح في الدعاء مكروه وبدعة، وقيل: هو الإسهاب في الدعاء، وعن النبي ـ ﷺ ـ: «سَيَكُونُ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ، وَحَسْبُ الْمَرْءِ أَنْ يَقُولَ: اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ الجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ» (٦٠١) ثم قرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ كقوله: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [طه: ٨٢]. وإنما ذكر: (قريب) على تأويل الرحمة بالرحم أو الترحم، أو لأنه صفة موصوف محذوف، أي: شيء قريب، أو على تشبيهه بفعيل الذي هو بمعنى: «مفعول» كما شبه ذاك به، فقيل: قتلاء وأسراء، أو على أنه بزنة المصدر، الذي هو النقيض والضغيب[1]، أو لأنّ تأنيث الرحمة غير حقيقي.

قرىء: «نشراً» وهو مصدر نشر، وانتصابه: إمّا لأن أرسل ونشر متقاربان، فكأنه قيل: نشرها نشراً، وإمّا على الحال بمعنى منتشرات، و«نشراً» جمع نشور، و«نشراً» تخفيف نشر، كرسل ورسل.

وقرأ مسروق: «نشراً»، بمعنى: منشورات، فعل بمعنى مفعول، كنقض وحسب، ومنه قولهم: «ضم نشره»، وبشراً جمع بشير، وبشراً بتخفيفه، وبشراً ـ بفتح الباء ـ مصدر من بشره بمعنى بشره، أي: باشرات، وبشرى، ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾: أمام رحمته، وهي

---

٦٠١ ـ أخرجه أبو داود (٢/ ٧٧) كتاب الصلاة: باب الدعاء حديث (١٤٨٠)، وأحمد (١/ ١٧٢، ١٨٣)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٢٨٨)، والطبراني في «الدعاء» (٥٥، ٥٦) من حديث سعد بن أبي وقاص به.
قال الحافظ:
أخرجه أبو يعلى من رواية شعبة عن زياد بن مهران عن قيس بن عنان عن مولى لسعد بن سعد سمع ابناً له يقول: «اللهم إني أسألك الجنة وغرفها وكذا وكذا. وأعوذ بك من النار وأغلالها وكذا وكذا. فقال: لقد سألت الله خيراً وتعوذت به من شر كثير. وإني سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يقول: سيكون قوم يعتدون في الدعاء وبحسبك أن تقول: اللهم إني أسألك الجنة ـ الخبر ـ وقال في آخره: لا أدري قوله: وبحسبك إلى آخره من قول سعد أو من قول النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم.
ورواه أبو داود الطيالسي والبيهقي في الدعوات من طريقه. عن سعد بسنده، إلا أنه قال: «وبحسبك أن تقول: اللهم إني أسألك من الخير كله ما علمت منه وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشر كله ما علمت منه وما لم أعلم، وفي الباب عن عبد الله بن معقل أخرجه أبو داود وابن ماجه وابن حِبان والحاكم. انتهى.

---

(١) قوله: «هو النقيض والضغيب» النقيض: هو صوت العقاب وصوت المحمل، والضغيب: صوت الأرنب.

الغيث الذي هو من أتمّ النعم، وأجلها، وأحسنها أثراً، ﴿أَقَلَّتْ﴾: حملت ورفعت، واشتقاق الإقلال من القلة؛ لأنّ الرافع المطيق يرى الذي يرفعه قليلاً، ﴿سَحَابًا ثِقَالًا﴾: سحائب ثقالاً بالماء، جمع سحابة، ﴿سُقْنَٰهُ﴾: الضمير للسحاب على اللفظ، ولو حمل على المعنى كالثقال لأنث، كما لو حمل الوصف على اللفظ لقيل: ثقيلاً، ﴿لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾: لأجل بلد ليس فيه حيًا ولسقيه.

وقرىء: «ميت»، ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ﴾: بالبلد، أو بالسحاب، أو بالسوق، وكذلك: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ ... كَذَٰلِكَ﴾: مثل/ ٢٤١أ ذلك الإخراج، وهو إخراج الثمرات، ﴿نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فيؤديكم التذكر إلى أنه لا فرق بين الإخراجين، إذ كل واحد منهما إعادة للشيء بعد إنشائه، ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾: الأرض العذاة الكريمة التربة، ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾: الأرض السبخة التي لا تنبت ما ينتفع به، ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾: بتيسيره، وهو في موضع الحال، كأنه قيل: يخرج نباته حسناً وافياً؛ لأنه واقع في مقابلة ﴿نَكِدًا﴾، والنكد الذي لا خير فيه. وقرىء: يخرج نباته، أي: يخرجه البلد وينبته. وقوله: «والذي خبث»: صفة لـ «البلد»، ومعناه: والبلد الخبيث لا يخرج نباته إلا نكداً، فحذف المضاف الذي هو النبات، وأقيم المضاف إليه الذي هو الراجع إلى البلد مقامه، إلا أنه كان مجروراً بارزاً، فانقلب مرفوعاً مستكناً؛ لوقوعه موقع الفاعل، أو يقدّر: و«نبات الذي خبث».

وقرىء: «نكداً»، بفتح الكاف على المصدر، أي: ذا نكد، ونكداً، بإسكانها للتخفيف؛ كقوله: نزه عن الريب، بمعنى: نزه، وهذا مثل لمن ينجع فيه الوعظ، والتنبيه من المكلفين، ولمن لا يؤثر فيه شيء من ذلك، وعن مجاهد: آدم وذرّيته منهم خبيث وطيب.

وعن قتادة: المؤمن سمع كتاب الله، فوعاه بعقله، وانتفع به، كالأرض الطيبة أصابها الغيث فأنبتت، والكافر بخلاف ذلك، وهذا التمثيل واقع على أثر ذكر المطر، وإنزاله بالبلد الميت، وإخراج الثمرات به على طريق الاستطراد، ﴿كَذَٰلِكَ﴾: مثل ذكر التصريف، ﴿نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾: نردّدها ونكرّرها، ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾: نعمة الله وهم المؤمنون، ليفكروا فيها ويعتبروا بها.

وقرىء: «يصرف»، بالياء، أي: يصرفها الله.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾: جواب قسم محذوف.

فإن قُلتَ: ما لهم لا يكادون ينطقون بهذه اللام، إلا مع «قد»، وقلّ عنهم؛ نحو قوله: [من الطويل]

حَلَفْتُ لَهَا بِاللهِ حِلْفَةَ فَاجِرٍ   لَنَامُوا............[1]

قلت: إنما كان ذلك؛ لأن الجملة القسمية لا تساق إلا تأكيداً للجملة المقسم عليها، التي هي جوابها، فكانت مظنة لمعنى التوقع الذي هو معنى «قد» عند استماع المخاطب كلمة القسم.

قيل: أرسل نوح ـ عليه السلام ـ وهو ابن خمسين سنة، وكان نجاراً، وهو نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ، وأخنوخ اسم إدريس النبي عليه السلام.

---

(١) فقالت سباك الله إنك فاضحي   ألست ترى السمار والنار أحوالي
حلفت لها بالله حلفة فاجر   لناموا فما إن من حديث ولا صالِ
فأصبحت معشوقاً وأصبح بعلها   عليه قتام كاسف الظن والبال
يغط غطيط البكر شد خناقه   ليقتلني والمرء ليس بقتال
أيقتلني والمشرفي مضاجعي   ومسنونة زرق كأنياب أغوال

لامرئ القيس. يقول: ضجرت محبوبتي سلمى حين ترقبتها ليلاً مع أن الرقباء حولها. والسمار: جمع سامر، بمعنى المتحدث ليلاً. وأحوال: جمع حول، بمعنى جانب، فيفيد كثرة الناس وانتشارهم في جوانبها. والمنقول أنه على صورة الجمع وليس جمعاً، وكذا تثنيته، لأنه حول الشيء وحوليه وأحواله وأحواليه وحواله وحواليه، كلها بمعنى جانبه المحيط به، ويمكن أن يراد بالمفرد: مطلق الجانب مجازاً، فيثنى ويجمع حقيقة، والكثير في الماضي المجاب به القسم قرنه بقد، بل قيل: إن لم توجد فيه قدرت قيل، لأن الجواب مظنة للتوقع الذي هو معنى «قد» لسماع القسم أولاً. و«إن» و«من» زائدتان للتوكيد، والحديث: بمعنى المتحدث ليطابق ما بعده. والصالي: المصطلي بالنار. وهاهنا حذف دل عليه المقام. أي فسمحت فنلت منها مرادي، فأعجبتها فأصبحت معشوقاً وقد كنت عاشقاً، وأصبح زوجها عليه قتام: وهو الغبار وسواد الوجه، كاسف الظن: منعكسه، فهو مجاز. وكاسف البال: حزين القلب، أو سيء الحال. والغطيط: ارتفاع صوت النفس عند الخنق والنعاس ونحو ذلك. والبكر: الفتى من الإبل. والخناق: حبل يخنق به كالحزام لما يتحزم به، والإسار لما يربط به الأسير. وقوله: ليس بقتال، أي كما يزعم أنه شجاع. والمشرفي: السيف، نسبة إلى مشارف جمع مشرف كجعفر، وهي قرى من أرض العرب تدنو من الريف وشبهه بالمضاجع لامتداده بجانبه وملازمته له، والمسنونة النبال: المحددة الأطراف. والزرق: جمع زرقاء، الصافيات اللون. وشبهها بأنياب الأغوال في حدة الأطراف، واستبشاع كل عند النفوس. وهذا لا يستلزم وجود الغول ورؤية نابها، وإن زعمته العرب.

ينظر ديوانه ص ٣٢، والأزهية ص ٥٢، والجنى الداني ص ١٣٥، وخزانة الأدب ١٠/ ٧١، ٧٣، ٧٤، ٧٧، ٧٩، والدرر ٢/ ١٠٦، ٤/ ٢٣١، وسرّ صناعة الإعراب ١/ ٣٧٤، ٣٩٣، ٤٠٢، وشرح شواهد المغني ١/ ٣٤١، ٤٩٤، وشرح المفصّل لابن يعيش ٩/ ٢٠، ٩٧، ولسان العرب (حلف)، وبلا نسبة في جواهر الأدب ص ٧٧، ورصف المباني ص ١١٠، ومغني اللبيب ١/ ١٧٣، وهمع الهوامع ١/ ١٢٤، ٢/ ٤٢.

وقرىء: «غيره»، بالحركات الثلاث، فالرفع على المحل؛ كأنه قيل: ما لكم إله غيره، والجر على اللفظ، والنصب على الاستثناء، بمعنى: ما لكم من إله إلا إياه؛ كقولك: ما في الدار من أحد إلا زيد أو غير زيد.

فإن قلت: فما موقع الجملتين بعد قوله: «اعبدوا الله»؟

قلت: الأولى بيان لوجه اختصاصه بالعبادة.

والثانية: بيان للداعي إلى عبادته؛ لأنه هو المحذور عقابه دون ما كانوا يعبدونه/ ٢٤١ب من دون الله، واليوم العظيم: يوم القيامة، أو يوم نزول العذاب عليهم، وهو الطوفان.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾

﴿ٱلْمَلَأُ﴾: الأشراف والسادة، وقيل: الرجال ليس معهم نساء، ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾: في ذهاب عن طريق الصواب والحق، ومعنى الرؤية: رؤية القلب.

فإن قلت: لم قال: ﴿لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾، ولم يقل: ضلال[1] كما قالوا؟

قلت: الضلالة أخصّ من الضلال، فكانت أبلغ في نفي الضلال عن نفسه؛ كأنه قال: ليس بي شيء من الضلال، كما لو قيل لك: ألك تمر، فقلت: مالي تمرة.

فإن قلت: كيف وقع قوله ﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ﴾ استدراكاً للانتفاء عن الضلالة؟

قلت: كونه رسولاً من الله، مبلغاً رسالاته، ناصحاً، في معنى كونه على الصراط المستقيم، فصحّ لذلك أن يكون استدراكاً للانتفاء عن الضلالة.

وقرىء: «أبلغكم»، بالتخفيف.

---

(١) قال محمود: «إن قلت لم قال ليس بي ضلالة ولم يقل ضلال... إلخ»؟ قال أحمد: تعليله كون نفيها أبلغ من نفي الضلال بأنها أخص منه، غير مستقيم والله أعلم، فإن نفي الأخص أعم من نفي الأعم، فلا يستلزمه ضرورة أن الأعم لا يستلزم الأخص، بخلاف العكس. ألا تراك إذا قلت: هذا ليس بإنسان، لم يستلزم ذلك أن لا يكون حيواناً. ولو قلت: هذا ليس بحيوان، لاستلزم أن لا يكون إنساناً، فنفي الأعم كما ترى أبلغ من نفي الأخص. والتحقيق في الجواب أن يقال: الضلالة أدنى من الضلال وأقل، لأنها لا تطلق إلا على الفعلة الواحدة منه. وأما الضلال فينطلق على القليل والكثير من جنسه، ونفي الأدنى أبلغ من نفي الأعلى، لا من حيث كونه أخص، وهو من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى، والله أعلم.

فإن قلت: كيف موقع قوله: «أبلغكم»[1]؟

قلت: فيه وجهان: أحدهما: أن يكون كلاماً مستأنفاً بياناً لكونه رسول رب العالمين.

والثاني: أن يكـ ـن صفة لـ «رسول».

فإن قلت: كيف جاز أن يكون صفة، والرسول لفظه لفظ الغائب؟

قلت: جاز ذلك؛ لأن الرسول وقع خبراً عن ضمير المخاطب، وكان معناه: كما قال: [من الرجز]

أنا الذي سمّتني أمي حيدرة[2]

---

(١) قال محمود: «إن قلت كيف موقع قوله (أبلغكم)؟ قلت فيه وجهان... إلخ» قال أحمد: وقد استدرك ابن جنى قول أبي الطيب:

أنـا الـذي نـظـر الأعـمـى إلـى أدبـي

عدولاً عن لفظ الغيبة لو كان إلى أدبه، وهذه الآية والرجز العلوي كفيلان بتحسين ما ارتكبه أبو الطيب.

(٢) أنـا الـذي سـمـتـنـي أمـي حـيـدره كـلـيـث غـابـات كـريـه الـمـنـظـره
أوفـيـهـم بـالـصـاع كـيـل الـسـنـدره أضـربـكـم ضـربـاً يـبـيـن الـفـقـره

للإمام علي ـ رضي الله عنه ـ حين بارز مرحبا اليهودي يوم خيبر، فقال مرحبا [من الرجز]:

قـد عـلـمـت خـيـبـر أنـي مـرحـب شـاكـي الـسـلاح بـطـل مـجـرب
إذا الـحـروب أقـبـلـت تـلـتـهـب

فأجابه علي بذلك «وكانت أمه فاطمة بنت أسد سمته كاسم أبيها، لأن «حيدرة» من أسماء الأسد، فلما حضر أبو طالب سماه عليا. وسمى الأسد «حيدرة» لشدة انحداره على من يصول عليه. والليث: اسم جامد له، واشتقوا منه، لايثه إذا عامله معاملة الليث. والغابة: بيته الذي يغيب فيه. والسندرة: اسم امرأة كانت تبيع البر وتوفي الكيل، أو مكيال كبير. وكان الظاهر أن يقول: الذي سمته أمه ليطابق الضمير مرجعه وهو الموصول في الغيبة. ولكن أتى بضمير المتكلم ذهاباً إلى المعنى. وحسنه تقدم ضمير المتكلم، أي أنا الشجاع الذي ظهرت على أمارة الشجاعة من صغري، فسمتني أمي باسم الأسد، ولا أكذبها في ظنها، وأنا كليث غابات منظرته كريهة لعبوسي في وجه عدوي، ثم قال: أو في الأعداء، أي أعطيهم عطاء وافياً. وكيل السندرة: نصب به على المفعول المطلق، أو بمقدر: أي أكيل لهم مثل كيل تلك المرأة في الوفاء، أو أعطيهم بالصاع الصغير كيل المكيال الكبير. ويروى: أوفيهم بالسيف. وهذا من باب الاستعارة التمثيلية التهكمية، شبه هيئة إيصاله الطعان إلى الأعداء بكثرة في مقابلة مكروه يفرط منهم. بهيئة إيصال البر بالكيل في مقابلة ثمنه، وإن كان البر محبوباً والطعن مكروهاً، والتفت مفسراً ذلك بقوله أضربكم ضرباً يبين، أي يفصل الفقرة: جمعها فقار، وفقرات. وهي عظام الظهر، وقد علمت خيبر، أي أهلها. وشاكي السلاح. حاده وثلمه. يجوز أنه نعت مرحب. ويجوز أنه خبر بعد خبر. وبطل مجرب: خبر بعد خبر لا غير. واستعار الالتهاب لاشتداد الحروب على طريق التصريح.

ينظر ديوانه ص ٧٧، ولسان العرب (حدر)، (سندر)، وتاج العروس (غيب)، (قسر)، وأساس =

﴿رسالات ربي﴾: ما أوحى إليّ في الأوقات المتطاولة، أو في المعاني المختلفة من الأوامر والنواهي، والمواعظ والزواجر، والبشائر والنذائر، ويجوز أن يريد رسالاته إليه وإلى الأنبياء قبله من صحف جدّه إدريس، وهي ثلاثون صحيفة، ومن صحف شيث وهي خمسون صحيفة، ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾: يقال: نصحته، ونصحت له، وفي زيادة اللام مبالغة، ودلالة على إمحاض النصيحة، وأنها وقعت خالصة للمنصوح له، مقصوداً بها جانبه لا غير. فرب نصيحة ينتفع بها الناصح، فيقصد النفعين جميعاً، ولا نصيحة أمحض من نصيحة الله ـ تعالى ـ ورسله ـ عليهم السلام ـ ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: من صفات الله وأحواله، يعني: قدرته الباهرة، وشدّة بطشه على أعدائه، وأن بأسه لا يردّ عن القوم المجرمين.

وقيل: لم يسمعوا بقوم حلّ بهم العذاب قبلهم فكانوا آمنين لا يعلمون ما علمه نوح بوحي الله إليه، أو أراد: وأعلم من جهة الله أشياء لا علم لكم بها قد أوحى إليّ بها.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ الهمزة: للإنكار، والواو: للعطف، والمعطوف عليه محذوف، كأنه قيل: أكذبتم وعجبتم، ﴿أَن جَاءَكُمْ﴾: من أن جاءكم، ﴿وَذِكْرَىٰ﴾: موعظة، ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾: على لسان رجل منكم؛ كقوله: ﴿مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤]، وذلك أنهم يتعجبون من نبوّة نوح ـ عليه السلام ـ ويقولون: ما سمعنا بهذا في آبائنا الأوّلين، يعنون إرسال البشر، ولو شاء ربنا لأنزل ملائكة/ ٢٤٢أ، ﴿لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا﴾: ليحذركم عاقبة الكفر، وليوجد منكم التقوى، وهي الخشية، بسبب الإنذار، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾: ولترحموا بالتقوى إن وجدت منكم.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ قيل: كانوا أربعين رجلاً، وأربعين امرأة.

وقيل: تسعة، بنوه: سام، وحام، ويافث، وستة ممن آمن به.

= البلاغة (قسر)، وأدب الكاتب ص ٧١، وخزانة الأدب ٦/ ٦٢، ٦٣، ٦٥، ٦٦، ٦٧، والدرر ١/ ٢٨٠، وبلا نسبة في خزانة الأدب ٢/ ٢٩٤، ٦/ ٩٠، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ١٠٧٨، وهمع الهوامع ١/ ٨٦.

فإن قلت: ﴿فِي ٱلْفُلْكِ﴾ بم يتعلق؟

قلت: هو متعلق بمعه، كأنه قيل: والذين استقروا معه في الفلك أو صحبوه في الفلك، ويجوز أن يتعلق بفعل الإنجاء، أي: أنجيناهم في السفينة من الطوفان، ﴿عَمِينَ﴾: عمي القلوب غير مستبصرين.

وقرىء: «عامين»، والفرق بين العميّ والعاميّ، أن «العمي» يدل على عمى ثابت، و«العامي» على عمى حادث؛ ونحوه قوله ﴿وَضَآئِقٌ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ [هود: ١٢].

﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾

﴿أَخَاهُمْ﴾: واحداً منهم، من قولك: يا أخا العرب، للواحد منهم، وإنما جعل واحداً منهم؛ لأنهم أفهم عن رجل منهم، وأعرف بحاله في صدقه وأمانته، وهو هود بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، وأخاهم: عطف على نوحا، و﴿هُودًا﴾: عطف بيان له.

فإن قلت: لم حذف العاطف من قوله: ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ﴾، ولم يقل: «فقال» كما في قصة نوح[1]؟

قلت: هو على تقدير سؤال سائل قال: فما قال لهم هود؟ فقيل: قال يا قوم، اعبدوا الله، وكذلك: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾.

فإن قلت: لم وصف الملأ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ دون الملأ من قوم نوح؟

---

(١) قال محمود: «فإن قلت: لم حذف العاطف من قوله تعالى في قصة هود هذه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ﴾ ولم يقل (فقال)؟ قلت لأنه أخرج الكلام جواباً عن سؤال سائل، كأنه قيل: فما قال هود حينئذ؟ قيل: قال يا قوم، وكذلك قال الملأ، قال أحمد: وحذف العاطف من المقاولة. ألا ترى قوله في سورة الشراء حكاية عن تقاول موسى ـ عليه السلام ـ وفرعون، كيف أسقط ذكر العاطف منه على كثرة الأقوال المعددة فيها. والسر في ذلك ـ والله أعلم ـ أن العاطف ينتظم الجمل حتى يصيرها كالجملة الواحدة «فاجتنب لإرادة استقلال كل واحدة منها في معناها» والله أعلم.

قلت: كان في أشراف قوم هود من آمن به، منهم مرثد بن سعد الذي أسلم، وكان يكتم إسلامه، فأريدت التفرقة بالوصف، ولم يكن في أشراف قوم نوح مؤمن[1]؛ ونحوه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [المؤمنون: ٣٣]، ويجوز أن يكون وصفاً وارداً للذمّ لا غير، ﴿فِى سَفَاهَةٍ﴾: في خفة حلم وسخافة عقل؛ حيث تهجر دين قومك إلى دين آخر، وجعلت السفاهة ظرفاً على طريق المجاز: أرادوا أنه متمكن فيها غير منفك عنها، وفي إجابة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ من نسبهم إلى الضلال والسفاهة، بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم، والإغضاء، وترك المقابلة، بما قالوا لهم، مع علمهم بأنّ خصومهم أضلّ الناس وأسفههم ـ أدب حسن وخلق عظيم، وحكاية الله ـ عزّ وجلّ ـ ذلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء، وكيف يغضون عنهم، ويسبلون أذيالهم على ما يكون منهم ﴿نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ أي: عرفت فيما بينكم بالنصح والأمانة، فما حقي أن أُتهم، أو أنا لكم ناصح فيما أدعوكم إليه، أمين على ما أقول لكم لا أكذب فيه، ﴿خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي: خلفتموه في الأرض، أو جعلكم ملوكاً في الأرض قد استخلفكم فيها بعدهم، ﴿فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾: فيما خلق من أجرامكم ذهاباً في الطول/ ٢٤٢ب والبدانة.

قيل: كان أقصرهم ستين ذراعاً، وأطولهم مائة ذراع، ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾: في استخلافكم، وبسطة أجرامكم، وما سواهما من عطاياه، وواحد الآلاء «إلى» نحو: إني وإناء، وضلع وأضلاع، وعنب وأعناب.

فإن قلت: «إذ» في قوله: ﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ﴾، ما وجه انتصابه؟

قلت: هو مفعول به، وليس بظرف، أي: اذكروا وقت استخلافكم.

﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا

---

(١) قال السمين الحلبي: وفيه نظر؛ لقوله تعالى: ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾، ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾. ويحتمل أن حال مخاطبة نوح لقوم لم يؤمن منهم أحد بعد، ثم آمنوا بخلاف قصة هود، فإنه حال الخطاب كان فيهم مؤمن، ويحتملُ أن يكون صفة لمجرد الذم من غير قصد تمييز بها. انتهى. الدر المصون.

﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ﴾: أنكروا، واستبعدوا اختصاص الله وحده بالعبادة، وترك دين الآباء، في اتخاذ الأصنام شركاء معه، حبًا لما نشأوا عليه، وألفاً لما صادفوا آباءهم يتدينون به.

فإن قلت: ما معنى المجيء في قوله: ﴿أَجِئْتَنَا﴾؟

قلت: فيه أوجه؛ أن يكون لهود ـ عليه السلام ـ مكان معتزل عن قومه يتحنث فيه، كما كان يفعل رسول الله ـ ﷺ ـ بحراء قبل المبعث (٦٠٢) فلما أوحي إليه، جاء قومه يدعوهم، وأن يريدوا به الاستهزاء؛ لأنهم كانوا يعتقدون أنّ الله ـ تعالى ـ لا يرسل إلا الملائكة، فكأنهم قالوا: أجئتنا من السماء كما يجيء الملك، وألاّ يريدوا حقيقة المجيء، ولكن التعرّض بذلك والقصد، كما يقال: ذهب يشتمني، ولا يراد حقيقة الذهاب، كأنهم قالوا: أقصدتنا لنعبد الله وحده، وتعرّضت لنا بتكليف ذلك؟ ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾: استعجال منهم للعذاب، ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم﴾ أي: حق عليكم ووجب، أو قد نزل عليكم، جعل المتوقع الذي بدّ من نزوله بمنزلة الواقع؛ ونحوه قولك لمن طلب إليك بعض المطالب: قد كان ذلك، وعن حسان أن ابنه عبد الرحمن لسعه زنبور، وهو طفل، فجاء يبكي، فقال له: يا بني مالك، قال: لسعني طوير كأنه ملتف في بردى حبرة[1]، فضمّه إلى صدره، وقال له: يا بني، قد قلت الشعر، والرجس: العذاب من الارتجاس، وهو الاضطراب، ﴿فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾: في أسماء ليس تحتها مسميات؛ لأنكم تسمونها آلهة، ومعنى الإلهية فيها معدوم محال وجوده؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾، ومعنى: ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾: سميتم بها من: سميته زيداً، «وقطعُ دابرهم»: استئصالهم وتدميرهم عن آخرهم، وقصتهم أن «عاداً» قد تبسطوا في البلاد ما بين عمان وحضرموت، وكانت لهم أصنام يعبدونها: صداء، وصمود، والهباء، فبعث الله إليهم هوداً نبيًا، وكان من أوسطهم وأفضلهم حسباً، فكذبوه، وازدادوا عتوًا وتجبراً، فأمسك الله عنهم القطر ثلاث

---

٦٠٢ ـ أخرجه البخاري (٨/ ٥٨٥): كتاب التفسير حديث (٤٩٥٣)، ومسلم (١/ ٤٧٤ ـ النووي) باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، حديث (٢٥٢/ ١٦٠).
قال الحافظ: متفق عليه من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ في بدء الوحي: «وكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه حتى فجأة الوحي وهو بغار حراء». انتهى.

---

(١) قوله: «في بردي حبرة» حبرة ـ كعنبة ـ: برد يماني. اهـ صحاح.

سنين حتى جهدوا، وكان الناس إذا نزل بهم بلاء، طلبوا إلى الله ـ تعالى ـ الفرج منه عند بيته المحرّم مسلمهم ومشركهم، وأهل مكة إذ ذاك العماليق أولاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح، وسيدهم/ ٢٤٣أ معاوية بن بكر، فجهزت عاد إلى مكة من أماثلهم سبعين رجلاً، منهم قيل بن عنز، ومرثد بن سعد، الذي كان يكتم إسلامه، فلما قدموا، نزلوا على معاوية بن بكر، وهو بظاهر مكة خارجاً عن الحرم، فأنزلهم، وأكرمهم، وكانوا أخواله وأصهاره، فأقاموا عنده شهراً يشربون الخمر، وتغنيهم الجرادتان، ـ قينتان كانتا لمعاوية ـ فلما رأى طول مقامهم، وذهولهم باللهو عما قدموا له، أهمه ذلك، وقال: قد هلك أخوالي، وأصهاري، وهؤلاء على ما هم عليه، وكان يستحي أن يكلمهم؛ خيفة أن يظنوا به ثقل مقامهم عليه، فذكر ذلك للقينتين، فقالتا: قل شعراً نغنيهم به لا يدرون من قاله؛ فقال معاوية: [من الوافر]

أَلاَ يَا قَيْلُ وَيْحَكَ قُمْ فَهَيْنِمْ ... لَعَلَّ اللهَ يَسْقِينَا غَمَامَا

فَيَسْقِي أَرْضَ عَادٍ إِنَّ عَاداً ... قَدَ أَمْسَوْا مَا يُبِينُونَ الْكَلاَمَا[1]

---

(١) ألا يا قيل ويحك قم فهينم ... لعل الله يسقينا غماما

فيسقي أرض عاد إن عادا ... قد امسوا ما يبينون الكلاما

من العطش الشديد فليس نرجو ... لها الشيخ الكبير ولا الغلاما

وقد كانت نساؤهم بخير ... فقد أمست نساؤهم عيامى

وإن الوحش يأتيهم جهارا ... فلا يخشى لعادي سهاما

وأنتم ههنا فيما اشتهيتم ... نهاركم وليلكم التماما

فقبح وفدكم من وفد قوم ... ولا لقوا التحية والسلاما

لمعاوية بن بكر. وروى أن عادا بعثوا من قومهم: قيل بن عنز، ونعيم بن هزالة، ومرثد بن سعد بن عفير، وجلهمة بن الحلس خال معاوية بن بكر، ولقمان بن عاد، كل منهم مع نفر من رهطة ليدعوا الله بالسقيا عند الكعبة، فنزلوا عند معاوية بن بكر فأكرمهم وبعث إليهم الجرادتين لتغنيا لهم ـ وهما قينتان مغنيتان أول من غنى في نساء العرب ـ فنسوا قومهم من كثرة اللهو والطرب. فقال معاوية: هلك أخوالي، ولو قلت لهم شيئاً ظنوا بي بخلاً. فأنشأ هذا، وأمر الجرادتين بغنائه لهم. والهينمة: صوت خفي لا يفهم. والمراد بها دعاء الله بالسقيا. ويسقينا غماما: أي ماء غمام. ما يبينون الكلام، لضعفهم من العطش. فليس نرجو، أي ليس نحن نرجو لها أي لعاد. ويروى «به» أي بسبب العطش. وحق الرواية «بها» أي في أرض عاد. الشيخ ولا الغلام. والغيمة؛ شدة الشهوة إلى اللبن. والمراد بها مطلق الفاقة. والعيامى: جمع عيم بالتشديد، أي رثيثة الحال، وأصله عيائم، فقلب إلى عيامى، كما روي أيامى، وهو جمع أيم، وأصله أيائم، أي فاقدات الأزواج. فالمعنى على التشبيه. ويجوز أن المراد: نساءكم التي تركتموهن كأنهن بلا أزواج هناك. وتكرير النساء للاستعطاف عليهن. والعادي: نسبة لعاد، وكانوا الغلاظ الشداد. والوحش: اسم جنس جمعي، واحده وحشي، كأنس وإنسي، وترك وتركي. فيذكر باعتبار لفظه، ويؤنث باعتبار جمعيته. وروي «بهما» ونهاركم: نصب على الظرف. و«من وفد قوم» تمييز مقترن بمن، والسلام عطف على =

فلما غنتا به، قالوا: إن قومكم يتغوثون من البلاء الذي نزل بهم، وقد أبطأتم عليهم، فادخلوا الحرم، واستسقوا لقومكم، فقال لهم مرثد بن سعد: والله، لا تسقون بدعائكم، ولكن إن أطعتم نبيكم، وتبتم إلى الله، سقيتم، وأظهر إسلامه، فقالوا لمعاوية: احبس عنا مرثداً، لا يقدمنّ معنا مكة؛ فإنه قد اتبع دين هود، وترك ديننا، ثم دخلوا مكة، فقال: قيل اللهم، اسق عاداً ما كنت تسقيهم، فأنشأ الله ـ تعالى ـ سحابات ثلاثاً بيضاء، وحمراء، وسوداء، ثم ناداه مناد من السماء: يا قيل، اختر لنفسك ولقومك، فقال: اخترت السوداء؛ فإنها أكثرهنّ ماء، فخرجت على عاد من وادٍ لهم يقال له: المغيث، فاستبشروا بها، وقالوا: هذا عارض ممطرنا، فجاءتهم منها ريح عقيم فأهلكتهم، ونجا هود والمؤمنون معه، فأتوا مكة، فعبدوا الله فيها حتى ماتوا.

فإن قلت: ما فائدة نفي الإيمان عنهم في قوله: ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ مع إثبات التكذيب بآيات الله؟

قلت: هو تعريض بمن آمن منهم كـ «مرثد بن سعد»، ومن نجا مع هود ـ عليه السلام ـ كأنه قال: وقطعنا دابر الذين كذبوا منهم ولم يكونوا مثل من آمن منهم، ليؤذن أنّ الهلاك خص المكذبين، ونجى الله المؤمنين.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ

= التحية، وفيه تورية لأنه يشير إلى انقطاع الكلام، كما أن المجتمعين يأتيان به عند المفارقة. فلما سمع القوم ذلك انطلقوا إلى الكعبة، فلحقهم مرثد بن سعد وكان مؤمناً فأخروه، فدعا الله تعالى لنفسه لا للقوم. وقال قيل: اللهم إن كان هود صادقاً فاسقنا، فأنشأ سحابة بيضاء وسحابة حمراء وسحابة سوداء. ثم نودي: يا قيل، اختر أيها شئت. فقال: أما البيضاء فجفل، وأما الحمراء فعارض. وأما السوداء فهيطل، فاختارها فنودي. قد اخترت رماداً أرمداً، لا يبقى من عاد أحداً، لا والداً ولا ولدا. فسارت السوداء إلى عاد فأهلكتهم. وجاء لقمان بن عاد بعد أن فرغوا من دعواتهم فقال: اللهم إني جئتك وحدي، فأعطني سؤلي. وسأل عمر سبعة أنسر، وكان عمر النسر ثمانين سنة، فكان يأخذ النسر من وكره فلا يزال عنده حتى يموت، وكان آخر نسوره اسمه: لبد، فلما مات مات. ثم إن ذلك كان قبل وجود مكة وزمزم، لأنهما إنما وجدا في زمن إبراهيم وإسماعيل. فلعل معاوية بن بكر كان سكنه قريباً من موضع مكة، لا في نفس موضعها، لأنه إذا ذاك لا سكن فيه ولا ماء.

قرىء: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾، بمنع الصرف بتأويل القبيلة، وإلى ثمود بالصرف بتأويل الحيّ، أو باعتبار الأصل؛ لأنه اسم أبيهم الأكبر، وهو ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح، وقيل: سميت «ثمود» لقلة مائها، من الثمد وهو الماء القليل، وكانت مساكنهم الحجر بين الشام والحجاز إلى وادي القرى، ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٌ﴾: آية ظاهرة، وشاهد على صحة نبوّتي، وكأنه قيل: ما هذه البينة؟ فقال: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةً﴾، وآية نصب على الحال، والعامل فيها: ما دل عليه اسم/ ٢٤٣ب الإشارة من معنى الفعل، كأنه قيل: أشير إليها آية، «ولكم»: بيان لمن هي له آية موجبة عليه الإيمان خاصة وهم ثمود؛ لأنهم عاينوها، وسائر الناس أخبروا عنها، وليس الخبر كالمعاينة، كأنه قال: لكم خصوصاً؛ وإنما أضيفت إلى اسم الله؛ تعظيماً لها، وتفخيماً لشأنها، وأنها جاءت من عنده مكوّنة من غير، فحل وطروقة آية من آياته، كما تقول: آية الله، وروي أن عاداً لما أهلكت عمرت ثمود بلادها، وخلفوهم في الأرض، وكثروا، وعمروا، أعماراً طوالاً، حتى أن الرجل كان يبني المسكن المحكم فينهدم في حياته، فنحتوا البيوت من الجبال، وكانوا في سعة ورخاء من العيش، فعتوا على الله، وأفسدوا في الأرض، وعبدوا الأوثان، فبعث الله ـ تعالى ـ إليهم صالحاً ـ عليه السلام ـ وكانوا قوماً عرباً، وصالح من أوسطهم نسباً، فدعاهم إلى الله ـ تعالى ـ فلم يتبعه إلا قليل منهم مستضعفون، فحذرهم، وأنذرهم، فسألوه آية، فقال: أية آية تريدون؟ قالوا: تخرج معنا إلى عيدنا في يوم معلوم لهم من السنة، فتدعوا إلهك، وندعو آلهتنا، فإن استجيب لك اتبعناك، وإن استجيب لنا اتبعتنا، فقال صالح: نعم، فخرج معهم، ودعوا أوثانهم، وسألوها الاستجابة فلم تجبهم، ثم قال سيدهم ـ جندع بن عمرو، وأشار إلى صخرة منفردة في ناحية الجبل، يقال لها: «الكاثبة» أخرج لنا من هذه الصخرة ناقة مخترجة، جوفاء، وبراء ـ والمخترجة التي شاكلت البحت ـ فإن فعلت صدّقناك وأجبناك، فأخذ صالح ـ عليه السلام ـ عليهم المواثيق، لئن فعلت ذلك لتؤمننّ ولتصدّقنّ، قالوا: نعم، فصلى ودعا ربه، فتمخضت الصخرة تمخض النتوج بولدها، فانصدعت عن ناقة، عشراء، جوفاء، وبراء، كما وصفوا، لا يعلم ما بين جنبيها إلا الله ـ تعالى ـ وعظماؤهم ينظرون، ثم نتجت ولداً مثلها في العظم، فآمن به جندع، ورهط من قومه، ومنع أعقابهم ناس من رؤوسهم أن يؤمنوا، فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر، وتشرب الماء، وكانت ترد غبا، فإذا كان يومها، وضعت رأسها في البئر، فما ترفعه حتى تشرب كلّ ماء فيها، ثم تتفحج[1]، فيحتلبون ما شاءوا حتى تمتلىء

(١) قوله: «ثم تتفحج» أي تفرج ما بين رجليها.

أوانيهم، فيشربون، ويدخرون.

قال أبو موسى الأشعري: أتيت أرض ثمود، فذرعت مصدر الناقة، فوجدته ستين ذراعاً، وكانت الناقة إذا وقع الحرّ، تصيفت بظهر الوادي، فتهرب منها أنعامهم، فتهبط إلى بطنه، وإذا وقع البرد، تشتت بطن الوادي، فتهرب مواشيهم إلى ظهره، فشق ذلك عليهم، وزينت عقرها لهم امرأتان: عنيزة أمّ غنم، وصدقة بنت المختار ـ لما أضرّت به من مواشيهما/ ٢٤٤أ وكانتا كثيرتي المواشي ـ فعقروها، واقتسموا لحمها وطبخوه، فانطلق سقبها حتى رقي جبلاً اسمه: «قارة» فرغى ثلاثاً، وكان صالح قال لهم: أدركوا الفصيل عسى أن يرفع عنكم العذاب، فلم يقدروا عليه، وانفجت[1] الصخرة بعد رغائه فدخلها، فقال لهم صالح: تصبحون غداً، ووجوهكم مصفرّة، وبعد غد ووجوهكم محمرة، واليوم الثالث ووجوهكم مسودّة، ثم يصبحكم العذاب، فلما رأوا العلامات، طلبوا أن يقتلوه، فأنجاه الله إلى أرض فلسطين، ولما كان اليوم الرابع، وارتفع الضحى، تحنطوا بالصبر، وتكفنوا بالأنطاع، فأتتهم صيحة من السماء، فتقطعت قلوبهم فهلكوا، ﴿تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ أي: الأرض أرض الله، والناقة ناقة الله، فذروها تأكل في أرض ربها، فليست الأرض لكم، ولا ما فيها من النبات من إنباتكم، ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾: لا تضربوها، ولا تطردوها، ولا تريبوها بشيء من الأذى؛ إكراماً لآية الله، ويروى: أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ حين مرَّ بالحجر في غزوة تبوك قال لأصحابه: «لاَ يَدْخُلَنَّ أَحَدٌ مُنْكُمُ القَرْيَةَ، وَلاَ تَشْرَبُوا مِنْ مَائِهَا، وَلاَ تَدْخُلُوا عَلَىٰ هَؤُلاَءِ المُعَذَّبِينَ إِلاَّ أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ الَّذِي أَصَابَهُمْ (٦٠٣) وقال ـ ﷺ ـ: «يَا عَلِيُّ، أَتَدْرِي مَنْ أَشْقَى الأَوَّلِينَ»؟ قَالَ: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «عَاقِرُ نَاقَةِ صَالِحٍ، أَتَدْرِي مَنْ أَشْقَى الآخَرِينَ»؟ قَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «قَاتِلُكَ» (٦٠٤).

---

٦٠٣ ـ أخرجه البخاري (١/ ٦٣١): كتاب الصلاة: باب الصلاة في مواضع الخسف والعذاب، حديث (٤٣٣) وأطرافه في (٣٣٨٠، ٣٣٨١، ٤٤١٩، ٤٤٢٠، ٤٧٠٢)، ومسلم (٩/ ٣٣٧ ـ ٣٣٨ ـ النووي) كتاب الزهد والرقائق: باب: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، إلا أن تكونوا باكين، حديث (٣٨ ـ ٣٩ ـ ٤٠/ ٢٩٨٠).

قال الحافظ: متفق عليه من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ من طرق. انتهى.

٦٠٤ ـ روي من حديث عمار بن ياسر، ومن حديث جابر بن سمرة، ومن حديث صهيب، ومن حديث علي.

أما حديث عمار:

فأخرجه النسائي في سننه الكبرى (٥/ ١٥٣) رقم (٨٥٣٨)، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ١٢ ـ =

---

(١) قوله: «وانفجت الصخرة» أي: انفتحت.

وقرأ أبو جعفر في رواية: «تأكل في أرض الله»، وهو في موضع الحال بمعنى: «آكلة»، ﴿وَبَوَّأَكُمْ﴾: ونزلكم، والمباءة: المنزل، ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: في أرض الحجر بين الحجاز والشام، ﴿مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ أي: تبنونها من سهولة الأرض بما تعملون منها من الرهص[1]، واللبن، والآجر.

وقرأ الحسن: «وتنحَتون» بفتح الحاء، «وتنحاتون» بإشباع الفتحة؛ كقوله: [من الكامل]

يَنْبَاعُ مِنْ ذَفْرَىٰ أَسِيلٍ حُرَّةٍ[2] . . . . . .

= ١٣)، وأحمد (٤/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤)، والحاكم (٣/ ١٤٠ ـ ١٤١) وابن هشام في سيرته (٢/ ٢٥٣).

وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

وأما حديث جابر بن سمرة:

فأخرجه الطبراني في معجمه الكبير (٢/ ٢٤٧) رقم (٢٠٣٧)، وعزاه الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار (١/ ٤٦٥) رقم (٤٦٧) إلى النَّسائي في كتاب الكنى، وإلى أبي نعيم في كتابه دلائل النبوة.

وأما حديث صهيب:

فقد ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ١٣٩)، وقال: رواه الطبراني وأبو يعلى وفيه رشدين بن سعد وقد وثق، وبقية رجاله ثقات.

وأما حديث علي:

فقد عزاه الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار (١/ ٤٦٦) رقم (٤٦٧) إلى ابن مردويه في تفسيره.

قال الحافظ:

أخرجه ابن إسحاق في المغازي: حدثني يزيد بن محمد بن خيثم عن محمد بن كعب القرظي عن محمد بن خيثم والد يزيد المذكور عن عمار بن ياسر قال: «كنت أنا وعلي رفيقين في غزوة العُسرة إلى أن قال: فقال: يا علي، ألا أخبرك بأشقى الناس: رجلين؟ قال: بلى يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «ثمود الذي عقر الناقة»، والذي يضربك يا علي على هذه وأشار إلى رأسه ـ حتى يبل هذه ـ ووضع يده على لحيته»، ومن هذا الوجه أخرجه النَّسائي في الخصائص والحاكم والطبري والبيهقي في الدلائل. وفي الباب عن جابر بن سمرة أخرجه الطبراني وعن صهيب أخرجه أبو يعلى والطبراني. وعن علي أخرجه ابن مردويه في تفسير والشمس وضحاها (تنبيه) في رواية المذكورين: «أن النبي ﷺ سأل عليا، فقال له في الأول: عاقر الناقة، قال: صدقت. وقال في الثانية: «لا علم لي»، وفي رواية جابر بن سمرة، «الله أعلم». انتهى.

---

(١) قوله: «من الرهص» هو الصخر الثابت في أسفل الحائط. اهـ من الصحاح.

(٢) وكان ربا أو كحيلا معقدا حش الوقود به جوانب قمقم
ينباع من ذفرى أسيل حرة زيافة مثل الفنيق المكرم

لعنترة بن شداد العبسي من معلقته، يصف عرق ناقته من السير، فشبه بالرب. وهو العصير والطلاء. أو بالكحيل وهو القطران المنعقد بالنار على جوانب القمقم. وأعقدت الدواء: أغليته حتى خثر. وحش الوقود: أشعله وأوقده. وهو هنا مبني للمجهول، وأصل «ينباع» ينبع، فتولدت الألف =

فإن قلت: علام انتصب: ﴿بُيُوتًا﴾؟

قلت: على الحال؛ كما تقول: خط هذا الثوب قميصاً، وابر هذه القصبة قلماً، وهي من الحال المقدّرة؛ لأن الجبل لا يكون بيتاً في حال النحت، ولا الثوب، ولا القصبة قميصاً، وقلماً في حال الخياطة والبري، وقيل: كانوا يسكنون السهول في الصيف، والجبال في الشتاء.

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾: للذين استضعفهم رؤساء الكفار واستذلوهم، و﴿لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾: بدل من الذين استضعفوا.

فإن قلت: الضمير في «منهم» راجع إلى ماذا[1]؟

= للإشباع، والذفرى: نقرة منخفضة جنب الأذن، إذا طال سير البعير انفتخ من وسطها جلدة وارتفعت وسال منها العرق في النقرة، وهي المشبهة بالقمقم سابقاً. وقيل الذفرى أصل الأذن. والأسيل: الناقة المستقيمة الخلق، من قولهم: خد أسيل، وكف أسيل، وحر كل شيء: خالصه. زيافة: كثيرة الزيف وهو التبختر في السير. والفنيق: فحل الإبل المكرم بإعفائه عن العمل لأجل الضراب، فالمكرم: نعت مفسر. ويروى المكدم بالدال. ويقال: كدمه إذا عضه. وأما أكدمه فلم أقف عليها، ولعلها لغة قليلة. والمكدم اسم مفعول منها، أي الذي كدمته الفحول وعضته فأثرت فيه لتنقب جلدها من أثر الرحل والركض. وروي: من ذفرى غضوب جسرة، أي شديدة الغضب صلبة موثقة الخلق. وقيل «ينباع» وزنه «ينفعل» من البوع، وهو طي المسافة البعيدة، ولا معنى له في البيت.

ينظر ديوانه ص ٢٠٤، وخزانة الأدب ١/ ١٢٢، ٨/ ٣٧٣، ١١/ ١٨٣، والخصائص ٣/ ١٢١، وسرّ صناعة الإعراب ١/ ٣٣٨، ٢/ ٧١٩، ولسان العرب (عقب) (بوع)، (نبع)، والإنصاف ١/ ٢٦، وشرح شواهد الشافية ص ٢٤، والمحتسب ١/ ٢٥٨، ٣٤٠، الخصائص ٣/ ١٩٣، ٢١٣، ومجالس ثعلب ٢/ ٥٣٩، والمحتسب ١/ ٧٨، ١٦٦، ٢٥٨، وشرح شافية ابن الحاجب ١/ ٧٠، ٢/ ٨٤، ورصف المباني ص ١١، والدر المصون ٢/ ٢٠٥.

(١) قال محمود: «إن قلت الضمير في منهم راجع إلى ماذا؟ قلت: إلى قومه... إلخ» قال أحمد: فقوله: (لمن) على الأول بدل الشيء من الشيء وهما لعين واحدة. وعلى الثاني بدل بعض من كل.

قلت: إلى (قومه)، أو إلى: (الذين استضعفوا).

فإن قلت: هل لاختلاف المرجعين أثر في اختلاف المعنى؟

قلت: نعم؛ وذلك/ ٢٤٤ب أن الراجع إذا رجع إلى قومه فقد جعل (من آمن) مفسراً لمن استضعف منهم، فدل أن استضعافهم كان مقصوراً على المؤمنين، وإذا رجع إلى الذين استضعفوا، لم يكن الاستضعاف مقصوراً عليهم، ودلّ أن المستضعفين كانوا مؤمنين وكافرين، ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾: شيء قالوه على سبيل الطنز والسخرية؛ كما تقول للمجسمة: أتعلمون أن الله فوق العرش؟

فإن قلت: كيف صحّ قولهم: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ جواباً عنه[1]؟

قلت: سألوهم عن العلم بإرساله، فجعلوا إرساله أمراً معلوماً مكشوفاً مسلماً، لا يدخله ريب، كأنهم قالوا: العلم بإرساله، وبما أرسل به ما لا كلام فيه[2]، ولا شبهة تدخله؛ لوضوحه وإنارته، وإنما الكلام في وجوب الإيمان به، فنخبركم أنا به مؤمنون؛ ولذلك كان جواب الكفرة: ﴿إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[3]، فوضعوا: (آمنتم به): موضع (أرسل به)؛ ردًا لما جعله المؤمنون معلوماً وأخذوه مسلماً، ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ﴾: أسند العقر إلى جميعهم؛ لأنه كان برضاهم، وإن لم يباشره إلا بعضهم، وقد يقال للقبيلة الضخمة: أنتم فعلتم كذا، وما فعله إلا واحد منهم، وعتوا عن أمر ربهم وتولوا عنه واستكبروا عن امتثاله عاتين، وأمر ربهم: ما أمر به على لسان صالح ـ عليه السلام ـ من قوله: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١١٣] أو شأن ربهم وهو دينه، ويجوز أن يكون المعنى: وصدر عتوّهم عن أمر ربهم، كأن أمر ربهم بتركها كان هو السبب في عتوّهم، ونحو عن هذه ما في قوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكهف: ٨٢] ﴿ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾: أرادوا من العذاب، وإنما جاز الإطلاق؛ لأنه كان معلوماً، واستعجالهم له لتكذيبهم به، ولذلك

---

(١) عاد كلامه. قال محمود: «فإن قلت كيف وقع قولهم إنا بما أرسل به مؤمنون جواباً... إلخ» قال أحمد: وقولهم (إنا به مؤمنون) ليس إخباراً عن وجوب الإيمان به، بل عن امتثال الواجب والعمل به، ونحن قد امتثلنا.

(٢) قوله: «ما لا كلام فيه» لعله: مما لا كلام فيه.

(٣) عاد كلامه. قال محمود: «ولذلك كان جواب الكفرة إنا بالذي... إلخ» قال أحمد: ولو طابقوا بين الكلامين لكان مقتضى المطابقة أن يقولوا: إنا بما أرسل به كافرون، ولكن أبوا ذلك حذراً مما في ظاهره من إثباتهم لرسالته وهم يجحدونها. وقد يصدر مثل ذلك على سبيل التهكم، كما قال فرعون ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ فأثبت إرساله تهكماً، وليس هذا موضع التهكم، فإن الغرض إخبار كل واحد من الفريقين المؤمنين والمكذبين عن حاله، فلهذا خلص الكافرون قولهم عن إشعار الإيمان بالرسالة احتياطاً للكفر وعلوا في الإصرار.

علقوه بما هم به كافرون، وهو كونه من المرسلين، ﴿ٱلرَّجْفَةُ﴾: الصيحة التي زلزلت لها الأرض، واضطربوا لها، ﴿فِي دَارِهِمْ﴾: في بلادهم، أو في مساكنهم، ﴿جَٰثِمِينَ﴾: هامدين لا يتحركون موتى، يقال: الناس جثم، أي: قعود، لا حراك بهم، ولا ينبسون نبسة، ومنه المجثمة التي جاء النهي عنها (٦٠٥)، وهي البهيمة تربط وتجمع قوائمها لترمى، وعن

---

٦٠٥ ـ روي من حديث ابن عباس، ومن حديث أبي الدرداء ومن حديث العرباض بن سارية، ومن حديث أبي ثعلبة الخشني، ومن حديث أنس بن مالك، ومن حديث أبي هريرة، ومن حديث جابر.

أما حديث ابن عباس:

أخرجه البخاري (١٠/ ٩٣): كتاب الأشربة: باب الشرب من فم السقاء، حديث (٥٦٢٩) مختصراً، وأبو داود (٢/ ٣٦٢): كتاب الأشربة: باب الشراب مِنْ فَيِّ السقاء، حديث (٣٧١٩)، و(٢/ ٣٧٩): كتاب الأطعمة: باب النهي عن أكل الجلالة وألبانها؛ حديث (٣٧٨٦)، والتُرمذي (٤/ ٢٧٠): كتاب الأطعمة: باب ما جاء في أكل لحوم الجلالة وألبانها، حديث (١٨٢٥)، والنَّسائي (٧/ ٢٤٠): كتاب الضحايا: باب النهي عن لبن الجلالة، وابن خزيمة (٤/ ١٤٦) حديث (٢٥٥٢)، وأحمد في مسنده (١/ ٢٢٦ ـ ٢٤١ ـ ٢٩٣ ـ ٣٢١ ـ ٣٣٩).

وأما حديث أبي الدرداء:

فأخرجه التُرمذي (٤/ ٧١): كتاب الأطعمة باب ما جاء في كراهية أكل المصبورة، حديث (١٤٧٣)، وأحمد (٦/ ٤٤٥)، وقال التُرمذي: هذا حديث غريب.

وأما حديث العرباض بن سارية:

فأخرجه التُرمذي (٤/ ٧١): كتاب الأطعمة: باب ما جاء في كراهية أكل المصبورة، حديث (١٤٧٤)، وأحمد (٤/ ١٢٧)، والحاكم في المستدرك (٢/ ١٣٥).

وسكت عنه التُرمذي.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وأما حديث أبي ثعلبة الخشني.

أخرجه النَّسائي (٧/ ٢٠١): «كتاب الصيد والذبائح باب تحريم أكل السباع، والدارمي (٢/ ٨٤ ـ ٨٥): كتاب الأضاحي: باب ما لا يؤكل من السباع، وأحمد (٤/ ١٩٤).

وأما حديث أنس بن مالك:

فأخرجه البزار كما في «تخريج الكشاف» (١/ ٤٦٨) «للزيلعي» بلفظ: أن النبي ﷺ نهى عن المجثمة والجلالة والشرب من فيّ السقاء.

وأما حديث أبي هريرة:

فأخرجه التُرمذي (٤/ ٧٤): كتاب الأطعمة: باب ما جاء في كراهية كل ذي ناب وذي مخلب، حديث (١٤٧٩)، وأخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٥).

وعزاه الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار (١/ ٤٦٨) إلى ابن أبي شيبة في مسنده.

وأما حديث جابر:

عزاه الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار (١/ ٤٦٨): إلى ابن أبي شيبة في مسنده، وإلى البزار في مسنده.

قال الحافظ:

أما النهي فرواه أصحاب السُنن وابن حِبان والحاكم من حديث قتادة عن عكرمة عن ابن عباس: «أن =

جابر أنّ النبي ـ ﷺ ـ لما مر بالحجر قال: «لاَ تَسْأَلُوا الآيَاتِ؛ فَقَدْ سَأَلَهَا قَوْمُ صَالِحٍ، فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلاَّ رَجُلٌ وَاحِدٌ كَانَ فِي حَرَمِ اللهِ» قَالُوا: مَنْ هُوَ؟ قَالَ: ذَاكَ «أَبُو رِغَالَ» فَلَمَّا خَرَجَ مِنَ الحَرَمِ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ قَوْمَهُ (٦٠٦)، وروي أنّ صالحاً كان بعثه إلى قوم فخالف أمره، وروي أنه ـ عليه السلام ـ مرّ بقبر «أبي رغال» فقال: «أتدرون من هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، فذكر قصة أبي رغال، وأنه دفن ههنا/ ٢٤٥أ، ودفن معه غصن من ذهب»، فابتدروه، وبحثوا عنه بأسيافهم، فاستخرجوا الغصن (٦٠٧)، ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾: الظاهر أنه كان مشاهداً لما جرى عليهم، وأنه تولى عنهم بعدما أبصرهم جاثمين، تولي مغتمّ متحسر على ما فاته من إيمانهم، يتحزن لهم، ويقول: ﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ﴾: بذلت فيكم، وسعي، ولم آل جهداً في إبلاغكم، والنصيحة لكم، ولكنكم: ﴿لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾، ويجوز أن يتولى عنهم تولي ذاهب عنهم، منكر لإصرارهم، حين رأى العلامات قبل نزول العذاب، وروي أنّ عقرهم الناقة كان يوم الأربعاء، ونزل بهم العذاب يوم السبت، وروي أنه خرج في مائة وعشرة من المسلمين وهو يبكي، فالتفت، فرأى الدخان ساطعاً، فعلم أنهم قد هلكوا، وكانوا ألفاً وخمسمائة دار؛ وروي أنه رجع بمن معه فسكنوا ديارهم.

= رسول الله ﷺ ينهى عن الشرب مِنْ فَيِّ السقاء وعن ركوب الجلالة، وعن المجثمة»، ورواه البزار من طريق الوراق عن قتادة عن أنس مثله ـ وكذا قال، وأخرجه البزار وقال: إسناده حسن، ومن حديث القرناص بن سارية: «أن رسول الله ﷺ نهى عن المجثمة» أخرجه التِّرمذي، وحسنه من رواية سعيد بن المسيب عن أبي الدرداء قال: «نهى رسول الله ﷺ عن أكل المجثمة وهي التي تضرب بالنبل». انتهى.

٦٠٦ ـ أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٤٠ ـ ٣٤١)، والبزار في مسنده (٢/ ٣٥٦) رقم (١٨٤٤)، وابن حِبان (١٤/ ٧٧) رقم (٦١٩٧)، وأحمد (٣/ ٢٩٦)، والطبري في تفسيره (٥/ ٥٣٥ ـ ٥٣٦) رقم (١٤٨٢٤) وعبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٢٣٢)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ١٨٣).

قال الحافظ:

أخرجه ابن حِبان والحاكم وأحمد وإسحاق والطبري من رواية عبد الله بن عثمان بن خيثمة عن أبي الزبير عن جابر ـ وزاد: «في غزوة تبوك»، فقام فخطب الناس! انتهى.

٦٠٧ ـ أخرجه أبو داود (٣/ ١٨١ ـ ١٨٢): كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب نبش القبور العادية يكون فيها المسال، حديث (٣٠٨٨)، وابن حِبان (١٤/ ٧٨ ـ ٧٩) رقم (٦١٩٨) وعبد الرزاق (٢٠٩٨٩)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٤/ ١٥٦) وفي «دلائل النبوة» (٦/ ٢٩٧، ٧/ ٢٩٧).

قال الحافظ:

أخرجه أبو داود وابن حِبان والطبراني والبيهقي وأبو نعيم في الدلائل من رواية بحير بن أبي بحير عن عبد الله بن عمرو بن العاص ولفظه: «فابتدره الناس فاستخرجوا الغصن»، وأما قوله: «فبحثوا عنه بأسيافهم»، فأخرجه عبد الرزاق عن معمر مرسلاً. انتهى.

فإن قلت: كيف صحّ خطاب الموتى وقوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾؟

قلت: قد يقول الرجل لصاحبه وهو ميت، وكان قد نصحه حيًّا فلم يسمع منه حتى ألقى بنفسه في التهلكه: يا أخي، كم نصحتك، وكم قلت لك، فلم تقبل مني؟

وقوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾: حكاية حال ماضية.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾

﴿وَلُوطًا﴾: وأرسلنا لوطاً، و﴿وإذ﴾: ظرف لأرسلنا، أو «واذكر لوطاً» و«إذ» بدل منه، بمعنى: واذكر وقت، ﴿قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾: أتفعلون السيئة المتمادية في القبح، ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا﴾: ما عملها قبلكم، والباء للتعدية من قولك: سبقته بالكرة، إذا ضربتها قبله، ومنه قوله ـ عليه السلام ـ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكاشَةُ» (٦٠٨) ﴿مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: «من» الأولى: زائدة؛ لتوكيد النفي، وإفادة معنى الاستغراق، والثانية: للتبعيض.

فإن قلت: ما موقع هذه الجملة؟

قلت: هي جملة مستأنفة، أنكر عليهم أوّلاً بقوله: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾، ثم وبخهم

---

٦٠٨ ـ أخرجه البخاري (١١/ ٣١٢): كتاب الرقاق: باب: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ﴾، حديث (٦٤٧٢)، ومسلم (٢/ ٩٢ ـ ٩٣ ـ النووي) كتاب الإيمان: باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، حديث (٣٧٤/ ٢٢٠) من طريق عبد الله بن عباس به.
وأخرجه مسلم (٢/ ٩٠ ـ ٩١ ـ النووي): كتاب الإيمان: باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، حديث (٣٦٧ ـ ٣٦٨/ ٢١٦) من طريق أبي هريرة به.
وأخرجه مسلم (٢/ ٩١ ـ النووي): كتاب الإيمان باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، حديث (٣٧١ ـ ٣٧٢/ ٢١٨) من طريق عمران بن حصين به.
وأخرجه أبو يَعلى (٩/ ٢٣١ ـ ٢٣٢) رقم (٥٣٣٩)، وابن حِبان (٢٦٤٤ ـ موارد)، والطبراني في «الكبير» (١٠/ ٦ ـ ٧) رقم (٩٧٦٦، ٩٧٦٧، ٩٧٦٩)، من طريق قتادة عن الحسن عن عمران عن عبد الله بن مسعود به.
قال الحافظ: متفق عليه من حديث ابن عباس في قصته. ولمسلم من حديث أبي هريرة نحوه. ومن حديث عمران بن حصين ـ رضي الله عنه. انتهى.

عليها، فقال: أنتم أوّل من عملها، أو على أنه جواب لسؤال مقدّر؛ كأنهم قالوا: لم لا نأتيها؟ فقال: ما سبقكم بها أحد، فلا تفعلوا ما لم تسبقوا به، ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾: بيان لقوله: «أتأتون الفاحشة»، والهمزة مثلها في «أتأتون»: للإنكار، والتعظيم.

وقرىء: «إنكم»، على الإخبار المستأنف «لتأتون الرجال»، من: أتى المرأة إذا غشيها ﴿شَهْوَةً﴾: مفعول له، أي: للاشتهاء لا حامل لكم عليه إلا مجرّد الشهوة من غير داع آخر، ولا ذم أعظم منه؛ لأنه وصف لهم بالبهيمية، أنه لا داعي لهم من جهة العقل ألبتة، كطلب النسل، ونحوه، أو حال بمعنى مشتهين تابعين للشهوة، غير ملتفتين إلى السماجة، ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾: أضرب عن الإنكار إلى الإخبار عنهم بالحال التي توجب ارتكاب القبائح، وتدعو إلى اتباع الشهوات، وهو أنهم قوم عادتهم الإسراف، وتجاوز الحدود في كل شيء، فمن ثم أسرفوا في باب قضاء الشهوة، حتى تجاوزوا/ ٢٤٥ب المعتاد إلى غير المعتاد، ونحوه: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٦]، ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ يعني: ما أجابوه بما يكون جواباً عما كلمهم به لوط ـ عليه السلام ـ من إنكار الفاحشة، وتعظيم أمرها، ووسمهم بسمة الإسراف الذي هو أصل الشر كله، ولكنهم جاؤوا بشيء آخر لا يتعلق بكلامه ونصيحته، من الأمر بإخراجه، ومن معه من المؤمنين من قريتهم، ضجراً بهم وبما يسمعونهم من وعظهم ونصحهم، وقولهم: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾: سخرية بهم، وبتطهرهم من الفواحش، وافتخاراً بما كانوا فيه من القذارة، كما يقول الشطار من الفسقة لبعض الصلحاء إذا وعظهم: أبعدوا عنا هذا المتقشف[1]، وأريحونا من هذا المتزهد، ﴿وَأَهْلَهُۥٓ﴾: ومن يختص به من ذويه أو من المؤمنين[2]، ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: من الذين غبروا في ديارهم، أي: بقوا فهلكوا، والتذكير لتغليب الذكور على الإناث، وكانت كافرة موالية لأهل سدوم، وروي أنها التفتت فأصابها حجر فماتت.

وقيل: كانت المؤتفكة خمس مدائن.

وقيل: كانوا أربعة آلاف بين الشام والمدينة، فأمطر الله عليهم الكبريت والنار.

وقيل: خسف بالمقيمين منهم، وأمطرت الحجارة على مسافريهم وشذاذهم.

وقيل: أمطر عليهم ثم خسف بهم، وروي أن تاجراً منهم كان في الحرم، فوقف له الحجر أربعين يوماً حتى قضى تجارته، وخرج من الحرم فوقع عليه.

---

(١) قوله: «أبعدوا عنا هذا المتقشف» المتقشف: هو الذي يتبلغ بالقوت وبالمرقع، من القشف: وهو التغير من الشمس أو الفقر اهـ.

(٢) قوله: «من ذويه أو من المؤمنين» يعني أقاربه وامرأته.

فإن قلت: أي فرق بين مطر وأمطر؟

قلت: يقال مطرتهم السماء وواد ممطور[1]، وفي نوابغ الكلم: حرى غير ممطور، حري أن يكون غير ممطور[2]، ومعنى «مطرتهم»: أصابتهم بالمطر؛ كقولهم: غاثتهم، ووبلتهم، وجادتهم، ورهمتهم، ويقال: أمطرت عليهم كذا، بمعنى: أرسلته عليهم إرسال المطر، ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحجر: ٧٤]، ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤]، ومعنى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾: وأرسلنا عليهم نوعاً من المطر عجيباً، يعني: الحجارة؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [النمل: ٥٨].

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

كان يقال لشعيب ـ عليه السلام ـ خطيب الأنبياء؛ لحسن مراجعته قومه، وكانوا أهل بخس للمكاييل والموازين، ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: معجزة شاهدة بصحة نبوّتي أوجبت عليكم الإيمان بي، والأخذ بما آمركم به، والانتهاء عما أنهاكم عنه، فأوفوا ولا تبخسوا.

---

(١) قال محمود: «يقال مطرتهم السماء وواد ممطور... إلخ» قال أحمد: مقصود المصنف الرد على من قول: مطرت السماء في الخير، وأمطرت في الشر. ويتوهم أنها تفرقة وضعية، فبين أن أمطرت: معناه أرسلت شيئاً على نحو المطر وإن لم يكن ماء، حتى لو أرسل الله من السماء أنواعاً من الخيرات والأرزاق مثلاً كالمن والسلوى، لجاز أن يقال فيه: أمطرت السماء خيرات، أي أرسلتها إرسال المطر. فليس للشر خصوصية في هذه الصيغة الرباعية، ولكن اتفق أن السماء لم ترسل شيئاً سوى المطر إلا وكان عذاباً، فظن الواقع اتفاقاً مقصوداً في الوضع فنبه على تحقيق الأمر فيه وأحسن وأجمل.

(٢) قوله: «حري غير ممطور حري أن يكون غير ممطور» حري الأول بمعنى ناحية وجانب. والثاني بمعنى جدير وحقيق. وممطور الأول بمعنى مصاب بالمطر. والثاني بمعنى مذهوب فيه. كذا يؤخذ من الصحاح.

فإن قلت: ما كانت معجزته؟

قلت: قد وقع العلم بأنه كانت له معجزة؛ لقوله: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، ولأنه لا بدّ لمدعي النبوة من معجزة تشهد له وتصدقه، وإلا لم تصح دعواه، وكان متنبئاً، لا نبيًا، غير أنّ معجزته لم تذكر في القرآن، كما لم تذكر أكثر معجزات نبينا ـ ﷺ ـ فيه، ومن معجزات شعيب ـ عليه السلام: ما روي من محاربة عصى موسى ـ عليه السلام ـ التنين[1]، حين دفع إليه غنمه، وولادة الغنم الدرع، خاصة حين وعده أن تكون له الدرع من أولادها/ ٢٤٦أ، ووقوع عصى آدم ـ عليه السلام ـ على يده في المرات السبع، وغير ذلك من الآيات؛ لأنّ هذه كلها كانت قبل أن يستنبأ موسى ـ عليه السلام ـ فكانت معجزات لشعيب.

فإن قلت: كيف قيل: ﴿ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾، وهلا قيل: المكيال والميزان، كما في سورة هود، عليه السلام؟

قلت: أريد بالكيل: آلة الكيل، وهو «المكيال»، أو سمي ما يكال به بالكيل، كما قيل: العيش، لما يعاش به، أو أريد: فأوفوا الكيل ووزن الميزان، ويجوز أن يكون الميزان كالميعاد والميلاد بمعنى المصدر، ويقال: بخسته حقه: إذا نقصته إياه، ومنه قيل للمكس: «البخس»، وفي أمثالهم: تحسبها حمقاء، وهي باخس، وقيل: ﴿أَشْيَآءَهُمْ﴾؛ لأنهم كانوا يبخسون الناس كل شيء في مبايعاتهم، أو كانوا مكاسين لا يدعون شيئاً، إلا مكسوه كما يفعل أمراء الحرمين، وروي أنهم كانوا إذا دخل الغريب بلدهم أخذوا دراهمه الجياد، وقالوا: هي زيوف فقطعوها قطاعاً، ثم أخذوها بنقصان ظاهر أو أعطوه بدلها زيوفاً ﴿بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾: بعد الإصلاح فيها، أي: لا تفسدوا فيها بعدما أصلح فيها الصالحون من الأنبياء وأتباعهم العاملين بشرائعهم، وإضافته كإضافة قوله: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣] بمعنى: بل مكركم في الليل والنهار، أو بعد إصلاح أهلها على حذف المضاف، ﴿ذَٰلِكُمْ﴾: إشارة إلى ما ذكر من الوفاء بالكيل، والميزان، وترك البخس، والإفساد في الأرض، أو إلى العمل بما أمرهم به ونهاهم عنه، ومعنى: ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يعني: في الإنسانية وحسن الأحدوثة، وما تطلبونه من التكسب والتربح؛ لأن الناس أرغب في متاجرتكم إذا عرفوا منكم الأمانة والسوية، ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: إن كنتم مصدقين لي في قولي ذلكم خير لكم، ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ﴾: ولا تقتدوا بالشيطان في قوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، فتقعدوا بكل صراط، أي: بكل منهاج من مناهج الدين؛

---

(١) قوله: «التنين» هو ضرب من الحيات سود الرءوس بيض سائر الأبدان اهـ.

والدليل على أن المراد بالصراط سبيل الحق قوله: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ومحل (توعدون)، وما عطف عليه: النصب على الحال، أي: ولا تقعدوا موعدين وصادّين عن سبيل الله، وباغيها عوجاً.

فإن قلت: صراط الحق واحد، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فكيف قيل: بكل صراط؟

قلت: صراط الحق واحد، ولكنه يتشعب إلى معارف، وحدود، وأحكام كثيرة مختلفة، فكانوا إذا رأوا أحداً يشرع في شيء منها أوعدوه وصدّوه.

فإن قلت: إلام يرجع الضمير في ﴿ءَامَنَ بِهِۦ﴾؟

قلت: إلى كل صراط، تقديره: توعدون من آمن به، وتصدّون عنه، فوضع الظاهر الذي هو سبيل الله موضع الضمير؛ زيادة في تقبيح أمرهم، ودلالة على عظم ما يصدّون عنه.

وقيل: كانوا يجلسون على الطرق والمراصد/ ٢٤٦ب، فيقولون لمن مرّ بهم: إن شعيباً كذاب، فلا يفتنكم عن دينكم، كما كان يفعل قريش بمكة.

وقيل: كانوا يقطعون الطرق.

وقيل: كانوا عشارين، ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾: وتطلبون لسبيل الله عوجاً، أي: تصفونها للناس بأنها سبيل معوجة غير مستقيمة، لتصدّوهم عن سلوكها والدخول فيها، أو يكون تهكماً بهم، وأنهم يطلبون لها ما هو محال؛ لأنّ طريق الحق لا يعوج، ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا﴾: إذ مفعول به غير ظرف، أي: واذكروا على جهة الشكر وقت كونكم قليلاً عددكم، ﴿فَكَثَّرَكُمْ﴾: الله، ووفر عددكم.

قيل: إن مدين بن إبراهيم تزوّج بنت لوط، فولدت، فرمى الله في نسلها بالبركة، والنماء، فكثروا وفشوا، ويجوز إذ كنتم مقلين فقراء فكثركم، فجعلكم مكثرين موسرين، أو كنتم أقلة أذلة، فأعزكم بكثرة العدد والعدد، ﴿عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾: آخر أمر من أفسد قبلكم من الأمم؛ كقوم نوح، وهود، وصالح، ولوط، وكانوا قريبي العهد مما أصاب المؤتفكة، ﴿فَٱصْبِرُوا۟﴾: فتربصوا وانتظروا، ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا﴾ أي: بين الفريقين، بأن ينصر المحقين على المبطلين، ويظهرهم عليهم، وهذا وعيد للكافرين بانتقام الله منهم، كقوله ﴿فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ أو هو عظة للمؤمنين وحثّ على الصبر، واحتمال ما كان يلحقهم من أذى المشركين إلى أن يحكم الله بينهم وينتقم لهم منهم، ويجوز أن يكون خطاباً للفريقين، أي: ليصبر المؤمنون على أذى الكفار، وليصبر الكفار على ما

يسوءهم من إيمان من آمن منهم، حتى يحكم الله فيميز الخبيث من الطيب، ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾؛ لأنّ حكمه حق وعدل، لا يخاف فيه الحيف.

﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾

أي: ليكوننّ أحد الأمرين: إمّا إخراجكم، وإمّا عودكم في الكفر.

فإن قلت: كيف خاطبوا شعيباً ـ عليه السلام ـ بالعود[1] في الكفر في قولهم: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾، وكيف أجابهم بقوله: ﴿إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾، والأنبياء ـ عليهم السلام ـ لا يجوز عليهم من الصغائر إلا ما ليس فيه تنفير، فضلاً عن الكبائر، فضلاً عن الكفر؟

قلت: لما قالوا: «لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك»، فعطفوا على ضميره الذين دخلوا في الإيمان منهم بعد كفرهم، قالوا: لتعودنّ، فغلبوا الجماعة على الواحد، فجعلوهم عائدين جميعاً؛ إجراء للكلام على حكم التغليب، وعلى ذلك أجرى شعيب ـ عليه السلام ـ جوابه، فقال: إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها، وهو يريد عود

---

(١) قال محمود: «إن قلت كيف خاطبوا شعيباً بصيغة العود... إلخ» قال أحمد: والزمخشري بنى هذا الكلام على أن صيغة العود تستدعي رجوع العائد إلى حال كان عليها قبل. والتحقيق في الجواب عن السؤال المذكور مع اقتضاء العود لذلك: أن هذا الفعل وإن استعمل كذلك، إلا أنه كثيراً ما يرد بمعنى صار. وحينئذ يجوز أن يكون أخاً لكان ولا يستدعي الرجوع إلى حالة سابقة، بل عكس ذلك وهو الانتقال من حال سابقة إلى حالة مؤتنفة مثل صار، وكأنهم قالوا ـ والله أعلم ـ: لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتصيرن كفاراً مثلنا. وحينئذ يندفع السؤال. أو يسلم استعمال العود بمعنى الرجوع إلى أمر سابق. ويجاب عن ذلك بمثل الجواب عن قوله تعالى ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ والإخراج يستدعي دخولاً سابقاً فيما وقع الإخراج منه، ونحن نعلم أن المؤمن الناشئ في الإيمان لم يدخل قط في ظلمة الكفر ولا كان فيها. وكذلك الكافر الأصلي لم يدخل قط في نور الإيمان ولا كان فيه، ولكن لما كان الإيمان والكفر من الأفعال الاختيارية التي خلق الله العبد متيسراً لكل واحد منهما متمكناً منه لو أراده. فعبر عن تمكن المؤمن من الكفر ثم عدوله عنه إلى الإيمان إخباراً بالإخراج من الظلمات إلى النور. توفيقاً من الله له ولطفاً به. وبالعكس في حق الكافر، وقد مضى نظير هذا النظر عند قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ وهو من المجاز المعبر فيه عن السبب بالمسبب. وفائدة اختياره في هذه المواضع تحقيق التمكن والاختيار لإقامة حجة الله على عباده، والله أعلم.

قومه، إلا أنه نظم نفسه في جملتهم، وإن كان بريئاً من ذلك؛ إجراء لكلامه على حكم التغليب.

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، والله ـ تعالى ـ متعال أن يشاء ردّة المؤمنين[1]، وعودهم/ ٢٤٧أ في الكفر[2]؟

قلت: معناه إلا أن يشاء الله خذلاننا ومنعنا الألطاف، لعلمه أنها لا تنفع فينا، وتكون عبثاً، والعبث: قبيح لا يفعله الحكيم، والدليل عليه قوله: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾، أي: هو عالم بكل شيء مما كان وما يكون، فهو يعلم أحوال عباده كيف تتحوّل، وقلوبهم كيف تتقلب، وكيف تقسو بعد الرقة، وتمرض بعد الصحة، وترجع إلى الكفر بعد الإيمان، ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾: في أن يثبتنا على الإيمان، ويوفقنا لازدياد الإيقان، ويجوز أن يكون قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾: حسماً لطمعهم[3] في العود؛ لأن مشيئة الله لعودهم في الكفر محال خارج عن الحكمة[4]، ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾: الهمزة: للاستفهام، والواو: واو الحال، تقديره: أتعيدوننا في ملتكم في حال كراهتنا، ومع كوننا كارهين، وما يكون لنا، وما ينبغي لنا، وما يصح لنا، ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا﴾: احكم بيننا، و«الفتاحة»: الحكومة، أو أظهر أمرنا حتى يتفتح ما بيننا، ﴿وَبَيْنَ قَوْمِنَا﴾: وينكشف بأن تنزل عليهم عذاباً يتبين معه أنهم على الباطل، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾؛ كقوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يوسف: ٨٠].

فإن قلت: كيف أسلوب قوله: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم﴾؟

---

(١) قوله: «والله تعالى متعال أن يشاء ردة المؤمنين» أي تنزه عن أن يشاء... إلخ، على مذهب المعتزلة أنه تعالى لا يريد الشر. أما عند أهل السنة فيريده كالخير.

(٢) قال محمود: «إن قلت: الله تعالى مقدس عن أن يشاء ردة المؤمنين وعودهم إلى الكفر... إلخ». قال أحمد: وهذا السؤال كما ترى مفرع على القاعدة الفاسدة، في اعتقاد وجوب رعاية الصلاح والأصلح، وهو غير موجه على قاعدة السنة، فظاهر الآية هو المعول عليه لا يجوز تأويله ولا تبديله. وأما استدلال الزمخشري على صحة تأويله بقوله: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ فمن احتيالاته في التأويلات الباطلة، يعضدها ويتبع الشبه ويلفقها. وموقع قوله: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ الاعتراف بالقصور عن علم العاقبة والاطلاع على الأمور الغائبة، فإن العود إلى الكفر جائز في قدرة الله أن يقع من العبد، ولو وقع فبقدرة الله ومشيئته المغيبة عن خلقه، فالحذر قائم والخوف لازم، ولكن لمن وفقه الله تعالى للعقيدة الصحيحة والإيمان السالم، والله الموفق. ونظيره قول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ لما رد الأمر إلى المشيئة وهي مغيبة مجد الله تعالى بالانفراد بعلم الغائبات، والله أعلم.

(٣) عاد كلامه. قال: ويجوز أن يكون المراد حسم طمعهم... إلخ، قال أحمد: وهذا من الطراز الأول، فألحقه به، وسحقاً سحقاً.

(٤) قوله: «محال خارج عن الحكمة» مبني على مذهب المعتزلة أيضاً.

قلت: هو إخبار مقيد بالشرط، وفيه وجهان: أحدهما: أن يكون كلاماً مستأنفاً فيه معنى التعجب، كأنهم قالوا: ما أكذبنا على الله إن عدنا في الكفر بعد الإسلام؛ لأنّ المرتد أبلغ في الافتراء من الكافر؛ لأنّ الكافر مُفْتَرٍ على الله الكذب؛ حيث يزعم أنّ لله نداً ولا ندّ له، والمرتدّ مثله في ذلك وزائد عليه؛ حيث يزعم أنه قد تبين له ما خفي عليه من التمييز بين الحق والباطل.

والثاني: أن يكون قسماً على تقدير حذف اللام، بمعنى: والله لقد افترينا على الله كذباً.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ أي: أشرافهم للذين دونهم يثبطونهم عن الإيمان، ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾: لاستبدالكم الضلالة بالهدى؛ كقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ [البقرة: ١٦]، وقيل: تخسرون باتباعه فوائد البخس والتطفيف؛ لأنه ينهاكم عنهما، ويحملكم على الإيفاء والتسوية.

فإن قلت: ما جواب القسم الذي وطأته اللام في: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا﴾، وجواب الشرط؟

قلت: قوله: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾، سادّ مسدّ الجوابين[1]، ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا﴾: مبتدأ خبره، ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾، وكذلك: ﴿كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، وفي هذا الابتداء معنى الاختصاص، كأنه قيل: الذين اتبعوا شعيباً قد أنجاهم الله، الذين كذبوا شعيباً هم

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «والذي قاله النحويون: إنّ جواب الشرط محذوف؛ لدلالة جواب القسم عليه، ولذلك وجب مضي فعل الشرط، فإنْ عنى بأنه سادٌّ مسدَّهما: أنه اجتزئ بذكره عن ذكر جواب الشرط، فهو قريب، وإنْ عنى من حيث الصناعةُ النحويةُ، فليس كما زعم، لأن الجملة يمتنع ألاّ يكون لها محل من الإعراب، وأن يكون لها محل من الإعراب». قُلْتُ: قد تقدمت هذه المسألة مراراً، واعتراض الشيخ عليه، وتقدم الجواب عنه، فلا أعيده اكتفاء بما تقدم. ويعني الشيخ بقوله: لأن الجملة يمتنع ألاّ يكون لها محل من الإعراب إلى آخره: «أنها من حيث كونُها جواباً للشرط يستدعي أن يكون لها محل من الإعراب، وهو الجزم، ومن حيث كونها جواباً للقسم يستدعي ألا يكون لها محل؛ إذ الجملة التي هي جواب القسم لا محل لها، لأنها من الجمل المستأنفة المبتدأ بها، وقد تقرر أن الجملة الابتدائية لا محل لها. انتهى. الدر المصون.

المخصوصون بأن أهلكوا واستؤصلوا؛ كأن لم يقيموا في دارهم؛ لأن الذين اتبعوا شعيباً قد أنجاهم الله ﴿الذين كذبوا شعيباً﴾ هم المخصوصون بالخسران العظيم، دون أتباعه/ ٢٤٧ب فإنهم الرابحون، وفي هذا الاستئناف والابتداء وهذا التكرير: مبالغة في ردّ مقالة الملإ لأشياعهم، وتسفيه لرأيهم، واستهزاء بنصحهم لقومهم، واستعظام لما جرى عليهم.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾

الأسى: شدّة الحزن؛ قال العجاج: [من الرجز]

وَٱنْحَلَبَتْ عَيْنَاهُ مِنْ فَرَطِ الأَسَى

اشتدّ حزنه على قومه، ثم أنكر على نفسه، فقال: فكيف يشتدّ حزني على قوم ليسوا بأهل للحزن عليهم؛ لكفرهم، واستحقاقهم ما نزل بهم، ويجوز أن يريد: لقد أعذرت إليكم في الإبلاغ، والنصيحة، والتحذير مما حلّ بكم، فلم تسمعوا قولي، ولم تصدقوني، فكيف آسى عليكم؟ يعني: أنه لا يأسى عليهم؛ لأنهم ليسوا أحقاء بالأسى.

وقرأ يحيى بن وثاب: «فكيف إيسى»، بكسر الهمزة.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾

﴿إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ﴾: بالبؤس والفقر، ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾: بالضر، والمرض؛ لاستكبارهم عن اتباع نبيهم، وتعززهم عليه، ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾: ليتضرعوا، ويتذللوا، ويحطوا أردية الكبر والعزة، ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾ أي: أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء، والمحنة، والرخاء، والصحة، والسعة؛ كقوله ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨]، ﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾: كثروا ونموا في أنفسهم وأموالهم، من قولهم: عفا النبات، وعفا الشحم والوبر: إذا كثرت؛ ومنه قوله ـ ﷺ ـ: «وَأَعْفُوا اللُّحَى» (٦٠٩).

وقال الحطيئة: [من الطويل]

بِمُسْتَأْسِدِ القِرْيَانِ عَافَ نَبَاتُهُ[1] .....

---

٦٠٩ ـ تقدم في سورة البقرة. انتهى.

---

(١) فإن نظرت يوماً بمؤخر عينها إلى علم في الغور قالت أبعد =

وقال: [من الوافر]

وَلٰكِنَّا نَعُضُّ السَّيْفَ مِنْهَا بِأَسْوُقِ عَافِيَاتِ الشَّحْمِ كُومِ[1]

﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا الضَّرَّآءُ وَالسَّرَّآءُ﴾ يعني: وأبطرتهم النعمة، وأشروا، فقالوا: هذه عادة الدهر، يعاقب في الناس بين الضراء والسراء، وقد مس آباءنا نحو ذلك، وما هو بابتلاء من الله لعباده، فلم يبق بعد ابتلائهم بالسيئات والحسنات إلا أن نأخذهم بالعذاب،

= بأرض ترى فرخ الحبارى كأنها بها راكب موف على ظهر قردد

بمستأسد القريان عاف نباته تساقطني والرحل من صوت هدهد

للحطيئة. ومؤخر العين ـ كمؤمن ـ: جانبها. والعلم: الجبل والعلامة في الطريق. والغور: الموضع الغائر المنخفض. وقالت له «أبعد» مجاز عن تركها إياه بسرعة، فيبعد عنها. والحبارى: طير يهوى الجبال، وفرخها يسمي النهار. وفرخ الكروان يسمي الليل. والموفي: المشرف. والقردد ـ كهدهد ـ المكان الغليظ المرتفع. والمستأسد: النبات القوي الغليظ الطويل، كما سمي السبع أسداً لقوته. والقريان ـ بالضم ـ جمع قرى كفعيل: مجرى الماء الذي يجمعه إلى الروض. والعافي الكثير، يصف ناقته بسرعة السير وأنها لخوفها في ذلك الطريق لا تتمكن من تمام النظر إلى أعلامه، فإذا لمحت فيه شبحاً أسرعت مبعدة عنه في أرض مجهل، كأن فرخ الحبارى فيها راكب مشرف فوق مكان مرتفع. وقوله: «بمستأسد» بدل من قوله: «بأرض، أو متعلق بتساقطني. والمعنى: أنه لا فرق عندها بين الحزن والسهل في نبات الغدران حال كثرته» ترميني مع رحلها لسرعة سيرها من خوفها من صوت هدهد واحد. وعلى الأول، تساقطني حال من فاعل «قالت» أو جواب الشرط، وقالت له: أبعد، صفة علم. وعبر بالتساقط، لأن المعنى: كلما تمكنت حركتني، حتى أكاد أسقط.

ينظر: ديوانه (١٩)، الدر المصون (٣/٣٠٧).

(١) إذا ما درها لم يقر ضيفا ضمن له قراه من الشحوم

فلا تتجاوز العطلات منها إلى البكر المعازب والكزوم

ولكنا نعض السيف منها بأسوق عافيات الشحم كوم

للبيد بن ربيعة العامري. يقول: إذا لم يكف در النوق في قرى الضيف، كان قراه من شحومها، فأسند القرى إلى اللبن لأنه آلته أو سببه. وإسناد الضمان إلى نوق الإبل مجاز أيضاً، لأنها محل المضمون. والفعلان في الحقيقة لمالك الإبل. والمراد: أنها معدة لذلك إما بلبنها أو شحمها. والعضلة: الحسنة السمينة. والبكر: الفتي من الإبل ذكراً أو أنثى. والمعازب المهزول، من عزب إذا أبعد. والمعزابة والمعزاب: الذي طالت عزوبته وبعده؛ لعدم نسله أو لبعده عن البيوت، فكأنه بمعنى المباعد في الأصل، ثم أريد به المهزول مجازاً. والكزم بالزاي القصر. ومنه: كزم ككتف. وأكزم وكزما، فالكزوم كصبور القصيرة. وقيل المسنة التي قصر مشفرها الأسفل عن الأعلى. أو التي لم يبق لها سن من الهرم. وكزمه أيضاً إذا كسره بمقدم فمه. ويجوز أن المعازب بالفتح جمع: معزاب أو معزابة، فيكون البكر مستعملاً في معنى الجمع، أي لا تترك الوسط السمان من الإبل ذاهبين إلى الصغار المهازيل والمسنات البالغات في الهرم، ولكنا نجعل السيف يعض منها، بأسوق جمع ساق مضاف إلى عافيات، أي: كثيرات الشحم لتركها من العمل سنة أو سنتين. والكوم جمع كوماء، أي: عظيمات الأسنمة مرتفعاتها.

ينظر: ديوانه ١٨٦، اللسان (عطل)، (عفا)، الدر المصون ٣/٣٠٨.

﴿فَأَخَذْنَاهُم﴾: أشد الأخذ وأفظعه، وهو أخذهم فجأة من غير شعور منهم.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾

اللام في القرى: إشارة إلى القرى التي دل عليها قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ﴾ [الأعراف: ٩٤]، كأنه قال: ولو أنّ أهل تلك القرى الذين كذبوا وأهلكوا، ﴿ءَامَنُوا۟﴾: بدل كفرهم، ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾: المعاصي مكان ارتكابها، ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾: لآتيناهم بالخير من كل وجه، وقيل: أراد المطر والنبات، ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم﴾: بسوء كسبهم، ويجوز أن تكون اللام في القرى للجنس.

فإن قلت: ما معنى فتح البركات عليهم؟

قلت: تيسيرها عليهم كما ييسر أمر الأبواب المستغلقة بفتحها، ومنه قولهم: فتحت على القارىء، إذا تعذرت عليه القراءة فيسرتها عليه بالتلقين.

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾

«البيات»: يكون بمعنى البيتوتة، يقال: بات بياتاً؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤]، وقد يكون بمعنى التبييت، كالسلام بمعنى التسليم، يقال: بيته العدو/ ٢٤٨أ بياتاً، فيجوز أن يراد: أن يأتيهم بأسنا بائتين، أو وقت بيات، أو مبيتاً، أو مبيتين، أو يكون بمعنى تبييتاً، كأنه قيل: أن يبيتهم بأسنا بياتاً، و﴿ضُحًى﴾: نصب على الظرف، يقال: أتانا ضحى، وضحيا، وضحاء، والضحى ـ في الأصل ـ: اسم لضوء الشمس إذا أشرقت، وارتفعت، والفاء والواو في: ﴿أَفَأَمِنَ﴾، و﴿أَوَ أَمِنَ﴾: حرفا عطف دخلت عليهما همزة الإنكار.

فإن قلت: ما المعطوف عليه؟ ولم عطفت الأولى بالفاء والثانية بالواو؟

قلت: المعطوف عليه قوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ إلى ﴿يكسبون﴾ وقع اعتراضاً بين المعطوف والمعطوف عليه، وإنما عطف بالفاء؛ لأنّ المعنى: فعلوا، وصنعوا، فأخذناهم بغتة، أبعد ذلك أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً، وأمنوا أن يأتيهم بأسنا ضحى؟

وقرىء: «أو أمن»، على العطف بـ «أو»، ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾: يشتغلون بما لا يجدي عليهم كأنهم يلعبون.

﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾

فإن قلت: فلم رجع فعطف بالفاء قوله: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾؟

قلت: هو تكرير لقوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾، ومكر الله: استعارة لأخذه العبد من حيث لا يشعر، ولاستدراجه، فعلى العاقل أن يكون في خوفه من مكر الله، كالمحارب الذي يخاف من عدوّه الكمين، والبيات، والغيلة، وعن الربيع بن خثيم، أن ابنته قالت له: مالي أرى الناس ينامون، ولا أراك تنام، فقال: يا بنتاه، إنّ أباك يخاف البيات، أراد قوله: ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا﴾ [الأعراف: ٩٧].

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

إذا قرىء: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ بالياء، كان ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ﴾: مرفوعاً بأنه فاعله، بمعنى: أو لم يهد للذين يخلفون، من خلا قبلهم في ديارهم، ويرثون أرضهم هذا الشأن، وهو أنا لو نشاء أصبناهم بذنوبهم، كما أصبنا من قبلهم، وأهلكنا الوارثين كما أهلكنا المورّثين، وإذا قرىء بالنون، فهو منصوب؛ كأنه قيل: أو لم يهد الله للوارثين هذا الشأن، بمعنى: أو لم نبين لهم أنا، ﴿لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾: كما أصبنا من قبلهم، وإنما عدّي فعل الهداية باللام؛ لأنه بمعنى التبيين.

فإن قلت: بم تعلق قوله تعالى: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[1]؟

---

(١) قال محمود: «إن قلت بم يتعلق قوله ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾... إلخ» قال أحمد: بل يجوز والله عطفه عليه، ولا يلزم أن يكون المخاطبون موصوفين بالطبع، ولا يضرهم إن كانوا كفاراً أو مقترفين للذنوب، فليس الطبع من لوازم اقتراف الذنب ولا بد، إذ الطبع هو التمادي على الكفر والإصرار والغلو في التصميم، حتى يكون الموصوف به مأيوساً من قبوله للحق. ولا يلزم أن يكون كل كافر بهذه المثابة. بل إن الكافر يهدد من تماديه على كفرهم بأن يطبع الله على قلبه، فلا يؤمن أبداً، وهو مقتضى العطف على أصبناهم، فتكون الآية قد هددتهم بأمرين، أحدهما: الإصابة ببعض ذنوبهم، والآخر الطبع على قلوبهم. وهذا الثاني أشد من الأول، وهو أيضاً نوع من الإصابة بالذنوب أو العقوبة عليها، ولكنه أنكى العذاب وأبلغ صنوف العقاب. وكثيراً ما يعاقب الله على الذنب بالإيقاع في ذنب أكبر منه وعلى الكفر بزيادة التصميم عليه والغلو فيه، كما قال تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ كما زادت المؤمنين إيماناً إلى إيمانهم. وهذا النوع من الثواب والعقاب مناسب لما كان سبباً فيه وجزاء عليه، فثواب الإيمان إيمان وثواب الكفر كفر. وإنما الزمخشري يحاذر من هذا الوجه دخول الطبع في مشيئة الله تعالى. وذلك عنده محال؛ لأنه قبيح والله عنه متعال، وأنى يتم الفرار من الحق. وكم من آية صرحت بوقوع الطبع من الله، فضلاً عن تعلق المشيئة به.

قلت: فيه أوجه: أن يكون معطوفاً على ما دلّ عليه معنى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾؛ كأنه قيل: يغفلون عن الهداية، ونطبع على قلوبهم، أو على يرثون الأرض، أو يكون منقطعاً بمعنى: ونحن نطبع على قلوبهم.

فإن قلت: هل يجوز أن يكون: «ونطبع» بمعنى «وطبعنا»، كما: (لو نشاء) بمعنى: لو شئنا، ويعطف على أصبناهم؟

قلت: لا يساعد عليه المعنى؛ لأن القوم كانوا مطبوعاً على قلوبهم، موصوفين بصفة من قبلهم من اقتراف الذنوب والإصابة بها، وهذا التفسير يؤدي إلى خلوهم عن هذه الصفة، وأن الله ـ تعالى ـ لو شاء لاتصفوا بها.

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ﴾/ ٢٤٨ب؛ كقوله: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢] في أنه مبتدأ، وخبر، وحال، ويجوز أن يكون: (القرى): صفة لـ (تلك)، و(نقص): خبراً وأن يكون: (القرى نقص): خبراً بعد خبر.

فإن قلت: ما معنى: (تلك القرى) حتى يكون كلاماً مفيداً؟

قلت: هو مفيد، ولكن بشرط التقييد بالحال، كما يفيد بشرط التقييد بالصفة في قولك: هو الرجل الكريم.

فإن قلت: ما معنى الإخبار عن القرى بنقص عليك من أنبائها؟

قلت: معناه: أن تلك القرى المذكورة نقص عليك بعض أنبائها، ولها أنباء غيرها لم نقصها عليك، ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾؛ عند مجيء الرسل بالبينات بما كذبوه من آيات الله من قبل مجيء الرسل، أو فما كانوا ليؤمنوا إلى آخر أعمارهم بما كذبوا به أوّلاً حين جاءتهم الرسل، أي: استمروا على التكذيب من لدن مجيء الرسل إليهم إلى أن ماتوا مصرّين، لا يرعوون ولا تلين شكيمتهم في كفرهم وعنادهم مع تكرر المواعظ عليهم، وتتابع الآيات، ومعنى اللام: تأكيد النفي، وأنّ الإيمان كان منافياً لحالهم في التصميم على الكفر، وعن مجاهد: هو كقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] ﴿كَذَٰلِكَ﴾: مثل ذلك الطبع الشديد نطبع على قلوب الكافرين.

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾: الضمير للناس على الإطلاق، أي: وما وجدنا لأكثر الناس من عهد، يعني: أنّ أكثرهم نقض عهد الله، وميثاقه في الإيمان والتقوى، ﴿وَإِن وَجَدْنَآ﴾: وإنّ الشأن والحديث وجدنا أكثرهم فاسقين، خارجين عن الطاعة مارقين، والآية: اعتراض[1]، ويجوز أن يرجع الضمير إلى الأمم المذكورين، وأنهم كانوا إذا عاهدوا الله في ضرّ ومخافة، لئن أنجيتنا لنؤمننّ، ثم نجاهم نكثوا كما قال قوم فرعون لموسى ـ عليه السلام ـ: لئن كشفت عنا الرجز لنؤمننّ لك، إلى قوله: ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٥]، والوجود بمعنى: العلم من قولك: وجدت زيداً ذا الحفاظ؛ بدليل دخول «إن» المخففة، واللام الفارقة، ولا يسوغ ذلك إلا في المبتدأ والخبر، والأفعال الداخلة عليهما.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾

﴿مِنۢ بَعْدِهِم﴾: الضمير للرسل في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ [الأعراف: ١٠١]، أو للأمم، ﴿فَظَلَمُوا۟﴾: فكفروا بآياتنا، أجرى الظلم مجرى الكفر؛ لأنهما من واد واحد، ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، أو فظلموا الناس بسببها حين أوعدوهم وصدّوهم عنها، وآذوا من آمن بها؛ ولأنه إذا وجب الإيمان بها فكفروا بدل الإيمان، كان كفرهم بها ظلماً؛ فلذلك قيل: فظلموا بها، أي: كفروا بها واضعين الكفر غير موضعه، وهو موضع الإيمان، يقال لملوك مصر: «الفراعنة»، كما يقال لملوك فارس: «الأكاسرة»، فكأنه قال: يا ملك مصر، وكان اسمه «قابوس»، وقيل: «الوليد بن مصعب بن الريان»، ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾: فيه أربع قراءات، المشهورة: «وحقيق/ ٢٤٩أ عليّ أن لا أقول»[2]، وهي قراءة نافع، «وحقيق أن لا أقول»، وهي قراءة عبد الله، و«حقيق بأن لا

---

(١) قال السمين الحلبي: وفيه نظر؛ لأنه إذا كان الأول عاما، ثم ذُكر شيء يندرج فيه ما بعده وما قبله، كيف يُجْعَل ذلك العام معترضاً بين الخاصين، وأيضاً فالنحويون إنما يُعَرِّفون الاعتراض فيما اعترض به بين متلازمين، إلا أن أهل البيان عندهم الاعتراض أعم من ذلك، حتى إذا أتى بشيء بين شيئين مذكورين في قصة واحدة سموه اعتراضاً. انتهى. الدر المصون.

(٢) قال محمود: «فيه أربع قراءات، المشهورة: وحقيق عليّ أن لا أقول. . . إلخ» قال أحمد: القلب يستعمل في اللغة على وجهين، أحدهما: قلب الحقيقة إلى المجاز لوجه من المبالغة كقوله [من الطويل]:

. . . . . وتشقى الرماح بالضياطرة الحمر

وكقوله [من البسيط]:

قد صرح السر عن كتمان ما ابتذلت ... وضع المحاجن بالمهرية الدقن =

أقول» وهي قراءة أبيّ، وفي المشهورة إشكال، ولا تخلو من وجوه.

أحدها: أن تكون مما يقلب من الكلام لأمن الإلباس؛ كقوله [من الطويل]

. . . . . وَتَشْقَى الرِّمَاحُ بِالضَّيَاطِرَةِ الْحُمْرِ[1]

ومعناه: وتشقى الضياطرة بالرماح، «وحقيق عليّ أن لا أقول»، وهي قراءة نافع.

= فالحقيقة أن الضياطرة تشقى بالرماح، والمهرية تبتذل بالمحاجن، فعدل عن ذلك تنبيهاً على أن الرماح قدتنفصل وتنقصف في أجوافهم، فعبر عن ذلك بالشقاء، وأن المحاجن كثيراً ما ترفع وتوضع وتستعمل في ضرب المهرية، وربما تمزقت عن ذلك فجعل ذلك ابتذالاً لها، وقد حام أبو الطيب حول هذا النوع كثيراً في أمثال قوله [من البسيط]:

والسيف يشقى كما تشقى الضلوع به ... وللسيوف كما للناس آجال

والمراد بشقاء السيف: انقطاعه في أضلاع المضروب، كما صرح بذلك في قوله [من الطويل]:

طوال الرديني ات يقصفها دمي ... وبيض السريجيات يقطعها لحمي

الوجه الثاني: قلب معرى عن هذا المعنى البليغ، ولذلك لا يستفصح، كقولهم: خرق الثوب المسمار وأشباهه، وعلى الوجه الأول الأفصح جاءت الآية على هذه القراءة، وهو الوجه الرابع من وجوه الزمخشري، وفي طيه من المبالغة ما نبهت عليه. وأما الوجه الثاني وهو «أن ما لزمك فقد لزمته» ففيه نظر من حيث أن اللزوم قد يكون من أحد الطرفين دون الآخر، ولزوم موسى عليه السلام لقول الحق من هذا النمط، وأما الوجه الثالث فلا يلائم بين القراءتين، وقد ذكر لها وجه خامس: وهو أن يكون «على» بمعنى الباء، ونقل «رميت على القوس» بمعنى رميت بالقوس، وهو وجه حسن ملائم، والله أعلم. ويشهد له قراءة أبي: حقيق بأن لا أقول.

(١) كذبتم وبيت الله حين تعالجوا ... قوادم حرب لا تلين ولا تمري

نزلت بخيل لا هوادة بينها ... وتشقى الرماح بالضياطرة الحمر

لخداش بن زهير، يقول لقومه: كذبتم وحق بيت الله: في دعواكم إمكان الصلح، وهذا يعلم ضمناً من قوله: «حين تعالجوا»، أو استعار الكذب للخطأ في الظن أو الرأي، أي أخطأتم في ممارستكم الجماعات القادمات الحرب لأجل الصلح. ويشبه أن يكون قوله: «تعالجوا» محرفاً، وأصله بالصاد والحاء بدل العين والجيم، وعلى كل فحذف نونه للوزن أو للتخفيف، و«لا تلين» صفة قوادم. وأمرت الناقة: در لبنها، شبه الرضاء بالصلح بأمر الناقة. على طريق التصريح، ثم نفاه وبين ذلك بقوله: «نزلت بخيل» أي في أصحاب خيل. ويحتمل أن الخيل مجاز عن الفرسان، أو كناية عنهم. وروي «وتلحق خيل» فهو عطف على «لا تلين» أي: وتسرع خيل منها. والهوادة: الصلح والبقية من القوم يرجى بها صلاحهم، والمعنى أنهم لا يرجى صلحهم. وتشقى: أي تتعب الرماح بسبب الضياطرة، وهو من باب القلب لا من اللبس. والمعنى: وتشقى الضياطرة بالرماح. والضيطر: الضخم الجبان. وقياس جمعه ضياطير، إلا أنه عوض الهاء من الياء. والحمر عند العرب: كناية عن العجم، لأنها تصف الحسن بالأخضر، والقبيح بالأحمر. والمعنى: تتعب ضياطرتهم من حمل رماحهم. ويجوز أن المراد من طعن رماحنا. ويحتمل أن لا قلب، وأنه بالغ في ضخمهم، حتى كأن الرماح تتعب من طعنهم، لكن الأول هو المنقول. والمعنى: لا تصالحوهم بل نحاربهم.
ينظر: الأضداد ١٥٣، لسان العرب (ضطر)، أمالي المرتضي ١/ ٤٦٦، سر صناعة الإعراب ١/ ٣٢٣، والصاحبي في فقه اللغة ص ٢٠٣، الدر المصون ٣/ ٣١٤.

والثاني: أنّ ما لزمك فقد لزمته، فلما كان قول الحق حقيقاً عليه، كان هو حقيقاً على قول الحق، أي: لازماً له.

والثالث: أن يضمن: (حقيق) معنى حريص، كما ضمن: «هيجني» معنى ذكرني في بيت الكتاب.

والرابع ـ وهو الأوجه ـ الأدخل في نكت القرآن: أن يعرق موسى[1] في وصف نفسه بالصدق في ذلك المقام، لا سيما وقد روي أنّ عدو الله فرعون قال له ـ لما قال: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾، كذبت، فيقول: أنا حقيق على قول الحق، أي: واجب عليّ قول الحق أن أكون أنا قائله، والقائم به، ولا يرضى إلا بمثلي ناطقاً به، ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾: فخلهم حتى يذهبوا معي، راجعين إلى الأرض المقدّسة التي هي وطنهم ومولد آبائهم، وذلك أن يوسف ـ عليه السلام ـ لما توفي، وانقرضت الأسباط، غلب فرعون نسلهم، واستعبدهم، فأنقذهم الله بموسى ـ عليه السلام ـ وكان بين اليوم الذي دخل يوسف مصر واليوم الذي دخله موسى أربعمائة عام.

﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

فإن قلت: كيف قال له: ﴿فَأْتِ بِهَا﴾ بعد قوله: ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ﴾؟

قلت: معناه إن كنت جئت من عند من أرسلك بآية، فأتني بها، وأحضرها عندي، لتصح دعواك، ويثبت صدقك، ﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾: ظاهر أمره لا يشك في أنه ثعبان، وروي أنه كان ثعباناً ذكراً، أشعر، فاغراً فاه[2]، بين لحييه ثمانون ذراعاً، وضع لحيه الأسفل في الأرض، ولحيه الأعلى على سور القصر، ثم توجه نحو فرعون ليأخذه، فوثب فرعون من سريره، وهرب، وأحدث، ولم يكن أحدث قبل ذلك، وهرب الناس وصاحوا، وحمل على الناس فانهزموا فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً، قتل بعضهم بعضاً، ودخل فرعون البيت وصاح: يا موسى، خذه، وأنا أؤمن بك، وأرسل معك بني إسرائيل، فأخذه موسى فعاد عصى.

فإن قلت: بم يتعلق: ﴿لِلنَّاظِرِينَ﴾؟

---

(١) قوله: «أن يعرق موسى» لعله: يغرق بالمعجمة. وفي الصحاح. أغرق النازع في القوس، أي استوفى مدها.

(٢) قوله: «فاغراً فاه» أي فاتحاً فاه.

قلت: يتعلق بـ «بيضاء»، والمعنى: فإذا هي بيضاء للنظارة، ولا تكون بيضاء للنظارة إلا إذا كان بياضها بياضاً عجيباً، خارجاً عن العادة، يجتمع الناس للنظر إليه، كما تجتمع النظارة للعجائب؛ وذلك ما يروى أنه أرى فرعون يده وقال: ما هذه؟ قال: يدك، ثم أدخلها جيبه، وعليه/ ٢٤٩ب مدرعة صوف ونزعها، فإذا هي بيضاء بياضاً نورانياً، غلب شعاعها شعاع الشمس، وكان موسى ـ عليه السلام ـ آدم شديد الأدمة.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾

﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي: عالم بالسحر، ماهر فيه، قد أخذ عيون الناس بخدعة من خدعه، حتى خيل إليهم العصى حية، والآدم أبيض.

فإن قلت: قد عزى هذا الكلام إلى فرعون في سورة الشعراء، وأنه قاله للملإ وعزى ههنا إليهم.

قلت: قد قاله هو، وقالوه هم، فحكى قوله ثم وقولهم ههنا، أو قاله ابتداء فتلقته منه الملأ، فقالوه لأعقابهم، أو قالوه عنه للناس على طريق التبليغ، كما يفعل الملوك: يرى الواحد منهم الرأي، فيكلم به من يليه من الخاصة، ثم تبلغه الخاصة العامة، والدليل عليه أنهم أجابوه في قولهم: ﴿أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين يأتوك بكل ساحر عليم﴾، وقرىء: «سحار»، أي: يأتوك بكل ساحر مثله في العلم والمهارة، أو بخير منه، وكانت هذه مؤامرة مع القبط، وقولهم: (فماذا تأمرون): من أمرته فأمرني بكذا، إذا شاورته، فأشار عليك برأي، وقيل: فماذا تأمرون؟ من كلام فرعون، قاله للملأ لما قالوا له: إن هذا لساحر عليم، يريد أن يخرجكم، كأنه قيل: فماذا تأمرون؟ قالوا: أرجئه وأخاه، ومعنى أرجئه وأخاه: أخرهما، وأصدرهما عنك، حتى ترى رأيك فيهما، وتدبر أمرهما، وقيل: احبسهما، وقرىء: «أرجئه»، بالهمزة، «وأرجه»، من أرجأه وأرجاه.

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾

فإن قلت: هلا قيل: وجاء السحرة فرعون فقالوا؟

قلت: هو على تقدير سائل سأل: ما قالوا إذ جاؤوه؟ فأجيب بقوله: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا

لَأَجْرًا﴾ أي: جُعلا على الغلبة، وقرىء: «إن لنا لأجراً»، على الإخبار، وإثبات الأجر العظيم، وإيجابه؛ كأنهم قالوا: لا بد لنا من أجر، والتنكير للتعظيم؛ كقول العرب: إنّ له لإبلاً، وإنّ له لغنماً، يقصدون الكثرة.

فإن قلت: ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾، ما الذي عطف عليه؟

قلت: هو معطوف على محذوف سدّ مسدّه حرف الإيجاب؛ كأنه قال إيجاباً لقولهم: إن لنا لأجراً، نعم إن لكم لأجراً، وإنكم لمن المقرّبين، أراد: إني لأقتصر بكم على الثواب وحده، وإنّ لكم مع الثواب ما يقل معه الثواب، وهو التقريب والتعظيم؛ لأنّ المثاب إنما يتهنأ بما يصل إليه ويغتبط به إذا نال معه الكرامة والرفعة.

وروي أنه قال لهم: تكونون أول من يدخل وآخر من يخرج، وروي أنه دعا برؤساء السحرة، ومعلميهم، فقال لهم: ما صنعتم؟ قالوا: قد علمنا سحراً لا يطيقه سحرة أهل الأرض، إلا أن يكون أمراً من السماء؛ فإنه لا طاقة لنا به، وروي أنهم كانوا ثمانين ألفاً، وقيل: سبعين ألفاً، وقيل: بضعة وثلاثين ألفاً، واختلفت الروايات، فمن مقل ومن مكثر، وقيل: كان يعلمهم مجوسيان من أهل نينوى، وقيل: قال فرعون: لا نغالب موسى إلا بما هو منه، يعني السحر.

﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَـٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

تخييرهم/ ٢٥٠أ إياه أدب حسن راعوه معه، كما يفعل أهل الصناعات إذا التقوا كالمتناظرين، قبل أن يتخاوضوا في الجدال، والمتصارعين قبل أن يتآخذوا للصراع، وقولهم: ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾: فيه ما يدل على رغبتهم في أن يلقوا قبله من تأكيد ضميرهم المتصل بالمنفصل، وتعريف الخبر، أو تعريف الخبر، وإقحام الفصل، وقد سوّغ لهم موسى ما تراغبوا فيه؛ ازدراء لشأنهم، وقلة مبالاة بهم، وثقة بما كان بصدده من التأييد السماوي، وأنّ المعجزة لن يغلبها سحر أبداً، ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾: أروها بالحيل والشعوذة[1]، وخيلوا إليها ما الحقيقة بخلافه؛ كقوله تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا

(١) قال محمود: «معناه أروها بالحيل والشعوذة... إلخ» قال أحمد: معتقد المعتزلة إنكار وجود =

تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦]. روي أنهم ألقوا حبالاً غلاظاً، وخشباً طوالاً، فإذا هي أمثال الحيات، قد ملأت الأرض، وركب بعضها بعضاً، ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾: وأرهبوهم إرهاباً شديداً، كأنهم استدعوا رهبتهم، ﴿بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾: في باب السحر، روي أنهم لونوا حبالهم وخشبهم، وجعلوا فيها ما يوهم الحركة، قيل: جعلوا فيها الزئبق ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾: «ما» موصولة أو مصدرية، بمعنى: ما يأفكونه، أي: يقلبونه عن الحق إلى الباطل ويزوّرونه، أو إفكهم، تسمية للمأفوك بالإفك، روي أنها لما تلقفت ملء الوادي من الخشب، والحبال، ورفعها موسى، فرجعت عصى كما كانت، وأعدم الله بقدرته تلك الأجرام العظيمة، أو فرّقها أجزاء لطيفة، قالت للسحرة: لو كان هذا سحراً، لبقيت حبالنا وعصينا، ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾: فحصل وثبت، ومن بدع التفاسير: «فوقع قلوبهم» أي: فأثر فيها من قولهم، قاس وقيع، ﴿وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ﴾: وصاروا أذلاء مبهوتين، ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ﴾[1]: وخرّوا سجداً، كأنما

= السحر والشياطين والجن في خبط طويل لهم. ومعتقد أهل السنة إقرارها الظواهر على ما هي عليه، لأن العقل لا يحيل وجود ذلك. وقد ورد السمع بوقوعه، فوجب الإقرار بوجوده، ولا يمنع عند أهل السنة أن يرقى الساحر في الهواء، ويستدق فيتولج في الكوة الضيقة، ولا يمنع أن يفعل الله عند إرشاد الساحر ما يستأثر الاقتدار عليه، وذلك واقع بقدرة الله ـ تعالى ـ عند إرشاد الساحر. هذا هو الحق والمعتقد الصدق، وإنما أجريت هذا الفصل لأن كلام الزمخشري لا يخلو من رمز إلى إنكاره، إلا أن هذا النص القاطع بوقوعه يلجمه عن التصريح بالدفاع وكشف القناع، ولا يدعه التصميم على اعتقاد المعتزلة من التنفيس عما في نفسه، فيسميه شعوذة وحيلة. وبالقطع يعلم أن الشعوذة لا تعلم في يد ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ حتى بكوعها، ولا تؤثر في سيد البشر حتى يخيل إليه أنه يأتي نساءه وهو لا يأتيهن. وقد ورد ذلك وأمثاله مستفيضاً واقعاً، فالعمدة أن كل واقع فبقدرة الله تعالى، فلا يمتنع أن يوقع تعالى بقدرته عند إرشاد الساحر أعاجيب يضل بها من يشاء ويهدي من يشاء، والله الموفق.

(١) عند قوله ـ تعالى ـ ﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ نلاحظ استعمال الفعل «ألقى» بالبناء للمجهول والمفسر العلامة له مبحث دقيق في استعمالات الأفعال ومقاماتها وخلاصة ذلك:
أن الأفعال: ماض، مضارع، أمر، وأهم هذه الأفعال هو المضارع لأن له زمنين الحال والاستقبال، وله صورتان عند النحاة: الإعراب والبناء، أما الماضي والأمر فلهما زمان واحد وحالة واحدة عند أرباب النحو وهي البناء.
وقد اهتم البلاغيون بهذه الصيغ ومواقعها في صورة الكلام. فلا يليق بالمقام إلا ما يناسبه، فلا يوضع الماضي موضع المضارع إلا لنكتة بلاغية، والعكس كذلك.
وكذلك إذا استعملت صيغة الماضي ثلاثين مرة ورباعية أو خماسية مرة أخرى فذلك لتولد المعاني التي يدعو إليها المقام ويقتضيها سياق الكلام، وهذه عجالة يعدها تطبيق على بعض الآيات من خلال كلام المفسر العلامة في النقاط الآتية:
١ ـ صيغة المضارع تعطينا صورة الحدث حاضراً أمامك مصوراً تراه العين وتسمعه الأذن إذا كان المقام يقتضي ذلك كقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾ [ص: ١٨] فانظر إلى الفعل «يسبحن» ودلالته على حدوث التسبيح شيئاً فشيئاً. =

ألقاهم ملق؛ لشدّة خرورهم، وقيل: لم يتمالكوا مما رأوا، فكأنهم ألقوا، وعن قتادة:

= هذا، وعلينا أن نقف مع قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ [الملك: ١٩]. فالطيران بصف الأجنحة دائماً ولهذا جاء المعنى بالاسم، والقبض طارئ متجدد فجاء بالمضارع، فلكل كلمة موقعها على المعنى المقصود، فالآية وصف صادق لحال الطير في طيرانه.

٢ ـ قد يأتي المضارع لكان ليفيد حكاية الحال الماضية واستحضار الصورة، لأن الفعل له خصوصية وتميز، فكأنه حاصل ماضياً وحالاً ومستقبلاً، وهذا ما لحظه المفسر العلامة في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ﴾ [فاطر: ٩] فانظر إلى الفعل «أرسل» الماضي ثم يأتي المضارع «تثير» لاستحضار صورة الإثارة لأن السحاب لا يقع منذ الغيب إلا بعد إثارته بالرياح وتحركه إلى أماكن الإغاثة، وجاء الفعل «فسقناه» بالماضي ليفيد التوكيد على رحمة الله بعباده، ونسب السوق إليه لذلك فهذا الفسق يبين الأفعال ـ أرسل، تثير، فسقناه، لا بد منه لتتم الصورة المرادة.

ويلحظ هذا الاستعمال في قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ فعند التكذيب جاء الماضي «كذبتم» وعند القتل يأتي المضارع «تقتلون» لتنطيع الأمر.

٣ ـ ويأتي المضارع مرة أخرى موقع الماضي ليفيد الاستمرار في الحدث بمعونة المقام مع الفارق بين معنى الاستمرار في الاسم ومثله في المضارع هنا، وهذا ما نراه عند قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات: ٧] ففي قوله: «لو يطيعكم» استمرار عدم طاعته، فلا قصد لماض ولا لاستقبال.

ويتضح هذا المعنى ـ أيضاً ـ في قوله ـ سبحانه ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحج: ٣٥] فالصدود منهم مستمر دائم وقد يلحظ فرق بين الاستمرارين في الآيتين لأن الصدَّ لا تتخلله فترات انقطاع بخلاف الطاعة لهم من رسوله ﷺ.

وهذا ما تراه أيضاً عند قوله ـ تعالى ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج: ٦٣] فالخضرة متجددة باقية زماناً بعد زمان.

مع دراسة الأفعال وصيغتها المضارعية من خلال الآيات نلحظ أسراراً في هذا الكتاب المعجز.

٥ ـ صيغة «الماضي» تفيد الوقوع والتحقق، والقرآن الكريم حينما يختار صيغة ويؤثرها على أخرى ليعطينا أن هذه الصيغة لها دلالة لا تؤدي بسواها؛ فصيغة «فعَّل» بتشديد العين تدل على التدرج والتنجيم كما فهم المفسر العلامة عند قوله ـ تعالى ـ ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣] فهذا رد على قولهم ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ وكان الجواب ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢] وجواب سورة البقرة بهذا الفعل «نزلنا» يفيد أنهم لو وقفوا أمام سورة منه لعجزوا أن يأتوا بمثلها فكيف بالقرآن جميعه، بهذا يفيد المفسرون.

ويفرق بين صيغة «فعَل» «وافتعل» في قوله ـ تعالى ـ ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ فالكسب في الخير لا يحتاج إلى جهد لأنه يتفق مع الإنسان بطبيعته، وأما الاكتساب فإن النفس الأمارة بالسوء تميل إليه، ثم يحاول المرء بكل ما يستطيع أن يصل إليه، ولهذا كان الشر اكتساباً، فالأولى «كسبت» والثانية «اكتسبت» ليفيد كل ما يحتاج إليه مقامه.

٦ ـ الفعل المبني للمجهول له مواقعه الأدبية، وانظر إليه في قصة نبي الله موسى مع السحرة الذين اجتلبهم فرعون فسحرهم، وأكد لهم عطاءه إن كانوا هم الغالبين، فلما رأوا آية موسى واستيقنوها خروا سجداً ـ سبحانه ـ ويصور القرآن هذه المفاجأة وهذه السرعة في الانقياد والتسليم فيقول ـ =

كانوا أول النهار كفاراً سحرة، وفي آخره شهداء بررة، وعن الحسن. تراه ولد في الإسلام، ونشأ بين المسلمين، يبيع دينه بكذا وكذا، وهؤلاء كفار نشأوا في الكفر، بذلوا أنفسهم لله.

= سبحانه ـ: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الأعراف ١١٨ ـ ١٢٠] فانظر إلى هذا الأمر الوارد في صورة المبني للمجهول «وألقي»، فهذا الفعل يدل على أنه كأنه جاءهم أمر وإلغاء ملق لشدة خرورهم، ويستوحي المفسر هذا البناء بمعناه من قوله ـ تعالى ـ ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [هود: ٤٤] وهذه الآية بين فيها المفسر العلامة ما في الأفعال الماضية المبنية للمفعول من دلالة على الجلال والكبرياء، وأن فاعلها قادر قاهر، وهو واحد لا شريك له، وهو الله وحده يفعل ذلك.

٧ ـ وقد يأتي الفعل الماضي بعد أفعال مضارعة أمراً هاما يلفت النظر إلى هؤلاء الفاعلين، وهذا ما أبرزه المفسر عند قوله ـ تعالى ـ ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الممتحنة: ٢].

فالأفعال: «يثقفوكم، يكونوا، ويبسطوا» مضارعة تفيد التصوير للحرث، ثم الفعل ماضياً مبنيا للمعلوم «وودوا» دون «يودوا» لأنهم يريدون أن يلحقوا بكم كل مضار الحياة، ولكنهم يريدون أن ترتدوا كفارا قبل كل هذه المضار لأن ضرر الدين أسبق هذه المضار، والعدو يختار لعدوه أعز شيء لديه فيحاول طعنه فيه. ولهذا السر جاء «وودوا لو تكفرون» بهذه الصيغة.

وقد يقع الماضي موضع المضارع ليفيد تحقق الوقوع كقوله ـ تعالى ـ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾ وهذا الفتح لم يأت بعد ولكنه يريد بيان تحققه.

بهذا البيان يكون بعث الأفعال في هذا التفسير قد أخذ إشارة بلاغية لمعرفة مكامن المعاني في ظلال المباني، والبحث في جميع أفعال القرآن في مواقعها لبيان أسرارها في حاجة إلى درس متأن طويل ليخرج لنا زادا طيباً لمن أراد أن يتذكر أو أراد شكوراً، والحمد لله...

هذا وللإمام عبد القاهر كلام نفيس في نحو هذا الموقع، ويعيده كلما سنحت الفرصة وجاء المقام بأسلوب آخر للبيان والتوكيد، فيقول:

«وإذا قد عرفت أن مدار أمر النظم على معاني النحو، وعلى الوجوه والفروق التي من شأنها أن تكون فيه، فاعلم أن الفروق والوجوه كثيرة ليس لها غاية تقف عندها، ونهاية لا تجد لها ازدياداً بعدها.

ثم اعلم أن ليست المزية بواجبة لها في أنفسها، ومن حيث هي على الإطلاق، ولكن تعرض بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام، ثم بحسب موقع بعضها من بعض واستعمال بعضها مع بعض...».

«ينظر دلائل الإعجاز للشيخ عبد القاهر الجرجاني ـ تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي ١٢٣ وما بعدها. والبلاغة القرآنية لأبي موسى ٢٧٩ وما بعدها، والمطول للسعد ١٧١ وما بعدها، والإيضاح للقزويني بتحقيق خفاجي ٢/ ١٣٣، ١٣٤، والمنهاج الواضح في البلاغة لحامد عوني ٨٤، وحاشية السيد الشريف على المطول ٣٧٥، وفتح القدير للشوكاني ١/ ٤٤، والفتوحات الإلهية للجمل ٣/ ٦٠، وروح المعاني للألوسي ١٦/ ٨٩، ٩٠، ومفاتيح الغيب ١٠/ ٤٤٢: ٤٥٢ وتفسير أبي السعود ٢/ ٢٨٥.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾

﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾: على الإخبار، أي: فعلتم هذا الفعل الشنيع، توبيخاً لهم وتقريعاً.

وقرىء: «آامنتم»، بحرف الاستفهام، ومعناه: الإنكار، والإستبعاد، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾: إن صنعكم هذا لحيلة احتلتموها أنتم وموسى في مصر قبل أن تخرجوا منه إلى هذه الصحراء، قد تواطأتم على ذلك لغرض لكم، وهو أن تخرجوا منها القبط وتسكنوها بني إسرائيل، وكان هذا الكلام من فرعون؛ تمويهاً على الناس لئلا يتبعوا السحرة في الإيمان، وروي أن موسى ـ عليه السلام ـ قال للساحر الأكبر: أتؤمن بي إن غلبتك؟ قال: لآتين بسحر لا يغلبه سحر، وإن غلبتني/ ٢٥٠ب لأؤمنن بك، وفرعون يسمع، فلذلك قال ما قال، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: وعيد أجمله ثم فصله بقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ﴾، وقرىء: «لأَقْطَعَنَّ» بالتخفيف، وكذلك: ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾، ﴿مِّنْ خِلَٰفٍ﴾: من كل شق طرفاً، وقيل: إن أوّل من قطع من خلاف وصلب لفرعون.

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾

﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾: فيه أوجه، أن يريدوا: إنا لا نبالي بالموت، لانقلابنا إلى لقاء ربنا، ورحمته، وخلاصنا منك، ومن لقائك، أو ننقلب إلى الله يوم الجزاء، فيثيبنا على شدائد القطع والصلب، أو إنا جميعاً ـ يعنون أنفسهم ـ وفرعون ننقلب إلى الله فيحكم بيننا، أو إنا لا محالة ميتون منقلبون إلى الله، فما تقدر أن تفعل بنا إلا ما لا بد لنا منه، ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا﴾: وما تعيب منا إلا الإيمان بآيات الله، أرادوا: وما تعيب منا إلا ما هو أصل المناقب والمفاخر كلها، وهو الإيمان؛ ومنه قوله [من الطويل]:

وَلاَ عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ(١) ....

---

(١) على عرفات للطعان عوابس ... بهن كلوم بين دام وجالب
إذا استنزلوا للطعن عنهن أرقلوا ... إلى الموت إرقال الجمال المصاعب
ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

للنابغة الذبياني يصف فرساناً على أفراس عارفات صابرات عوابس كوالح، فيهن جروح رطبة بالدم، وأخر يابسة، عليها جلبة، أي قشرة. وإذا التحم القتال واقتضى الحال نزولهم عن الخيل، أسرعوا نازلين عنهن بائعين أعمارهم، كإسراع الجمال المصاعب، جمع مصعب. تقول: أصعبت الجمل إذا تركته عن العمل حتى صار صعباً شديداً. والفلول انثلامات في حد السيف. والقراع: المضاربة. =

﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾: هب لنا صبراً واسعاً وأكثره علينا، حتى يفيض علينا ويغمرنا، كما يفرغ الماء فراغاً، وعن بعض السلف: إن أحدكم ليفرغ على أخيه ذنوباً ثم يقول: قد مازحتك، أي: يغمره بالحياء والخجل، أو صب علينا ما يطهرنا من أوضار الآثام، وهو الصبر على ما توعدنا به فرعون؛ لأنهم علموا أنهم إذا استقاموا وصبروا، كان ذلك مطهرة لهم، ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾: ثابتين على الإسلام.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

﴿وَيَذَرَكَ﴾: عطف على: (يفسدوا)؛ لأنه إذا تركهم ولم يمنعهم، وكان ذلك مؤدّياً إلى ما دعوه فساداً، وإلى تركه، وترك آلهته، فكأنه تركهم لذلك، أو هو جواب للاستفهام بالواو، كما يجاب بالفاء؛ نحو قول الحطيئة [من الوافر]:

أَلَمْ أَكُ جَارَكُمْ وَيَكُونَ بَيْنِي ... وَبَيْنَكُمُ الْمَوَدَّةُ وَالإِخَاءُ[1]

والنصب بإضمار «أن» تقديره: أيكون منك ترك موسى، ويكون تركه إياك وآلهتك.

وقرىء: «ويذرك وآلهتك» بالرفع عطفاً على أتذر موسى، بمعنى: أتذره وأيذرك، يعني: تطلق له ذلك، أو يكون مستأنفاً أو حالاً على معنى: أتذره، وهو يذرك وآلهتك.

وقرأ الحسن: «ويذرك» بالجزم، كأنه قيل: يفسدوا، كما قرىء: ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ كأنه قيل: أصدّق، وقرأ أنس ـ رضي الله عنه ـ: «ونذرك»، بالنون والنصب، أي: يصرفنا عن عبادتك فنذرها.

وقرىء: ويذرك وإلاهتك، أي: عبادتك، وروي أنهم قالوا له ذلك؛ لأنه وافق السحرة على الإيمان ستمائة ألف نفس، فأرادوا بالفساد في الأرض ذلك، وخافوا أن يغلبوا على الملك، وقيل: صنع فرعون لقومه أصناماً وأمرهم أن يعبدوها؛ تقرباً إليه، كما يعبد عبدة الأصنام الأصنام، ويقولون: ليقربونا إلى الله زلفى، ولذلك قال: «أنا ربكم

= والكتائب: الجماعات، والبيت من استتباع المدح بما يشبه الذم، أي إن كانت فلول السيف من ذلك عيباً، فأثبته، وهي ليست عيباً فلا عيب فيهم قط. وهو مبالغة في المدح.

ينظر ديوانه ص ٤٤، والأزهية ص ١٨٠، وإصلاح المنطق ص ٢٤، وخزانة الأدب ٣/ ٣٢٧، ٣٣١، ٣٣٤، والدرر ٣/ ١٧٣، وشرح شواهد المغني ص ٣٤٩، والكتاب ٢/ ٣٢٦، ومعاهد التنصيص ٣/ ١٠٧، وهمع الهوامع ١/ ٢٣٢، وبلا نسبة في الصاحبي في فقه اللغة ص ٢٦٧، ولسان العرب (قرع)، (فلل)، ومغني اللبيب ص ١١٤.

(١) تقدم شرح هذا الشاهد.

الأعلى»، ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ﴾/ ٢٥١أ يعني: سنعيد عليهم ما كنا محناهم به من قتل الأبناء، ليعلموا أنا على ما كنا عليه من الغلبة والقهر، وأنهم مقهورون تحت أيدينا كما كانوا، وأن غلبة موسى لا أثر لها في ملكنا واستيلائنا، ولئلا يتوهم العامة أنه هو المولود الذي أخبر المنجمون والكهنة بذهاب ملكنا على يده، فيثبطهم ذلك عن طاعتنا، ويدعوهم إلى اتباعه، وأنه منتظر بعد.

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ﴾: قال لهم ذلك ـ حين قال فرعون: سنقتل أبناءهم فجزعوا منه وتضجروا ـ يسكنهم، وتسليهم، ويعدهم النصرة عليهم، ويذكر لهم ما وعد الله بني إسرائيل من إهلاك القبط، وتوريثهم أرضهم وديارهم.

فإن قلت: لم أخليت هذه الجملة عن الواو، وأدخلت على التي قبلها؟

قلت: هي جملة مبتدأة مستأنفة، وأمّا: (وقال الملأ): فمعطوفة على ما سبقها من قوله: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ﴾: يجوز أن تكون اللام للعهد، ويراد أرض مصر خاصة؛ كقوله: ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ [الزمر: ٧٤] وأن تكون للجنس فيتناول أرض مصر؛ لأنها من جنس الأرض، كما قال ضمرة: إنما المرء بأصغريه، فأراد بالمرء الجنس، وغرضه أن يتناوله تناولاً أولياً، ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾: بشارة بأن الخاتمة المحمودة للمتقين منهم ومن القبط، وأن المشيئة متناولة لهم، وقرأ: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾: بالنصب: أبيّ وابن مسعود، عطفاً على الأرض.

﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾: يعنون قتل أبنائهم قبل مولد موسى ـ عليه السلام ـ إلى أن استنبىء، وإعادته عليهم بعد ذلك، وما كانوا يستعبدون به، ويمتهنون فيه من أنواع الخدم، والمهن، ويمسون به من العذاب، ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾: تصريح بما رمز إليه من البشارة قبل، وكشف عنه، وهو إهلاك فرعون، واستخلافهم بعده في أرض مصر، ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾: فيرى الكائن منكم من العمل حسنه، وقبيحه، وشكر النعمة، وكفرانها، ليجازيكم على حسب ما يوجد منكم، وعن عمرو بن عبيد ـ رحمه الله ـ أنه دخل على المنصور قبل الخلافة، وعلى مائدته رغيف أو رغيفان، فطلب زيادة لعمرو فلم توجد، فقرأ عمرو هذه الآية، ثم دخل عليه بعد ما استخلف، فذكر له ذلك، وقال: قد بقي فينظر كيف تعملون.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾

﴿بِٱلسِّنِينَ﴾: بسني القحط، و«السنة»: من الأسماء الغالبة كالدابة، والنجم، ونحو ذلك، وقد اشتقوا منها، فقالوا: أسنت القوم، بمعنى: أقحطوا، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: أما «السنون» فكانت لباديتهم وأهل مواشيهم، وأمّا «نقص الثمرات»: فكان في أمصارهم، وعن كعب: يأتي على الناس زمان لا تحمل النخلة إلا تمرة، ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾: فيتنبهوا على أن ذلك لإصرارهم/ ٢٥١ب على الكفر[1]، وتكذيبهم لآيات الله، ولأن الناس في حال الشدّة أضرع خدوداً، وألين أعطافاً، وأرق أفئدة، وقيل: عاش فرعون أربعمائة سنة، ولم ير مكروهاً في ثلثمائة وعشرين سنة، ولو أصابه في تلك المدّة، وجع أو جوع أو حمى لما ادعى الربوبية.

﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾

﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾: من الخصب والرخاء، ﴿قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾: أي: هذه مختصة بنا، ونحن مستحقوها، ولم نزل في النعمة والرفاهية، واللام مثلها في قولك؛ الجل للفرس، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾: من ضيقة وجدب، ﴿يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥ﴾: يتطيروا بهم، ويتشاءموا، ويقولوا: هذه بشؤمهم، ولولا مكانهم لما أصابتنا، كما قالت الكفرة لرسول الله ـ ﷺ ـ: هذه من عندك.

فإن قلت: كيف قيل؟ فإذا جاءتهم الحسنة بإذا وتعريف الحسنة[2]، وإن تصبهم سيئة بإنّ وتنكير السيئة؟

قلت: لأنّ جنس الحسنة، وقوعه كالواجب؛ لكثرته واتساعه، وأمّا السيئة فلا تقع إلا في الندرة، ولا يقع إلا شيء منها؛ ومنه قول بعضهم: قد عددت أيام البلاء، فهل عددت أيام الرخاء؟ ﴿طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: سبب خيرهم، وشرهم عند الله، وهو حكمه ومشيئته،

---

(١) قال محمود: «معنى لعلهم يذكرون: يتنبهون لأن ذلك كان لإصرارهم... إلخ» قال أحمد: دلت اللام على دعواهم استحقاق الحسنة. وأما دعوى اختصاصها بهم حتى لا يشركهم فيها أحد فدل عليه تقدير الخبر الذي هو لنا، وقد علمت طريقة المصنف في إسناده الحصر من تقديم ما حقه أن يؤخر كالمفعول والخبر ونحوه.

(٢) عاد كلامه. قال: فإن قلت: «كيف قيل فإذا جاءتهم الحسنة... إلخ» قال أحمد: وقد ورد: ﴿إِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ فلم يراع فرق ما بينهما، ولعل بين سياق الآيتين اختلافاً أوجب في كل واحد منهما ما ذكر فيه.

والله هو الذي يشاء ما يصيبهم من الحسنة والسيئة، وليس شؤم أحد ولا يمنه بسبب فيه؛ كقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨]، ويجوز أن يكون معناه: ألا إنما سبب شؤمهم عند الله، وهو عملهم المكتوب عنده الذي يجري عليهم ما يسوءهم لأجله، ويعاقبون له بعد موتهم بما وعدهم الله في قوله سبحانه: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا . . .﴾ [غافر: ٤٦]، الآية، ولا طائر أشأم من هذا.

وقرأ الحسن: «إنما طيركم عند الله»، وهو اسم لجمع طائر غير تكسير، ونظيره، التجر، والركب، وعند أبي الحسن: هو تكسير.

﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾

﴿وَمَهْمَا﴾: هي ما المضمنة معنى الجزاء[1]، ضمت إليها ما المزيدة المؤكدة للجزاء

---

(١) قال محمود: «مهما هي «ما» المضمنة معنى الجزاء ضمت إليها «ما» المزيدة المؤكدة للجزاء. . . إلخ» قال أحمد: والذي عده أولاً من كلام سيبويه، وسنذكره: قال سيبويه: وسألت الخليل عن مهما فقال: هي «ما» أدخلت معها «ما»، بلغو بمنزلتها مع متى، إذا قلت: متى ما تأتني حدثتك. انتهى كلام سيبويه. وكأن هذا القائل ـ والله أعلم ـ اغتر بتشبيه الخليل لها بمتى ما، فظنها في معناها. وإنما شبه الخليل بالثانية من مهما في لحاقها زائدة مؤكدة للأولى بما اللاحقة لمتى. عاد كلام سيبويه قال: ولكنهم استقبحوا تكرير لفظ واحد، فأبدلوا الهاء من الألف التي في الأولى انتهى نقله عن الخليل. قال سيبويه: ويجوز أن تكون كإذ ضمت إليها ما انتهى كلامه. قال أحمد: ومعنى تشبيه سيبويه لها بإذما أن الجزاء بجملة الكلمة لا بالجزء الأول منها خاصة وإلا لكان عين مذهب الخليل. والذي يحقق ذلك أن سيبويه قال أول هذا الباب: وأما «حيث» و«إذ» فلا يجازى بهما حتى يضم إليهما ما، فتصير إذ مع ما بمنزلة إنما وكأنما، وليست ما فيهما بلغو، ولكن كل واحدة منهما مع ما بمنزلة حرف واحد، فانظر قوله: وليست ما فيهما بلغو، يعني ليست زائدة مؤكدة، ولكن لها حظ في اقتضاء الجزاء حتى لا يفيده إلا اجتماع جزئي الكلمة ويبقى وراء ذلك نظر في أن سيبويه هل أراد أن «ما» ضمت إلى «مه» التي هي الصوت، أو إلى «ما» الجزائية. والظاهر من مراده أن انضمامها إلى الصوت، لأنها لو كانت منضمة إلى «ما» الجزائية، لكانت مستقلة بإفادة الجزاء قبل انضمام «ما» إليها، ولا تكون مثل إذا وحيث، ولا يكون تنظير سيبويه مطابقاً. وهذا الذي فهمه ابن طاهر وتبعه فيه تلميذه ابن خروف. وعزا ابن خروف هذا المذهب إلى سيبويه، ورد قول ابن بابشاذ أن هذا المذهب للخليل خاصة، وقد تواطأ ابن بابشاذ والزمخشري على نفي هذا المذهب عن سيبويه، وإعزائه إلى غيره. وأظهر ما قوى به مذهب الخليل ـ والله أعلم ـ أن هذه الكلمة استعملت في الاستفهام حسب استعمالها في الجزاء وأنشدوا [من الرجز]:

مهما لي الليلة مهما ليه ... أودى بنعلي وسربالية

أراد: مالي الليلة، ولا إشكال ههنا أنها «ما» الاستفهامية كررت تأكيداً، كما يقولون: لا لا، ونعم نعم، ثم استكره تكرار اللفظ بعينه، فقلبت ألف الأولى هاء. وقد جاء قلب الاستفهامية وإن لم يكن =

في قولك: متى ما تخرج أخرج، ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [النساء: ٧٨]، ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾: إلا أنّ الألف قلبت هاء استثقالاً لتكرير المتجانسين، وهو المذهب السديد البصري، ومن الناس من زعم أن «مه»: هي الصوت الذي يصوت به الكاف، و«ما» للجزاء، كأنه قيل: كف ما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين.

فإن قلت: ما محل مهما؟

قلت: الرفع بمعنى: أيما شيء تأتنا به، أو النصب، بمعنى: أيما شيء تحضرنا[1] تأتنا به، ومن آية: تبيين لمهما، والضميران في (به) و(بها): راجعان إلى مهما، إلا أنّ أحدهما ذكر على اللفظ، والثاني أنث على المعنى؛ لأنه في معنى الآية؛ ونحوه قول زهير [من الطويل]:

[وَمَهْمَا يَكُنْ عِنْدَ ٱمْرِىءٍ مِنْ خَلِيقَةٍ وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَىٰ عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ[2]

وهذه الكلمة في عداد الكلمات التي يحرفها من لا يد له في علم العربية، فيضعها غير موضعها، ويحسب مهما بمعنى متى ما، ويقول مهما جئتني/ ٢٥٢أ أعطيتك، وهذا من وضعه، وليس من كلام واضع العربية في شيء، ثم يذهب فيفسر: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ﴾: بمعنى الوقت، فيلحد في آيات الله، وهو لا يشعر، وهذا وأمثاله مما يوجب الجثوّ

= تكرار، فهو معه أجدر. وإذا وضح أن «مهما» الواقعة في الاستفهام أصلها «ما» مكررة، كان ذلك أوضح دليل على أن الواقعة في الجزاء كذلك، والاستشهاد بالنظائر أميز حجج العربية، والله أعلم. وأما رد الزمخشري على من زعم أنها بمعنى «متى ما» فرد صحيح، والآية أصدق شاهد على رده، فإن الضمير المجرور فيها عائد إلى مهما حتماً، وقد اتصل به مفسراً له قوله (من آية) دل على أن الضمير واقع على الآية، فلزم وقوع «مهما» عليها ضرورة إيجاد المرجع في المضمر ومظهره، فذهاب هذا القائل إلى إيقاع «مهما» على الوقت زاعماً أنها بمعنى «متى ما» ذهاب عن الصواب. وعذر الزمخشري واضح في الرد على تسجيله وإغلاظ النكير عليه، وتفويق سهام التشنيع إليه. فتأمل هذا الفصل، ففيه إنارة للسبيل، وشفاء للغليل، والله الموفق.

(١) قوله: «أيما شيء تحضرنا» لعله تحضر فقط.

(٢) لزهير بن أبي سلمى من معلقته. ومهما: اسم شرط بمعنى أي شيء على المختار، فلذلك يعود عليه الضمير، ثم إن كان المراد به مؤنثاً كما هنا، فتارة يعود عليه الضمير مذكراً باعتبار اللفظ كما في قوله: «يكن» وتارة مؤنثاً باعتبار المعنى كما في قوله: «وإن خالها» ولم يجعل هذا عائداً على الخليقة، لأن «مهما» هو المحدث عنه، و«من خليقة» بيان له. ولما بين بالمؤنث حسن تأنيث ضميره بعد بيانه. يقول: أي طبيعة وسجية تكون في الإنسان تعلم للناس بأماراتها، وإن ظنها خافية عليهم.
ينظر: ديوانه ص (٣٢)، الجنى الداني ص (٦١٢)، الدرر (٤/ ١٨٤)، (٥/ ٨٢)، شرح وشواهد المغني ص (٣٨٦)، (٧٣٨)، (٧٤٣)، وشرح قطر الندى ص (٣٧)، ومغني اللبيب ص (٣٣٠)، شرح الأشموني (٣/ ٥٧٩)، همع الهوامع (٢/ ٣٥، ٥٨).

بين يدي الناظر في كتاب سيبويه.

فإن قلت: كيف سموها آية، ثم قالوا لتسحرنا بها؟

قلت: ما سموها آية لاعتقادهم أنها آية؛ وإنما سموها اعتباراً لتسمية موسى، وقصدوا بذلك الاستهزاء، والتلهي، ﴿ٱلطُّوفَانَ﴾: ما طاف بهم، وغلبهم من مطر أو سيل، قيل: طغى الماء فوق حروثهم، وذلك أنهم مطروا ثمانية أيام في ظلمة شديدة، لا يرون شمساً ولا قمراً، ولا يقدر أحدهم أن يخرج من داره، وقيل: أرسل الله عليهم السماء حتى كادوا يهلكون، وبيوت بني إسرائيل وبيوت القبط مشتبكة، فامتلأت بيوت القبط ماء حتى قاموا في الماء إلى تراقيهم، فمن جلس غرق، ولم تدخل بيوت بني إسرائيل قطرة، وفاض الماء على وجه أرضهم، وركد فمنعهم من الحرث والبناء والتصرف، ودام عليهم سبعة أيام، وعن أبي قلابة: «الطوفان»: الجدري، وأهو أوّل عذاب وقع فيهم، فبقي في الأرض، وقيل: هو «الموتان»[1] وقيل: الطاعون، فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا ونحن نؤمن بك، فدعا فرفع عنهم، فما آمنوا، فنبت لهم تلك السنة من الكلأ والزرع ما لم يعهد بمثله، فأقاموا شهراً، فبعث الله عليهم الجراد فأكلت عامة زروعهم وثمارهم، ثم أكلت كل شيء حتى الأبواب، وسقوف البيوت، والثياب، ولم يدخل بيوت بني إسرائيل منها شيء، ففزعوا إلى موسى ووعدوه التوبة، فكشف عنهم بعد سبعة أيام: خرج موسى ـ عليه السلام ـ إلى الفضاء، فأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب، فرجع الجراد إلى النواحي التي جاء منها، فقالوا: ما نحن بتاركي ديننا فأقاموا شهراً، فسلط الله عليهم القُمَّلَ، وهو الحنان في قول أبي عبيدة كبار القردان، وقيل: الدبا، وهو أولاد الجراد، قيل: نبات أجنحتها، وقيل: البراغيث، وعن سعيد بن جبير: السوس، فأكل ما أبقاه الجراد، ولحس الأرض، وكان يدخل بين ثوب أحدهم وبين جلده فيمصه، وكان يأكل أحدهم طعاماً فيمتلىء قملاً، وكان يخرج أحدهم عشرة أجربة إلى الرحى فلا يرد منها إلا يسيراً، وعن سعيد بن جبير، أنه كان إلى جنبهم كثيب أعفر، فضربه موسى بعصاه، فصار قملاً، فأخذت في أبشارهم، وأشعارهم، وأشفار عيونهم وحواجبهم، ولزم جلودهم كأنه الجدري، فصاحوا، وصرخوا، وفزعوا إلى موسى، فرفع عنهم، فقالوا: قد تحققنا الآن أنك ساحر، وعزة فرعون لا نصدقك أبداً، فأرسل الله عليهم بعد شهر الضفادع، فدخلت بيوتهم، وامتلأت منه آنيتهم وأطعمتهم، ولا يكشف أحد شيئاً من ثوب، ولا طعام، ولا شراب إلا وجد فيه الضفادع، وكان الرجل إذا أراد أن يتكلم، وثبت/ ٢٥٢ب الضفدع إلى فيه، وكانت

---

(١) قوله: «وقيل هو الموتان» في الصحاح: الموتان ـ بالضم: موت يقع في الماشية. وفيه أيضاً: الطاعون الموت الوحي من الوباء. وفيه: الوحي، على فعيل: السريع.

تمتلىء منها مضاجعهم فلا يقدرون على الرقاد، وكانت تقذف بأنفسها في القدور وهي تغلي، وفي التنانير وهي تفور، فشكوا إلى موسى، وقالوا: ارحمنا هذه المرة، فما بقي إلا أن نتوب التوبة النصوح ولا نعود، فأخذ عليهم العهود، ودعا فكشف الله عنهم، ثم نقضوا العهد، فأرسل الله عليهم الدم، فصارت مياههم دماً، فشكوا إلى فرعون، فقال: إنه سحركم فكان يجمع بين القبطي والإسرائيلي على إناء واحد، فيكون ما يلي الإسرائيلي ماء، وما يلي القبطي دماً، ويستقيان من ماء واحد، فيخرج للقبطي الدم، وللإسرائيلي الماء، حتى إن المرأة القبطية تقول لجارتها الإسرائيلية: اجعلي الماء في فيك ثم مجيه في فيّ، فيصير الماء في فيها دماً، وعطش فرعون حتى أشفى على الهلاك، فكان يمص الأشجار الرطبة، فإذا مضغها صار ماؤها الطيب ملحاً أجاجاً، وعن سعيد بن المسيب: سال عليهم النيل دماً، وقيل: سلط الله عليهم الرعاف، وروي أنّ موسى ـ عليه السلام ـ مكث فيهم بعد ما غلب السحرة عشرين سنة يريهم هذه الآيات، وروي أنه لما أراهم اليد، والعصا، ونقص النفوس، والثمرات، قال: يا رب، إنّ عبدك هذا قد علا في الأرض، فخذه بعقوبة تجعلها له ولقومه نقمة، ولقومي عظة، ولمن بعدي آية، فيحنئذ بعث الله عليهم الطوفان، ثم الجراد، ثم ما بعده من النقم؛ وقرأ الحسن: «والقَمْلُ»، بفتح القاف وسكون الميم، يريد «القمل» المعروف، ﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾: نصب على الحال، ومعنى مفصلات: مبينات، ظاهرات، لا يشكل على عاقل أنها من آيات الله التي لا يقدر عليها غيره، وأنها عبرة لهم، ونقمة على كفرهم، أو فصل بين بعضها وبعض بزمان تمتحن فيه أحوالهم، وينظر أيستقيمون على ما وعدوا من أنفسهم، أم ينكثون؛ إلزاماً للحجة عليهم؟

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾

﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾: ما مصدرية، والمعنى بعهده عندك وهو النبوّة، والباء إمّا أن تتعلق بقوله: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ على وجهين: أحدهما أسعفنا إلى ما نطلب إليك من الدعاء لنا بحق ما عندك من عهد الله وكرامته بالنبوّة، أو ادع الله لنا متوسلاً إليه بعهده عندك، وإمّا أن يكون قسماً مجاباً بلنؤمنن، أي: أقسمنا بعهد الله عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمننّ لك، ﴿﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾ إلى حد من الزمن هم بالغوه، لا محالة فمعذبون فيه لا ينفعهم، ما تقدم لهم من الإمهال، وكشف العذاب إلى حلوله. ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾:

جواب «لما»، يعني: فلما كشفناه عنهم فاجأوا النكث، وبادروا لم يؤخروه، ولكن كما كشف عنهم نكثوا، ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾: فأردنا الانتقام منهم، ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ﴾، «واليم»: البحر الذي لا يدرك قعره، وقيل/ ٢٥٣أ: هو لجة البحر ومعظم مائه، واشتقاقه من التيمم؛ لأن المستنفعين به يقصدونه، ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: كان إغراقهم بسبب تكذيبهم بالآيات، وغفلتهم عنها، وقلة فكرهم فيها.

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾

﴿ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾: هم بنو إسرائيل، كان يستضعفهم فرعون وقومه، و«الأرض»: أرض مصر والشام، ملكها بنو إسرائيل بعد الفراعنة والعمالقة، وتصرفوا كيف شاءوا في أطرافها، ونواحيها الشرقية والغربية، ﴿بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ بالخصب وسعة الأرزاق ﴿كلمت ربك الحسنى﴾ قوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، إلى قوله: ﴿مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ والحسنى: تأنيث الأحسن صفة للكلمة، ومعنى «تمت على بني إسرائيل»: مضت عليهم، واستمرت من قولك: تمَّ على الأمر إذا مضى عليه، ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾: بسبب صبرهم، وحسبك به حاثاً على الصبر، ودالاً على أنَّ من قابل البلاء بالجزع وكله الله إليه، ومن قابله بالصبر، وانتظار النصر ضمن الله له الفرج، وعن الحسن: عجبت ممن خف كيف خف، وقد سمع قوله، وتلا الآية، ومعنى «خف»: طاش جزعاً وقلة صبر، ولم يرزن رزانة أولى الصبر، وقرأ عاصم في رواية: «وتمت كلمات ربك الحسنى»؛ ونظيره: ﴿مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ [النجم: ١٨]، ﴿مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾: ما كانوا يعملون، ويسوّون من العمارات وبناء القصور، ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾: من الجنات، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ﴾ [الأنعام: ١٤١]: أو وما كانوا يرفعون من الأبنية المشيدة في السماء، كصرح هامان وغيره.

وقرىء: «يعرشون»، بالكسر والضم، وذكر اليزيدي أن الكسر أفصح، وبلغني أنه قرأ بعض الناس: «يغرسون»، من غرس الأشجار، وما أحسبه إلا تصحيفاً منه.

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

وهذا آخر ما اختصّ الله من نبأ فرعون والقبط وتكذيبهم بآيات الله، وظلمهم،

ومعاصيهم ثم أتبعه اقتصاص نبأ بني إسرائيل وما أحدثوه ـ بعد إنقاذهم من ملكة فرعون واستعباده، ومعاينتهم الآيات العظام، ومجاوزتهم البحر ـ من عبادة البقر، وطلب رؤية الله جهرة، وغير ذلك من أنواع الكفر والمعاصي، وليعلم حال الإنسان، وأنه كما وصفه ظلوم، كفار، جهول، كنود، إلا من عصمه الله، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، وليسلي رسول الله ـ ﷺ ـ مما رأى من بني إسرائيل بالمدينة، وروي أنه عبر بهم موسى يوم عاشوراء بعد ما أهلك الله ـ تعالى ـ فرعون وقومه، فصاموه شكراً لله، تعالى، ﴿فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾: فمرّوا عليهم، ﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾: يواظبون على عبادتها ويلازمونها، قال ابن جريج: كانت تماثيل بقر: وذلك أوّل شأن العجل، وقيل: كانوا قوماً من لخم، وقيل: كانوا من الكنعانيين الذين أمر موسى ـ عليه السلام ـ بقتالهم،/ ٢٥٣ب وقرىء: «وجوّزنا»، بمعنى أجزنا، يقال: أجاز المكان وجوزه وجاوزه بمعنى جازه؛ كقولك: أعلاه وعلاه وعالاه؛ وقرىء: «يعكُفون»، بضم الكاف وكسرها ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾: صنماً نعكف عليه، ﴿كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾: أصنام يعكفون عليها، و«ما» كافة للكاف؛ ولذلك وقعت الجملة بعدها، وعن علي ـ رضي الله عنه ـ أنّ يهوديًا قال له: اختلفتم بعد نبيكم قبل أن يجفّ ماؤه، فقال: قلتم: اجعل لنا إلهاً قبل أن تجفّ أقدامكم، ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾: تعجب من قولهم على أثر ما رأوا من الآية العظمى والمعجزة الكبرى، فوصفهم بالجهل المطلق وأكده؛ لأنه لا جهل أعظم مما رأى منهم ولا أشنع، ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني: عبدة تلك التماثيل، ﴿مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾: مدمّر مكسر ما هم فيه، من قولهم: إناء متبر، إذا كان فضاضاً[1]، ويقال لكسار الذهب: التبر، قوله: يتبر الله، ويهدم دينهم الذي هم عليه على يدي، ويحطم أصنامهم هذه ويتركها رضاضاً، ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي: ما عملوا شيئاً من عبادتها فيما سلف إلا وهو باطل، مضمحل، لا ينتفعون به، وإن كان في زعمهم تقرباً إلى الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣]، وفي إيقاع (هؤلاء) اسماً لإن، وتقديم خبر المبتدأ من الجملة الواقعة خبراً لها وسم لعبدة الأصنام بأنهم هم المعرضون للتبار، وأنه لا يعدوهم ألبتة، وأنه لهم ضربة لازب، ليحذرهم عاقبة ما طلبوا، ويبغض إليهم ما أحبوا، ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾: أغير المستحق للعبادة أطلب لكم معبوداً، وهو فعل بكم ما فعل دون غيره، من الاختصاص بالنعمة التي لم يعطها أحداً غيركم، لتختصوه بالعبادة ولا تشركوا به غيره، ومعنى الهمزة: الإنكار والتعجب من طلبتهم ـ مع كونهم مغمورين في نعمة الله ـ عبادة غير الله.

---

(١) قوله: «فضاضا» أي فتاتا كالرضاض. أفاده الصحاح.

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾

﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾: يبغونكم شدّة العذاب، من سام السلعة إذا طلبها.

فإن قلت: ما محل يسومونكم؟

قلت: هو استئناف لا محلّ له، ويجوز أن يكون حالاً من المخاطبين أو من آل فرعون، و﴿ذَٰلِكُم مِّنْ﴾: إشارة إلى الإنجاء أو إلى العذاب، «والبلاء»: النعمة أو المحنة، وقرىء: يقتلون، بالتخفيف.

﴿۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾

وروي أن موسى ـ عليه السلام ـ وعد بني إسرائيل، وهو بمصر إن أهلك الله عدوّهم، أتاهم بكتاب من عند الله فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما هلك فرعون، سأل مُوسى ربه الكتاب، فأمره بصوم ثلاثين يوماً، وهو شهر ذي القعدة، فلما أتم الثلاثين، أنكر خلوف فيه فسوك، فقالت الملائكة: كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك.

وقيل: أوحى الله ـ تعالى ـ إليه: أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندي/ ٢٥٤أ من ريح المسك، فأمره الله ـ تعالى ـ أن يزيد عليها عشرة أيام من ذي الحجة لذلك.

وقيل: أمره الله أن يصوم ثلاثين يوماً، وأن يعمل فيها بما يقرّبه من الله، ثم أنزلت عليه التوراة في العشر وكلم فيها، ولقد أجمل ذكر الأربعين في سورة البقرة، وفصلها ههنا، و﴿مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ﴾: ما وقته له من الوقت وضربه له، و﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾: نصب على الحال، أي: تمّ بالغاً هذا العدد[1]، و﴿وَهَٰرُونَ﴾: عطف بيان لأخيه.

وقرىء: بالضم على النداء، ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى﴾: كن خليفتي فيهم، ﴿وَأَصْلِحْ﴾: وكن

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «فعلى هذا لا تكون الحال «أربعين»، بل الحال هذا المحذوف، فينافي قوله». قلتُ: لا تنافي فيه؛ لأن النحاة لم يزالوا ينسبون الحكم للمعمول الباقي بعد حذف عامله المنوب عنه، وله شواهد منها: زيد في الدار، أو عندك، فيقولون: الجار والظرف خبر، والخبر في الحقيقة إنما هو الحدث المقدر العامل فيهما، وكذا يقولون: جاء زيد بثيابه، فـ ثيابه حال، والحال إنما هو العامل فيه إلى غير ذلك. وقدره الفارسي بـ «معدوداً»، قال: كقولك: تمَّ القومُ عشرينَ رجلاً، أي: «معدودين هذا العدد». وهو تقدير حسن. انتهى. الدر المصون.

مصلحاً، أو: وأصلح ما يجب أن يصلح من أمور بني إسرائيل، ومن دعاك منهم إلى الإفساد، فلا تتبعه ولا تطعه.

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾

﴿لِمِيقَٰتِنَا﴾: لوقتنا الذي وقتنا له وحدّدنا، ومعنى «اللام»: الاختصاص، فكأنه قيل: واختص مجيئه بميقاتنا، كما تقول: أتيته لعشر خلون من الشهر، ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾: من غير واسطة[1]، كما يكلم الملك، وتكليمه: أن يخلق الكلام[2] منطوقاً به في بعض الأجرام، كما خلقه مخطوطاً في اللوح، وروي: أن موسى ـ عليه السلام ـ كان يسمع ذلك الكلام من كل جهة، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: كلمه أربعين يوماً، وأربعين ليلة، وكتب له الألواح. وقيل: إنما كلمه في أول الأربعين، ﴿أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾: ثاني مفعولي «أرني» محذوف[3]، أي: أرني نفسك أنظر إليك.

---

(١) قال محمود: «معناه كلمة من غير واسطة... إلخ» قال أحمد: وهذا تصريح منه بخلق الكلام، كما هو معتقد المعتزلة، والذي يخص به هذه الآية من وجوه الرد عليه: أنها سيقت مساق الامتنان على موسى باصطفاء الله له وتخصيصه إياه بتكليمه، وكذلك قال تعالى بعد آيات منها ﴿إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ فلو كان تكليم الله له بمعنى خلق الحروف والأصوات في بعض الأجرام واستماع موسى لذلك، لكان كل أحد يساوي موسى عليه السلام في ذلك، بل كان آحاد أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام آثر بهذه المزية وأحق بالخصوصية من موسى عليه السلام؛ لأنهم سمعوا الكلام على الوجه المذكور من أفضل الأجرام وأزكاها خلقاً في رسول الله ﷺ، وكانت مزيتهم أظهر وخصوصيتهم أوفر. ونحن نعلم ضرورة من سياق هذه الآية تمييز موسى عليه الصلاة والسلام بهذه المزية، فلا يحمل لذلك إلا اعتقاد أنه سمع الكلام القديم القائم بذات الله سبحانه وتعالى بلا واسطة دليل عليه من حروف ولا غيرها، وكما أجزنا من المعقول أن ترى ذات الباري سبحانه وتعالى وإن لم يكن جسماً، فكذلك نجيز أن يسمع كلامه وإن لم يكن حرفاً ولا صوتاً. والكلام في هذه العقيدة طويل، والشوط بطين. وهذه النكتة هي الخاصة بهذه الآية، والله الموفق.

(٢) قوله: «وتكليمه أن يخلق الكلام» هذا على مذهب المعتزلة: أن كلامه تعالى ألفاظ يخلقها الله في بعض الأجرام. أما على مذهب أهل السنة، فإن كلامه تعالى صفة قديمة قائمة بذاته، فتكليمه لعبده أن يكشف له عنها، كما تقرر في علم التوحيد.

(٣) عاد كلامه. قال: «وقوله أرني أنظر إليك محذوف المفعول الأول مذكور الثاني، والتقدير أرني نفسك أنظر إليك... إلخ» قال أحمد: ما أشد ما اضطرب كلامه في هذه الآية، لأن غرضه أن يدحض الحق بالضلالة، ويشين بكفه وجه الغزالة، هيهات قد تبين الصبح لذي عينين، فالحق أبلج لا يمازجه ريب إلا عند ذي رين. أما حظ المعقول من إجازة رؤية الله تعالى فوظيفة علم الكلام، =

فإن قلت: الرؤية عين النظر، فكيف قيل: أرني أنظر إليك؟

قلت: معنى أرني نفسك، اجعلني متمكناً من رؤيتك بأن تتجلى لي فأنظر إليك وأراك.

فإن قلت: فكيف قال: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾، ولم يقل: «لن تنظر إليّ»، لقوله: (أنظر إليك)؟

قلت: لما قال: (أرني) بمعنى: أجعلني متمكناً من الرؤية التي هي الإدراك، علم أن الطلبة هي الرؤية[1]، لا النظر الذي لا إدراك معه، فقيل: «لن تراني»، ولم يقل: «لن تنظر إليّ».

فإن قلت: كيف طلب موسى ـ عليه السلام ـ ذلك ـ وهو من أعلم الناس بالله وما يجوز عليه وما لا يجوز، وبتعاليه عن الرؤية التي هي إدراك ببعض الحواس، وذلك إنما يصحّ فيما كان في جهة، وما ليس بجسم، ولا عرض، فمحال أن يكون في جهة، ومنعُ المجبرة إحالته[2] في العقول غير لازم؛ لأنه ليس بأوّل مكابرتهم وارتكابهم، وكيف يكون

= وأخصر وجه في إجادة ذلك: أن الوجود مصحح الرؤية، بدليل أن جواز الرؤية حكم يستدعي مصححاً. وقد شمل الجواز الجوهر والعرض، ولا جامع بينهما يمكن جعله مصححاً سوى الوجود، وإذا كان الوجود هو المصحح فقد صحت رؤيته تعالى لوجوده. وأما استبعاد أن يرى ما ليس في جهة فأمر وهمي مثله عرض للمعطلة فعميت بصائرهم، حتى أنكروا موجوداً لا في جهة، ومن اتبع الأوهام اغتسق مهامه الضلال وهام، ولو كانت الرؤية تتوقف على جهة المرئي لكانت المعرفة تتوقف على جهة المعروف، ولا خلاف أنه سبحانه يعرف لا في جهة، فكذلك يرى لا في جهة، فالحق أن موسى عليه السلام إنما طلب الرؤية لنفسه، لعلمه بجواز ذلك على الله تعالى، والقدرية يجبرهم الطمع ويجرؤهم حتى يروموا أن يجعلوا موسى عليه السلام كان على معتقدهم، وما هم حينئذ إلا ممن آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً، وأما قوله عليه السلام: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ تبرياً من أفاعيلهم وتسفيهاً لهم وتضليلاً لرأيهم، فلا راحة للقدرية في الاستشهاد به على إنكار موسى عليه السلام لجواز الرؤية، فإن الذي كان الإهلاك بسببه إنما هو عبادة العجل في قول أكثر المفسرين ثم. وإن كان السبب طلبهم للرؤية، فليس لأنها غير جائزة على الله. ولكن لأن الله تعالى أخبر أنها لا تقع في دار الدنيا والخبر صدق، وذلك بعد سؤال موسى للرؤية فلما سألوا وقد سمعوا الخبر بعدم وقوعها، كان طلبهم خلاف المعلوم تكذيباً للخبر، فمن ثم سفههم موسى عليه السلام وتبرأ من طلب ما أخبر الله أنه لا يقع ثم، ولو كان سؤالهم الرؤية قبل إخبار الله تعالى بعدم وقوعها، فإنما سفههم موسى عليه السلام لاقتراحهم على الله هذه الآية الخاصة، وتوقيفهم الإيمان عليها حيث قالوا (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) ألا ترى أن قولهم ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ إنما سألوا فيه جائزاً، ومع ذلك قرعوا به لاقتراحهم على الله ما لا يتوقف وجوب الإيمان عليه، فهذه المباحث الثلاثة توضح لك سوء نظر الزمخشري بعين الهوى وعمايته عن سبيل الهدى، والله الموفق.

(١) قوله: «أن الطلبة هي الرؤية» في الصحاح «الطلبة» بكسر اللام: ما طلبته من شيء.

(٢) قوله: «ومنع المجبرة إحالته» يعني أهل السنة، حيث ذهبوا إلى جواز رؤيته تعالى ومنعوا اشتراط =

طالبه وقد قال ـ حين أخذت الرجفة الذين قالوا: أرنا الله جهرة ـ ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ إلى قوله: ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾: فتبرأ من فعلهم، ودعاهم سفهاء وضلالا ـ؟

قلت: ما كان طلب الرؤية إلا ليبكت هؤلاء الذين دعاهم سفهاء وضلالاً، وتبرأ من فعلهم، وليلقمهم الحجر؛ وذلك أنهم حين طلبوا الرؤية أنكر عليهم وأعلمهم الخطأ، ونبههم على الحق، فلجوا وتمادوا في لجاجهم وقالوا: لا بدَّ، ولن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فأراد أن يسمعوا النص من عند الله باستحالة ذلك، وهو قوله: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾: ليتيقنوا/ ٢٥٤ب وينزاح عنهم ما دخلهم من الشبهة؛ فلذلك قال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾.

فإن قلت: فهلا قال: أرهم ينظروا إليك[1]؟

قلت: لأنَّ الله سبحانه إنما كلم موسى ـ عليه السلام ـ وهم يسمعون، فلما سمعوا كلام رب العزة أرادوا أن يرى موسى ذاته فيبصروه معه، كما أسمعه كلامه فسمعوه معه؛ إرادة مبنية على قياس فاسد؛ فلذلك قال موسى: «أرني أنظر إليك»، ولأنه إذا زجر عما طلب، وأنكر عليه في نبوّته واختصاصه وزلفته عند الله ـ تعالى ـ وقيل له: لن يكون ذلك، كان غيره أولى بالإنكار، ولأنّ الرسول إمام أمته، فكان ما يخاطب به أو ما يخاطب راجعاً إليهم، وقوله: ﴿أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾، وما فيه من معنى المقابلة[2] التي هي محض التشبيه

= كون المرئي في جهة. قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ والجائز قد ينتفي في بعض الأوقات ويقع في بعض. والحديث كما سيأتي «سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر» ومحل الكلام علم الكلام.

(١) عاد كلامه. قال: فإن قلت: هلا قال أرهم ينظروا إليك... إلخ»؟ قال أحمد: وهذا الكلام الآخر من الطراز الأول، وأقرب شاهد على رده أنه لو كان طلب الرؤية لهم حتى إذا سمعوا منع الله تعالى لها أيقنوا أنها ممتنعة لكان طلبها عبثاً غير مفيد لهذا الغرض، لأن هؤلاء لا يخلو أمرهم. إما أن يكونوا مؤمنين بموسى، أو كفاراً به، فإن كانوا مؤمنين به، فإخباره إياهم بأن الله تعالى لا يرى ولا يجوز عليه ذلك، كاف في حصول المقصود من غير حاجة إلى أن يسأل موسى عليه السلام من الله أن يريه ذاته، على علم بأن ذلك محال. وإن كانوا كفاراً بموسى عليه السلام فلا يحصل الغرض من ذلك أيضاً؛ لأن الله تعالى إذا منعه مسؤوله من الرؤية، فإنما يثبت ذلك لهم بقول موسى عن الله تعالى أنه منعه ذلك، وهم كفار بموسى عليه السلام، فكيف يفيدهم غيره عن الله بامتناع ذلك؟ فهذا أوضح مصداق؛ لأن موسى عليه السلام إنما طلب الرؤية لنفسه اعتقاداً لجوازها على الله تعالى، فأخبره الله أن ذلك لا يقع في الدنيا إن كان جائزاً.

(٢) عاد كلامه: قال: «وقوله أنظر إليك وما فيه من معنى المقابلة... إلخ» قال أحمد: ودعواه أن النظر يستلزم الجسمية قد سلف ردها. وأما تنزيهه موسى عليه السلام بنسبة اعتقاد استحالة الرؤية إليه فهو غني عنه. وأما إقناعه في تفصيله برجحانه عليه السلام في العلم بالله وبصفاته على واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد والنظام وأبي الهذيل والشيخين، فهو نقص عن منصبه العلي، وأقل العوام المقلدين لأهل السنة، راجح عند الله على أصحاب البدع والأهواء، وإن ملؤا الأرض نفاقاً، وشحنوا =

والتجسيم، دليل على أنه ترجمة عن مقترحهم وحكاية لقولهم، وجل صاحب الجمل أن يجعل الله منظوراً إليه، مقابلاً بحاسة النظر، فكيف بمن هو أعرق في معرفة الله ـ تعالى ـ من واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، والنظام، وأبي الهذيل والشيخين، وجميع المتكلمين؟

فإن قلت: ما معنى: (لن)؟

قلت: تأكيد النفي الذي تعطيه: «لا»[1]، وذلك أن: «لا» تنفي المستقبل، تقول: لا أفعل غداً، فإذا أكدت نفيها، قلت: لن أفعل غداً، والمعنى: أنّ فعله ينافي حالي؛ كقوله: ﴿لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ [الحج: ٧٣]، فقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾: نفي للرؤية فيما يستقبل، ولن تراني تأكيد وبيان؛ لأنّ المنفي مناف لصفاته.

فإن قلت: كيف اتصل الاستدراك في قوله: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾ بما قبله؟

قلت: اتصل به على معنى أنّ النظر إليّ محال، فلاتطلبه، لكن عليك بنظر آخر: وهو أن تنظر إلى الجبل الذي يرجف بك، وبمن طلبت الرؤية لأجلهم، كيف أفعل به، وكيف أجعله دكًّا بسبب طلبك الرؤية؟ لتستعظم ما أقدمت عليه بما أريك من عظم أثره، كأنه ـ عزّ وعلا ـ حقق عند طلب الرؤية ما مثله عند نسبة الولد[2] إليه في قوله: ﴿وَيَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾ [مريم: ٩٠، ٩١]، ﴿فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ﴾: كما كان مستقراً ثابتاً ذاهباً[3] في جهاته، ﴿فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾: تعليق لوجود الرؤية بوجود ما لا يكون من استقرار

= مصنفاتهم عناداً لأهل السنة وشقاقاً، فكيف بكليم الله عليه أفضل الصلاة والسلام.

(١) عاد كلامه. قال: «فإن قلت ما معنى لن؟ قلت تأكيد النفي الذي تعطيه لا... إلخ» قال أحمد: «لن» كما قال تشارك «لا» في النفي وتمتاز بمزية تأكيده. وأما استنباط الزمخشري من ذلك منافاة الرؤية لحال الباري عز وجل، ثم إطلاق الحال على الله تعالى مما يستحرز عنه. واستشهاده على أن «لن» تشعر باستحالة المنفي بها عقلاً، مردود كثيراً بكثير من الآي، كقوله تعالى ﴿قُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾ فذلك لا يحيل خروجهم عقلاً، و﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾، ﴿لَن تَتَّبِعُونَا﴾. فهذه كلها جائزات عقلاً، لولا أن الخبر منع من وقوعها، فالرؤية كذلك.

(٢) عاد كلامه. قال: «ثم حقق تعالى عند طلب الرؤية ما مثله عند نسبة الولد... إلخ» قال أحمد: نسبة جواز الرؤية إلى الله تعالى عند الزمخشري كنسبة الولد إليه، وهذا مفرع على المعتقد السالف بطلانه، وليس له في هذا الفصل وظيفة إلا تتبع الشبه لامتناع الرؤية، تلقفها من كل فج. والحق أن دك الجبل إنما كان لأن الله عز وجل أظهر له آية من ملكوت السماء. ولا تستقر الدنيا لإظهار شيء من ملكوت السماء. وهذا هو المأثور عن السلف في هذه الآية. ومعناه عند أبي الحسن رحمه الله فعل فعلاً سماه تجلياً، وكان الغضب إما لأنهم طلبوا رؤية جسمانية في جهة، وإما لأنهم كتموا الخبر. بأنه لا يرى في الدنيا، وإما لأنهم كفروا بالاقتراح أو بالمجموع.

(٣) عاد كلامه: قال: «ومعنى فإن استقر مكانه: فإن ثبت كما كان ذاهباً... إلخ» قال أحمد: وهذا من =

الجبل مكانه حين يدكه دكًا ويسويه بالأرض، وهذا كلام مدمج بعضه في بعض، وارد على أسلوب عجيب ونمط بديع؛ ألا ترى كيف تخلص من النظر إلى النظر بكلمة الاستدراك؟ ثم كيف بني الوعيد بالرجفة الكائنة بسبب طلب النظر على الشريطة في وجود الرؤية؟ أعني قوله: ﴿فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾، ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾: فلما ظهر له اقتداره وتصدى له أمره وإرادته، ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ أي: مدكوكاً مصدر بمعنى مفعول كضرب الأمير، والدكّ والدقّ أخوان، كالشك والشق، وقرىء: «دكاء»،/ ٢٥٥أ والدكاء: اسم للرابية الناشزة من الأرض، كالدكة أو أرضاً دكاء مستوية، ومنه قولهم: ناقة دكاء متواضعة السنام، وعن الشعبي: قال لي الربيع بن خثيم: ابسط يدك دكاء، أي: مدّها مستوية، وقرأ يحيى بن وثاب: دكًا، أي: قطعاً، «دكًا»: جمع: دكاء، ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾: من هول ما رأى، وصعق من باب: فعلته ففعل، يقال: صعقته فصعق، وأصله: من الصاعقة، ويقال لها: «الصاقعة»، من صقعه إذا ضربه على رأسه، ومعناه: خرّ مغشياً عليه كالموت، وروي أنّ الملائكة مرّت عليه وهو مغشي عليه[1]، فجعلوا يلكزونه بأرجلهم، ويقولون: يا ابن النساء الحيض أطمعت في رؤية رب العزة؟ ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾: من صعقته، ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾: أنزهك مما لا يجوز عليك من الرؤية وغيرها، ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾: من طلب الرؤية، ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: بأنك لست بمرئيّ ولا مدرك بشيء من الحواس.

فإن قلت: فإن كان طلب الرؤية للغرض الذي ذكرته، فممّ تاب[2]؟

= حيل القدرية في إحالة الرؤية يقولون: قد علقها الله على شرط محال وهو استقرار الجبل حال دكه، والمعلق على المحال محال. وهذه حيلة باطلة، فإن المعلق عليه استقرار الجبل من حيث هو استقرار، وذلك ممكن جائز، وتعلق العلم بأنه لا يستقر له، لا يرفع إمكان استقراره، وتعلق العلم لا يغير المعلوم ولا ينقل حكمه من إمكان إلى امتناع ولا العكس. وحينئذ يتوجه دليلاً لأهل السنة فنقول: استقرار الجبل ممكن، وقد علق عليه وقوع الرؤية، والمعلق على الممكن ممكن، والمعتزلة يعتقدون أن خلاف المعلوم لا يجوز أن يكون مقدوراً ونحن نقول مقدورا، ولكن ما تعلقت المشيئة بإيجاده. وقولنا أقعد بالآداب، وأسعد بالإجلال في الخطاب.

(١) عاد كلامه: قال: «ومعنى وخر موسى صعقاً: وخر مغشيا عليه غشية كالموت وروي أن الملائكة مرت عليه... إلخ» قال أحمد: وهذه حكاية إنما يوردها من يتعسف لامتناع الرؤية فيتخذها عوناً وظهراً على المعتقد الفاسد. والوجه التورك بالغلظ على ناقلها وتنزيه الملائكة عليهم السلام من إهانة موسى كليم الله بالوكز بالرجل والغمص في الخطاب.

(٢) عاد كلامه: قال: «فإن قلت إن كان طلب الرؤية للغرض الذي ذكرته فمم تاب... إلخ»؟ قال أحمد: أما دك الجبل، فقد سلف الكلام على سره. وأما تسبيح موسى عليه السلام فلما تبين له من أن العلم قد سبق بعدم وقوع الرؤية في الدنيا، والله تعالى مقدس عن وقوع خلاف معلومه وعن الخلف في خبره الحق وقوله الصدق، فلما تبين أن مطلوبه كان خلاف المعلوم سبح الله وقدس علمه وخبره عن الخلف. وأما التوبة في حق الأنبياء فلا تستلزم كونها عن ذنب، لأن منصبهم =

قلت: من إجرائه تلك المقالة العظيمة، وإن كان لغرض صحيح على لسانه، من غير إذن فيه من الله ـ تعالى ـ فانظر إلى إعظام الله ـ تعالى ـ أمر الرؤية في هذه الآية، وكيف أرجف الجبل بطالبها وجعله دكًا، وكيف أصعقهم ولم يخل كليمه من نفيان[1] ذلك؛ مبالغة على إعظام الأمر، وكيف سبح ربه ملتجئاً إليه، وتاب من إجراء تلك الكلمة على لسانه، وقال: أنا أول المؤمنين، ثم تعجب من المتسمين بالإسلام المتسمين بأهل السنة والجماعة[2]، كيف اتخذوا هذه العظيمة مذهباً، ولا يغرنك تسترهم بالبلكفة؛ فإنه من منصوبات أشياخهم؛ والقول ما قال بعض العدلية[3] فيهم [من الكامل]:

لَجَمَاعَةٌ سَمَّوْا هَوَاهُمْ سُنَّةً ... وَجَمَاعَةٌ حُمُرٌ لَعَمْرِي مُوكَفَهْ
قَدْ شَبَّهُوهُ بِخَلْقِهِ وَتَخَوَّفُوا ... شَنْعَ الْوَرَىٰ فَتَسَتَّرُوا بِالْبَلْكَفَهْ[4]

وتفسير آخر: وهو أن يريد بقوله: ﴿أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ عرّفني نفسك تعريفاً واضحاً جلياً، كأنها إراءة في جلائها بآية مثل آيات القيامة التي تضطر الخلق إلى معرفتك، ﴿أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾: أعرفك معرفة اضطرار؛ كأني أنظر إليك، كما جاء في الحديث: «سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ» (٦١٠) بمعنى: ستعرفونه معرفة جلية هي في الجلاء كإبصاركم

---

٦١٠ ـ أخرجه البخاري (٢/ ٤٠): كتاب مواقيت الصلاة: باب فضل صلاة العصر، حديث (٥٥٤)، =

= الجليل ينبغي أن يكون منزهاً مبرأ من كل ما ينحط به، ولا شك أن التوقف في سؤال الرؤية عن الإذن كان أكمل. وقد ورد: سيئات المقربين حسنات الأبرار.

(١) قوله: «ولم يخل كليمه من نفيان ذلك» قوله: «نفيان» هو ما يتطاير من قطر المطر، وقطر الدلو، ومن الرمل عند الوطء، ومن الصوف عند النفش، ونحو ذلك. كذا في شرح المعلقات للعلامة الزوزني.

(٢) عاد كلامه. قال: «ثم تعجب من المتسمين بالإسلام المتسمين بأهل السنة والجماعة... إلخ» قال أحمد رحمه الله: وقد انتقل الزمخشري في هذا الفصل إلى ما تسمعه من هجاء أهل السنة. ولولا الاستناد بحسان بن ثابت الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ وشاعره والمنافح عنه وروح القدس معه، لقلنا لهؤلاء المتلقبين بالعدلية وبالناجين سلاماً، ولكن كما نافح حسان عن رسول الله ﷺ أعداءه، فنحن ننافح عن أصحاب سنة رسول الله ﷺ أعداءهم فنقول [من الطويل]:

وجماعة كفروا برؤية ربهم ... حقاً ووعد الله ما لن يخلفه
وتلقبوا عدلية قلنا: أجل ... عدلوا بربهم فحسبهمو سفه
وتلقبوا الناجين كلا إنهم ... إن لم يكونوا في لظى فعلى شفه

(٣) قوله: «والقول ما قال بعض العدلية» غفر الله للمصنف ما لوث به لسانه وقلبه في ذكر هذه الأبيات.

(٤) للزمخشري في أهل السنة، أي هم جماعة سموا هوى أنفسهم سنة، ولكن من عرف أن مستند المعتزلة العقل، ومستند الجماعة النقل عرف الهوى من الهدى. وحمر أي كالحمر. موكفة: أي موضوع عليها الإكاف، مبالغة في التشبيه. قد شبهوه: أي الله عز وجل بخلقه حيث قالوا: إنه يرى =

القمر إذا امتلأ واستوى، ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ أي: لن تطيق معرفتي على هذه الطريقة، ولن تحتمل قوّتك تلك الآية المضطرة، ولكن انظر إلى الجبل، فإني أورد عليه، وأظهر له آية من تلك الآيات، فإن ثبت لتجليها واستقر مكانه ولم يتضعضع، فسوف تثبت لها وتطيقها، ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾: فلما ظهرت له آية من آيات قدرته وعظمته، ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾: لعظم ما رأى، ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾: مما اقترحت/ ٢٥٥ب وتجاسرت، ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: بعظمتك وجلالك، وأن شيئاً لا يقوم لبطشك وبأسك.

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

﴿ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾: اخترتك على أهل زمانك وآثرتك عليهم، ﴿بِرِسَٰلَٰتِى﴾ وهي: أسفار التوارة، ﴿وَبِكَلَٰمِى﴾: وبتكليمي إياك، ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾: ما أعطيتك من شرف النبوة والحكمة، ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾: على النعمة في ذلك فهي من أجل النعم، وقيل: خرّ موسى صعقاً يوم عرفة، وأعطي التوراة يوم النحر.

فإن قلت: كيف قيل: اصطفيتك على الناس وكان هَارُون مصطفى مثله ونبيًّا؟

قلت: أجل، ولكنه كان تابعاً له وردءاً ووزيراً، والكليم: هو موسى ـ عليه السلام ـ والأصيل في حمل الرسالة.

= وأطرافه في: (٥٧٣، ٤٨٥١، ٧٤٣٤، ٧٤٣٥، ٧٤٣٦)، ومسلم (٣/ ١٤٣ ـ ١٤٤ ـ النووي): كتاب المساجد ومواضع الصلاة: باب: فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما حديث (٢١١ ـ ٢١٢/ ٦٣٣) من طريق جرير بن عبد الله وأخرجه البخاري (١٣/ ٤٣٠): كتاب التوحيد: باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾، حديث (٧٤٣٧)، ومسلم (٢/ ٢١ ـ ٢٢ ـ النووي): كتاب الإيمان: باب معرفة طريق الرؤية، حديث (٢٩٩ ـ ٣٠٠/ ١٨٢) من طريق أبي هريرة به.

وأخرجه البخاري (١٣/ ٤٣١): كتاب التوحيد: باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ حديث (٧٤٣٩)، ومسلم (٢/ ٢٤ ـ ٢٥ ـ النووي) كتاب الإيمان: باب معرفة طريق الرؤية، حديث (٣٠٢ ـ ٣٠٣/ ١٨٣) من طريق أبي سعيد الخدري به.

قال الحافظ: متفق عليه من حديث جرير بن عبد الله البجلي قال: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر. فقال: أما إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ـ الحديث» وللبخاري من رواية: «إنكم سترون ربكم عياناً»، واتفقا عليه من حديث أبي سعيد وأبي هريرة بمعناه. انتهى.

= بالعين، فخافوا تشنيع الناس عليهم فتستروا بقولهم: إنه يرى بلا كيف. فالبلكفة منحوتة من ذلك.

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾

ذكروا في عدد الألواح، وفي جوهرها، وطولها أنها كانت عشرة ألواح، وقيل: سبعة، وقيل: لوحين، وأنها كانت من زمرّد جاء بها جبريل عليه السلام وقيل: من زبرجدة خضراء وياقوتة حمراء، وقيل: أمر الله موسى بقطعها من صخرة صماء لينها له، فقطعها بيده وشقها بأصابعه، وعن الحسن: كانت من خشب نزلت من السماء فيها التوراة، وأن طولها كان عشرة أذرع، وقوله: ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾: في محل النصب مفعول كتبنا، و﴿مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا﴾: بدل منه، والمعنى: كتبنا له كل شيء كان بنو إسرائيل محتاجين إليه في دينهم من المواعظ وتفصيل الأحكام، وقيل: أنزلت التوراة وهي سبعون وقر بعير، يقرأ الجزأ منه في سنة لم يقرأها إلا أربعة نفر: موسى، ويوشع، وعزير، وعيسى عليهم السلام، وعن مقاتل: كتب في الألواح: «إني أنا الله الرحمن الرحيم، لا تشركوا بي شيئاً، ولا تقطعوا السبيل، ولا تحلفوا باسمي كاذبين؛ فإنّ من حلف باسمي كاذباً فلا أزكيه، ولا تقتلوا، ولا تزنوا، ولا تعقوا الوالدين، ﴿فَخُذْهَا﴾، فقلنا له: خذها، عطفاً على كتبنا، ويجوز أن يكون بدلاً من قوله: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾، والضمير في (خذها): للألواح، أو لكل شيء؛ لأنه في معنى الأشياء، أو الرسالات، أو للتوراة، ومعنى ﴿بِقُوَّةٍ﴾: بجدّ وعزيمة فعل أولي العزم من الرسل، ﴿يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ أي: فيها ما هو حسن وأحسن، كالاقتصاص، والعفو، والانتصار، والصبر، فمرهم أن يحملوا على أنفسهم في الأخذ بما هو أدخل في الحسن وأكثر للثواب؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓا أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: ٥٥]، وقيل: يأخذوا بما هو واجب أو ندب؛ لأنه أحسن من المباح، ويجوز أن يراد: يأخذوا بما أمروا به، دون ما نهوا عنه، على قولك: الصيف أحرّ من الشتاء، ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾: يريد دار فرعون وقومه وهي مصر، كيف أقفرت منهم، ودمّروا لفسقهم، لتعتبروا فلا تفسقوا مثل فسقهم فينكل بكم مثل نكالهم، وقيل: منازل عاد، وثمود، والقرون الذين/ ٢٥٦أ أهلكهم الله، لفسقهم في ممرّكم عليها في أسفاركم، وقيل: دار الفاسقين: نار جهنم.

وقرأ الحسن: «سأوريكم»، وهي لغة فاشية بالحجاز، يقال: أورني كذا، وأوريته، ووجهه أن تكون من أوريت الزند، كأن المعنى: بينه لي وأنره لأستبينه.

وقرىء: «سأورثكم»، وهي قراءة حسنة يصححها قوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ﴾: بالطبع على قلوب المتكبرين وخذلانهم، فلايفكرون فيها ولا يعتبرون بها؛ غفلة وانهماكاً فيما يشغلهم عنها من شهواتهم، وعن الفضيل بن عياض: ذكر لنا عن رسول الله ـ ﷺ ـ: «إِذَا عَظَّمَتْ أُمَّتِي الدُّنْيَا نُزِعَ عَنْهَا هَيْبَةُ الإِسْلاَمِ، وَإِذَا تَرَكُوا الأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ حُرِمَتْ بَرَكَةُ الْوَحْيِ» (٦١١)، وقيل: سأصرفهم عن إبطالها وإن اجتهدوا كما اجتهد فرعون أن يبطل آية موسى، بأن جمع لها السحرة، فأبى الله إلا علو الحق وانتكاس الباطل، ويجوز: سأصرفهم عنها وعن الطعن فيها والاستهانة بها، وتسميتها سحراً بإهلاكهم، وفيه إنذار للمخاطبين من عاقبة الذين يصرفون عن الآيات؛ لتكبرهم وكفرهم بها؛ لئلا يكونوا مثلهم فيسلك بهم سبيلهم، ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾: فيه وجهان: أن يكون حالاً بمعنى يتكبرون غير محقين؛ لأنّ التكبر بالحق لله وحده، وأن يكون صلة لفعل التكبر، أي: يتكبرون بما ليس بحق وما هم عليه من دينهم، ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ﴾: من الآيات المنزلة عليهم، ﴿لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾: وقرأ مالك بن دينار: «وإن يُرُوا» بضم الياء، وقرىء: «سبيل الرشد»، و«الرشد»، و«الرشاد»؛ كقولهم: السقم، والسّقم، والسقام، وما أسفه من ركب المفازة، فإن رأى طريقاً مستقيماً أعرض عنه وتركه، وإن رأى معتسفاً مرديًا أخذ فيه وسلكه، ففاعل نحو ذلك في دينه أسفه، ﴿ذَٰلِكَ﴾: في محل الرفع أو النصب على معنى: ذلك الصرف بسبب تكذيبهم أو صرفهم الله ذلك الصرف بسببه، ﴿وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾: يجوز أن يكون من إضافة المصدر إلى المفعول به، أي: ولقائهم الآخرة ومشاهدتهم أحوالها، ومن إضافة المصدر إلى الظرف بمعنى: ولقاء ما وعد الله في الآخرة.

﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا

---

٦١١ ـ قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (١/ ٤٧٣): لم أجده عن الفضيل بن عياض.
وعزاه إلى الحكيم التِّرمذي في «نوادر الأصول» قال الحافظ ابن حجر: وفي إسناده البختري بن عبيد وهو ضعيف.
قال الحافظ:
لم أجده من هذا الوجه، وأخرجه الحكيم التِّرمذي في نوادره من حديث أبي هريرة مثله، وزاد: «وإذا تسابت أمتي سقطت من أعين الناس»، ذكره في الخامس والسبعين بعد المائة.
وفي إسناده البختري بن عبيد. وهو ضعيف. انتهى.

يَهْدِهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾

﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾: من بعد فراقه إياهم إلى الطور.

فإن قلت: لم قيل: واتخذ قوم موسى عجلاً، والمتخذ هو السامري؟

قلت: فيه وجهان:

أحدهما: أن ينسب الفعل إليهم؛ لأن رجلاً منهم باشره ووجد فيما بين ظهرانيهم، كما يقال: بنو تميم قالوا كذا وفعلوا كذا، والقائل والفاعل واحد؛ ولأنهم كانوا مريدين لاتخاذه راضين به، فكأنهم أجمعوا عليه.

والثاني: أن يراد واتخذوه إلهاً وعبدوه، وقرىء: (من حُليهم) بضم الحاء والتشديد، جمع حلي/ ٢٥٦ب، كثدي وثديّ، و«من حِلْيِهم» ـ بالكسر ـ للإتباع كدلي؛ و«من حِلْيِهم»، على التوحيد، والحلى: اسم لما يتحسن به من الذهب والفضة.

فإن قلت: لم قال: من حليهم، ولم يكن الحليّ لهم، إنما كانت عواري في أيديهم؟

قلت: الإضافة تكون بأدنى ملابسة؛ وكونها عواري في أيديهم كفى به ملابسة على أنهم قد ملكوها بعد المهلكين، كما ملكوا غيرها من أملاكهم؛ ألا ترى إلى قوله ـ عزّ وعلا ـ: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الشعراء: ٥٧، ٥٨، ٥٩]، ﴿جَسَدًا﴾: بدناً ذا لحم ودم كسائر الأجساد، و«الخوار»: صوت البقر، قال الحسن: إنّ السامري قبض قبضة من تراب من أثر فرس جبريل ـ عليه السلام ـ يوم قطع البحر، فقذفه في العجل، فكان عجلاً له خوار، وقرأ علي ـ رضي الله عنه ـ: «جؤار»، بالجيم والهمزة، من جأر إذا صاح، وانتصاب جسداً على البدل من: (عجلاً)، ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾: حين اتخذوه إلهاً أنه لا يقدر على كلام ولا على هداية سبيل، حتى لا يختاروه على من «لو كان البحر مداداً لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفد كلماته»، وهو الذي هدى الخلق إلى سبل الحق ومناهجه بما ركز في العقول من الأدلة، وبما أنزل في كتبه، ثم ابتدأ فقال: ﴿اتَّخَذُوهُ﴾، أي: أقدموا على ما أقدموا عليه من الأمر المنكر، ﴿وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾: واضعين كل شيء في غير موضعه، فلم يكن اتخاذ العجل بدعا منهم، ولا أوّل مناكيرهم، ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾: ولما اشتدّ ندمهم وحسرتهم على عبادة العجل؛ لأنّ من شأن من اشتدّ ندمه وحسرته أن يعض يده غمًّا، فتصير يده مسقوطاً فيها؛ لأن فاه قد وقع فيها، و(سقط): مسند إلى: (في أيديهم)، وهو من باب الكناية، وقرأ أبو

السميفع: سقط في أيديهم، على تسمية الفاعل، أي: وقع العض فيها، وقال الزجاج: معناه سقط الندم في أيديهم، أي: في قلوبهم وأنفسهم، كما يقال: حصل في يده مكروه، وإن كان محالاً أن يكون في اليد؛ تشبيهاً لما يحصل في القلب وفي النفس بما يحصل في اليد ويرى بالعين، ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾: وتبينوا ضلالهم تبيناً كأنهم أبصروه بعيونهم.

وقرىء: «لئن لم ترحمنا ربنا وتغفر لنا»، بالتاء، وربنا، بالنصب على النداء، وهذا كلام التائبين؛ كما قال آدم وحواء ـ عليهما السلام ـ: «وإن لم تغفر لنا وترحمنا».

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾

الأسف: الشديد الغضب، ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾، وقيل: هو الحزين، ﴿خَلَفْتُمُونِى﴾: قمتم مقامي وكنتم خلفائي من بعدي، وهذا الخطاب: إما أن يكون لعبدة العجل من السامري وأشياعه، أو لوجوه بني إسرائيل، وهم هارون ـ عليه السلام ـ والمؤمنون منه؛ ويدل عليه قوله: ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى﴾ [الأعراف: ١٤٢]، والمعنى: بئسما خلفتموني؛ حيث عبدتم العجل مكان عبادة الله، أو حيث لم تكفوا من عبد غير الله.

فإن قلت: أين ما تقتضيه بئس من الفاعل والمخصوص بالذم؟

قلت: الفاعل مضمر يفسره ما خلفتموني، والمخصوص/ ٢٥٧أ بالذم محذوف تقديره: بئس خلافة خلفتمونيها من بعد خلافتكم.

فإن قلت: أي معنى لقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِىٓ﴾ بعد قوله: ﴿خَلَفْتُمُونِى﴾؟

قلت: معناه من بعد ما رأيتم مني، من توحيد الله، ونفي الشركاء عنه، وإخلاص العبادة له، أو من بعد ما كنت أحمل بني إسرائيل على التوحيد، وأكفهم عما طمحت نحوه أبصارهم من عبادة البقر، حين قالوا: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، ومن حق الخلفاء أن يسيروا بسيرة المستخلف من بعده ولا يخالفوه؛ ونحوه: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]. أي: من بعد أولئك الموصوفين بالصفات الحميدة، يقال: عجل عن الأمر إذا تركه غير تام، ونقيضه تم عليه وأعجله عنه غيره، ويضمن معنى سبق فيعدّى تعديته، فيقال: عجلت الأمر، والمعنى: أعجلتم عن أمر ربكم، وهو انتظار موسى حافظين لعهده وما وصاكم به، فبنيتم الأمر على أن الميعاد قد

بلغ آخره ولم أرجع إليكم، فحدَّثتم أنفسكم بموتي، فغيرتم كما غيرت الأمم بعد أنبيائهم، وروي أنّ السامري قال لهم ـ حين أخرج لهم العجل وقال هذا إلهكم وإله موسى ـ: إن موسى لن يرجع، وإنه قد مات، وروي أنهم عدّوا عشرين يوماً بلياليها فجعلوها أربعين، ثم أحدثوا ما أحدثوا، ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾: وطرحها لما لحقه من فرط الدهش وشدّة الضجر عند استماعه حديث العجل؛ غضباً لله وحمية لدينه، وكان في نفسه حديداً شديد الغضب، وكان هارون ألين منه جانباً، ولذلك كان أحب إلى بني إسرائيل من موسى، وروي أن التوراة كانت سبعة أسباع، فلما ألقى الألواح، تكسرت، فرفع منها ستة أسباعها وبقي منها سبع واحد، وكان فيما رفع تفصيل كل شيء وفيما بقي الهدى والرحمة، ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ أي: بشعر رأسه، ﴿يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾: بذؤابته، وذلك لشدّة ما ورد عليه من الأمر الذي استفزه وذهب بفطنته، وظناً بأخيه أنه فرط في الكف، ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾ قرىء بالفتح؛ تشبيهاً بخمسة عشر، وبالكسر على طرح ياء الإضافة، «وابن أمي» بالياء، «وابن إمّ»، بكسر الهمزة والميم، وقيل: كان أخاه لأبيه وأمّه، فإن صح، فإنما أضافه إلى الأم؛ إشارة إلى أنهما من بطن واحد، وذلك أدعى إلى العطف والرقة، وأعظم للحق الواجب؛ ولأنها كانت مؤمنة فاعتدّ بنسبها، ولأنها هي التي قاست فيه المخاوف والشدائد فذكره بحقها، ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى﴾ يعني: أنه لم يأل جهداً في كفهم بالوعظ والإنذار، وبما بلغته طاقته من بذل القوة في مضادتهم حتى قهروه واستضعفوه ولم يبق إلا أن يقتلوه، ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾: فلا تفعل بي ما هو أمنيتهم من الاستهانة بي والإساءة إليّ، وقرىء: «فلا يشمت بي الأعداء»، على نهي الأعداء عن الشماتة، والمراد ألاّ يحل به ما يشمتون به/ ٢٥٧ب لأجله، ﴿وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: ولا تجعلني في موجدتك عليّ وعقوبتك لي قريناً لهم وصاحباً، أو: ولا تعتقد أني واحد من الظالمين مع براءتي منهم ومن ظلمهم، لما اعتذر إليه أخوه وذكر له شماتة الأعداء، ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى﴾: ليرضي أخاه، ويظهر لأهل الشماتة رضاه عنه فلا تتم لهم شماتتهم. واستغفر لنفسه مما فرط منه إلى أخيه، ولأخيه أن عسى فرط في حسن الخلافة، وطلب ألاّ يتفرقا عن رحمته، ولا تزال منتظمة لهما في الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾

﴿غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ﴾ الغضب: ما أمروا به من قتل أنفسهم، والذلة: خروجهم من ديارهم؛ لأنّ ذل الغربة مثل مضروب.

وقيل: هو ما نال أبناءهم، وهم بنو قريظة والنضير، من غضب الله ـ تعالى ـ بالقتل

والجلاء، ومن الذلة بضرب الجزية، ﴿ٱلْمُفْتَرِينَ﴾: المتكذبين على الله، ولا فرية أعظم من قول السامري: هذا إلهكم وإله موسى، ويجوز أن يتعلق في الحياة الدنيا بالذلة وحدها، ويراد: سينالهم غضب في الآخرة، وذلة في الحياة الدنيا، ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: من الكفر والمعاصي كلها، ﴿ثُمَّ تَابُوا۟﴾: ثم رجعوا، ﴿مِنۢ بَعْدِهَا﴾: إلى الله واعتذروا إليه، ﴿وَءَامَنُوٓا۟﴾: وأخلصوا الإيمان، ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾: من بعد تلك العظائم، ﴿لَغَفُورٌ﴾: لستور عليهم محاء لما كان منهم، ﴿رَّحِيمٌ﴾: منعم عليهم بالجنة، وهذا حكم عام يدخل تحته متخذو العجل ومن عداهم، عظم جنايتهم[1] أولاً ثم أردفها تعظيم رحمته؛ ليعلم أن الذنوب وإن جلت وعظمت، فإن عفوه وكرمه أعظم وأجل، ولكن لا بدّ من حفظ الشريطة، وهي وجوب التوبة[2] والإنابة، وما وراءه طمع فارغ، وأشعبية باردة[3]، لا يلتفت إليها حازم.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾[4]: هذا مثل؛ كأن الغضب كان يغريه[5] على ما

---

(١) قال محمود: «عظم جناية متخذي العجل أولاً، ثم أردفها بحكم عام... إلخ» قال أحمد: يعرض بوجوب وعيد الفساق وأن مغفرة الذنب بدون التوبة منه من المحال الممتنع، وقد تقدم عد ذلك من الأهواء والبدع، بل الحق أن المغفرة لما عدا الشرك موكولة إلى المشيئة، غير ممتنعة عقلاً، ثم واقعة نقلاً، والله الموفق.

(٢) قوله: «من حفظ الشريطة وهي وجوب التوبة» مذهب المعتزلة أن الكبيرة لا تغفر إلا بالتوبة. ومذهب أهل السنة أنها قد تغفر بمجرد الفضل.

(٣) قوله: «وأشعبية باردة» خصلة منسوبة إلى أشعب، وهو رجل كان طماعاً. ويضرب به المثل في الطمع، كما في الصحاح.

(٤) قوله ـ تعالى ـ ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾... الآية. بين المفسر أن في الفعل «سكت» مجاز عن الانقطاع، وتمثيل له بالسكوت، والبلاغيون في هذا المضمار قد حققوا معنى هذا المجاز من جميع جهاته، ونقف بسبيل الآية في النقاط التالية:

١ ـ الاستعارة: طلب إعارة الشيء أي أخذه ممن يقوم عليه، وفعله استعار واصطلاحاً: «استعمال الكلمة أو الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي» وبهذا التحديد نارت الاستعارة الكناية وبهذا المفهوم أخذ البلاغيون يقسمون الاستعارة من =

فعل، ويقول له: قل لقومك كذا، وألق الألواح، وجرّ برأس أخيك إليك، فترك النطق

= جهة اللفظ المحذوف والمذكور إلى تصريحية ومكنية، وينظرون في اللفظ المستعار وقسموها إلى أصلية وتبعية، وقد حرى المفسر العلامة على هذا المنحى، ويبينون أسرار الاستعارة وحسنها وحيوتها.

٢ ـ وقفوا عند الاستعارات المكنية كقوله ـ تعالى ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧] وبينوا أن النقض يكون للجهل، ولأن عهد الله شبيه به صحت الاستعارة إلا أنه حذف المشبه به بعد استعارته للمشبه في النفس ثم رمز إليه «أي الجهل» بشيء من لوازمه وهو ينقضون، وأسند هذا اللازم للمشبه. وقد بين المفسر العلامة سر هذا المجاز وهذا الاصطلاح «الاستعارة» لم يكن معروفاً عند العلماء أيام الزمخشري، ولكنه عرف فيما بعد، إلا أن التقسيمات عرفت عندهم بأسماء لم تحدد، فلما كان العهد بعد الزمخشري ثم الاصطلاح على أسماء هذه التقسيمات إلى يومنا هذا، وقد عرف اصطلاح الاستعارة بالكناية في كتاب «نهاية الإيجاز» وهو مما كتب بعد الكشاف بما يقرب من قرن وقد بين الزمخشري قرينة المكنية كما بين أنها قد تكون استعارة تصريحيه باعتبار آخر ومعلوم أن قرينة المكنية استعارة تخييلية، وقد بين السيد الشريف في حاشيته على المطول مراد الزمخشري وناقش ذلك.

وحسن الاستعارة المكنية يكمن في جعل الشيء مصوراً بما يعجب، فيصور الحياة في الجماد، ويجسد المعاني، ويشخصها كأظفار المنية، ويد الشمال، وأنف العشيرة، وهذا التصوير له سره في النفوس وأثره في العقول، والذي يثبت هذا الأثر أن هذه القرائن على معانيها الحقيقية فحينما نسمع: شجاع يفترس أقرانه، تصورنا أن هذا الشجاع في صورة الأسد، وشكله، وضخامته، وقوته، فهذا هو السر في جمال الاستعارة بالكناية، ولهذا إذا صرفنا الافتراس إلى المعنى المجازي أي شدة القتل مثلاً فقد ضعف المعنى في النفس ويسير المفسر العلامة على هذا الاتجاه والفهم في آيات القرآن، ولهذا نراه يكرر هذا في قوله ـ تعالى ـ ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾ [الفرقان: ٥٣]، وقال فيها الزمخشري «وهي من أحسن الاستعارات وأشهدها على البلاغة».

٣ ـ ويأتي إلى الاستعارة التبعية في قوله ـ تعالى ـ ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ فيبين أن الغضب كإنسان يدفعه إلى ما فعل ويقول له كما شرح المفسر.

والملحوظ أن المفسر لم يوضح الأقسام مفصلة لأن ذلك قد كان في أول الأمر، وجاءت التفريعات البلاغية عند السكاكي ومن والاه.

٤ ـ وقد بين الاستعارة في المصادر، وأوضحها عند قوله ـ تعالى ـ ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ [الزخرف: ٤٥] والمقصود: انظر في أديانهم حتى ترى أن الله هو المعبود بحق ولا إله إلا هو، فالسؤال واقع مجازاً، وهذا ما وقع للشعراء من مساءلة الديار والأطلال والدوارس.

٥ ـ وقد عرف المفسر الاستعارة في الحرف عند قوله ـ تعالى ـ:

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨].

وبين المفسر أن اللام في «ليكون» للتعليل، ولكن ما بعدها لم يكن حقيقة العلة، بل ما صار إليه الأمر، ولهذا عرفت فيما بعد «بلام العاقبة والصيرورة»، ولهذا وقف عندها الزمخشري وبين أن اللام خرجت عن حقيقتها خروج الأسد إلى معنى الرجل الشجاع.

وقد شرح المفسر العلامة هذا الخروج شرحاً دقيقاً، وطبق هذا على قوله ـ سبحانه ـ ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٨٤]. =

بذلك، وقطع الإغراء، ولم يستحسن هذه الكلمة، ولم يستفصحها كل ذي طبع سليم، وذوق صحيح إلا لذلك؛ ولأنه من قبيل شعب البلاغة، وإلا فما لقراءة معاوية بن قرة: «ولما سكن عن موسى الغضب»، لا تجد النفس عندها شيئاً من تلك الهزة، وطرفاً من تلك الروعة.

وقرىء: «ولما سُكِتَ»، و«أسكت»، أي: أسكته الله، أو أخوه باعتذاره إليه وتنصله، والمعنى: ولما طفىء غضبه، ﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾: التي ألقاها، ﴿وَفِى نُسْخَتِهَا﴾: وفيما نسخ منها، أي: كتب؛ «والنسخة»: فعلة، بمعنى: مفعول، كالخطبة، ﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾: دخلت اللام لتقدم المفعول؛ لأن تأخر الفعل عن مفعوله/ ٢٥٨ب يكسبه ضعفاً؛ ونحوه: ﴿لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣]، وتقول: لك ضربت.

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّىَّ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن

= وهل تجري الاستعارة في الحرف أو في مدخول الحرف؟ في كلامه الاتجاهان كما هما الآن.

٦ ـ وقد تعرض للاستعارة الأصلية عند قوله ـ تعالى ـ: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾ فكلمة «إصراً» إستعارة للتكاليف الشرعية الشاقة التي كانت على بني إسرائيل كما بين «والآية هي الأخيرة ٢٨٦ من سورة البقرة» ويأتي المفسر العلامة إلى قوله ـ تعالى ـ ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ فينظر إلى كلمة «مرض» بإمعان فيراها مرة حقيقة ومرة مجازاً وكلاهما محتمل.

٧ ـ وفي النهاية أقول يكفي الزمخشري ومن تبعه هذه اللفتات الفنية، وهذه الإشارات البلاغية، فإنها تدل على قدرة فائقة في الفهم الرائق، والغوص وراء الدقائق ولا مشاحة في الاصطلاح، فالأسماء ميسورة، والمقصود المسميات المرادة، ودائماً أرى أبا السعود يأخذ من كلام الزمخشري إما بلفظه أو بمعناه ويضيف ما أفاد من سواه أو فتح الله به عليه ـ فالله هو الفتاح العليم.

«يراجع مفتاح العلوم للسكاكي ١٧٢ وما بعدها والإيضاح للقزويني وحواشي شيخنا الخفاجي عليه ٥/ ١٢ وما بعدها، والمطول للسعد ٣٥٢ وما بعدها وزهر الربيع في المعاني والبيان والبديع للحملاوي ١٢٢ وما بعدها، ودروس تطبيقية د. فتحي فريد ٦٨ وما بعدها ـ ط. الأولى ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٢ م والبلاغة القرآنية لأبي موسى ٤٩٦ وما بعدها.

ومن البلاغة العربية في نور القرآن والسنة النبوية لفتحي حجازي وزميله ١٨٢ وما بعدها، وتفسير أبي السعود ٢/ ٣٠٠.

(٥) قال محمود: «هذا مثل، كأن الغضب كان يغريه على ما فعل ويقول له قل لقومك كذا وألق الألواح وخذ برأس أخيك... إلخ» قال أحمد: وهو من النمط الذي قدمته من قلب الحقيقة إلى المجاز، وكان الأصل: ولما سكت موسى عن الغضب، ولذلك عده بعض أهل العربية من المقلوب، وسلكه في نمط خرق الثوب المسمار. والتحقيق أنه ليس منه وأن هذا القلب أشرف وأفصح، لأنه بماله على معنى بليغ وهو أن الغضب كان متمكناً من موسى حتى كان كأنه يصرفه في أوامره، وكل ما وقع منه حينئذ فعن الغضب صادر، حتى كأنه هو الذي أمره به. ومثل هذه النكتة الحسناء لا تلقى في خرق الثوب المسمار، بل هي موجودة في قوله تعالى ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ على خلاف قراءة نافع. وقد تقدم ذلك آنفاً، والله الموفق.

تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

﴿واختار موسى قومه﴾ أي من قومه، فحذف الجار وأوصل الفعل؛ كقوله [من الطويل]:

وَمِنَّا الَّذِي اخْتِيرَ الرِّجَالَ سَمَاحَةً ..... (١)

قيل: اختار من اثني عشر سبطاً، من كل سبط ستة حتى تتاموا اثنين وسبعين، فقال: ليتخلف منكم رجلان، فتشاحوا، فقال: إن لمن قعد منكم مثل أجر من خرج، فقعد كالب ويوشع، وروي أنه لم يصب إلا ستين شيخاً، فأوحى الله ـ تعالى ـ إليه أن تختار من الشبان عشرة، فاختارهم فأصبحوا شيوخاً، وقيل: كانوا أبناء ما عدا العشرين، ولم يتجاوزوا الأربعين، قد ذهب عنهم الجهل والصبا، فأمرهم موسى أن يصوموا، ويتطهروا، ويطهروا ثيابهم، ثم خرج بهم إلى طور سينا لميقات ربه، وكان أمره ربه أن يأتيه في سبعين من بني إسرائيل، فلما دنا موسى من الجبل، وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كله، ودنا موسى ودخل فيه، وقال للقوم: ادنوا، فدنوا، حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجداً، فسمعوه وهو يكلم موسى بأمره وينهاه: افعل، ولا تفعل، ثم انكشف الغمام فأقبلوا إليه، فطلبوا الرؤية فوعظهم، وزجرهم، وأنكر عليهم، فقالوا: يا موسى، لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فقال: رب أرني أنظر إليك، يريد: أن يسمعوا الردّ والإنكار من جهته، فأجيب: بـ «لن تراني» ورجف بهم الجبل فصعقوا، ولما كانت

---

(١) ومنا الذي اختير الرجال سماحة وجوداً إذا هب الرياح الزعازع

المعنى: ومنا الذي اختاره الناس من بين الرجال، فالرجال نصب على نزع الخافض. وسماحة: تمييز لبيان جهة الاختيار. وجوداً عطف عليه، إذا هب الرياح، كناية عن دخول الشتاء، فتهيج الرياح الزعازع، أي الشديدة المحركة للأشياء، وإذا جاد زمن انقطاع الميرة، فكيف بالصيف.

البيت للفرزدق ينظر: ديوانه ١/٤١٨، والكتاب ١/٣٩، والمقتضب ٤/٣٣١، والأشباه والنظائر ٢/٣٣١، وخزانة الأدب ٩/١١٣، ٥/١١٥، ١٢٣، ١٢٤، والدرر ٢/٢٩١ وشرح أبيات سيبويه ١/٤٢٤، وشرح شواهد المغني ١/١٢ ولسان العرب «خير»، وشرح المفصل لابن يعيش ٨/٥١، وهمع الهوامع ١/١٦٢ والدر المصون ١/٣٥١.

الرجفة، ﴿قال﴾ موسى: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّنَّ﴾، وهذا تمنّ منه للإهلاك قبل أن يرى ما رأى من تبعة طلب الرؤية، كما يقول النادم على الأمر إذا رأى سوء المغبة: لو شاء الله، لأهلكني قبل هذا، ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ يعني: أتهلكنا جميعاً، يعني: نفسه وإياهم؛ لأنه إنما طلب الرؤية زجراً للسفهاء، وهم طلبوها سفهاً وجهلاً، ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أي: محنتك وابتلاؤك حين كلمتني وسمعوا كلامك، فاستدلوا بالكلام على الرؤية استدلالاً فاسداً، حتى افتتنوا وضلوا، ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾، تضلّ بالمحنة الجاهلين غير الثابتين في معرفتك، وتهدي العالمين بك الثابتين بالقول الثابت، وجعل ذلك إضلالاً من الله وهدى منه؛ لأن محنته لما كانت سبباً[1]، لأن ضلوا، واهتدوا، فكأنه أضلهم بها، وهداهم على الاتساع في الكلام، ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾: مولانا القائم بأمورنا، ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا﴾: وأثبت لنا واقسم، ﴿فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾: عافية، وحياة طيبة، وتوفيقاً في الطاعة، ﴿وَفِى ٱلْآخِرَةِ﴾: الجنة، ﴿هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾: تبنا إليك، وهاد إليه يهود إذا رجع وتاب، والهود: جمع هائد، وهو التائب؛ ولبعضهم [من المجتث]

يَا رَاكِبَ/ ٢٥٨ب الذَّنْبِ هُذْهُذْ وَٱسْجُذْ كَأَنَّكَ هُدْهُدْ[2]

وقرأ أبو وجرة السعدي: «هِدنا إليك»، بكسر الهاء، من هاده يهيده إذا حرّكه وأماله، ويحتمل أمرين: أن يكون مبنياً للفاعل والمفعول، بمعنى: حركنا إليك أنفسنا وأملناها أو حرّكنا إليك وأملنا على تقدير: فعلنا؛ كقولك: عدت يا مريض بكسر العين، فعلت من العيادة، ويجوز: عدت بالإشمام، وعدت، بإخلاص الضمة فيمن قال: عود المريض، وقول القول، ويجوز على هذه اللغة أن يكون (هدنا): بالضم، فعلنا من هاده يهيده، ﴿عَذَابِى﴾: من حاله وصفته أني، ﴿أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾ أي: من وجب عليّ في الحكمة[3] تعذيبه، ولم يكن في العفو عنه مساغ؛ لكونه مفسدة، وأمّا: (رحمتي): فمن حالها وصفتها أنها واسعة تبلغ كل شيء، ما من مسلم، ولا كافر، ولا مطيع، ولا عاص، إلا وهو متقلب في نعمتي، وقرأ الحسن: «من أساء»، من الإساءة، فسأكتب هذه الرحمة كتبة خاصة منكم يا بني إسرائيل للذين يكونون في آخر الزمان من أمّة محمد ـ ﷺ ـ الذين

---

(١) قوله: «لأن محنته لما كانت سبباً» صرف الكلام عن ظاهره؛ لأنه تعالى لا يخلق الشر عندهم. أما على مذهب أهل السنة فلا حاجة إلى ذلك.

(٢) للزمخشري، شبه ملازمته للذنب بملازمة الراكب للمركوب. وهاد يهود، إذا تاب ورجع. وهد: أمر منه، وكرر للتوكيد. ثم قال: واسجد كأنك هدهد، فشبهه به لكثرة ما يطرق برأسه إلى الأرض لا في السرعة، فالمعنى: أسجد كثيراً.
ينظر روح المعاني ٩/ ٧٦، وحاشية الشهاب ٤/ ٢٢٤ والدر المصون ٣/ ٣٥٢.

(٣) قوله: «أي من وجب علي في الحكمة» هذا عند المعتزلة. وأما أهل السنة فلا يجب على الله تعالى عندهم شيء.

هم بجميع آياتنا وكتبنا يؤمنون؛ لا يكفرون بشيء منها، ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ﴾: الذي نوحي إليه كتاباً مختصاً به وهو: «القرآن»؛ ﴿ٱلنَّبِيَّ﴾: صاحب المعجزات، ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ﴾: يجد نعته أولئك الذين يتبعونه من بني إسرائيل، ﴿مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ . . . وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾: ما حرم عليهم من الأشياء الطيبة، كالشحوم وغيرها، أو ما طاب في الشريعة والحكم مما ذكر اسم الله عليه من الذبائح، وما خلى كسبه من السحت، ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾: ما يستخبث من نحو الدم، والميتة، ولحم الخنزير، وما أهلّ لغير الله به أو ما خبث في الحكم، كالربا، والرشوة، وغيرهما من المكاسب الخبيثة، «الإصر»: الثقل الذي يأصر صاحبه، أي: يحبسه من الحراك، لثقله، وهو مثل لثقل تكليفهم وصعوبته، نحو اشتراط قتل الأنفس في صحة توبتهم، وكذلك الأغلال، مثل لما كان في شرائعهم من الأشياء الشاقة، نحو: بت القضاء بالقصاص عمداً كان أو خطأ من غير شرع الدية، وقطع الأعضاء الخاطئة، وقرض موضع النجاسة من الجلد والثوب، وإحراق الغنائم، وتحريم العروق في اللحم، وتحريم السبت، وعن عطاء: كانت بنو إسرائيل إذا قامت تصلي، لبسوا المسوح، وغلوا أيديهم إلى أعناقهم، وربما ثقب الرجل ترقوته، وجعل فيها طرف السلسلة، وأوثقها إلى السارية يحبس نفسه على العبادة، وقرىء: «آصارهم»، على الجمع، ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾: ومنعوه حتى لا يقوى عليه عدوّ، وقرىء: بالتخفيف، وأصل العزر: المنع، ومنه: التعزير للضرب دون الحدّ؛ لأنه منع عن معاودة القبيح؛ ألا ترى إلى/ ٢٥٩أ تسمية الحدّ، والحدّ: هو المنع، و﴿ٱلنُّورَ﴾: القرآن.

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾، وإنما أنزل مع جبريل؟ قلت: معناه أنزل مع نبوّته؛ لأنّ استنباءه كان مصحوباً بالقرآن مشفوعاً به، ويجوز أن يعلق باتبعوا، أي: واتبعوا القرآن المنزل مع اتباع النبي، والعمل بسنته، وبما أمر به ونهي عنه، أو: واتبعوا القرآن، كما اتبعه مصاحبين له في اتباعه.

فإن قلت: كيف انطبق هذا الجواب على قول موسى ـ عليه السلام ـ ودعائه؟

قلت: لما دعا لنفسه ولبني إسرائيل، أجيب بما هو منطو على توبيخ بني إسرائيل على استجازتهم الرؤية على الله ـ تعالى ـ وعلى كفرهم بآيات الله العظام التي أجراها على يد موسى، وعرّض بذلك في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٨]، وأريد أن يكون استماع أوصاف أعقابهم الذين آمنوا برسول الله ـ ﷺ ـ وما جاء به كـ «عبد الله بن سلام» وغيره من أهل الكتابين؛ لطفاً لهم، وترغيباً في إخلاص الإيمان، والعمل الصالح، وفي أن يحشروا معهم، ولا يفرّق بينهم، وبين أعقابهم عن رحمة الله[1] التي وسعت كل شيء.

---

(١) قوله: «عن رحمة الله» لعله «في رحمة الله». أو ضمن التفريق معنى الإبعاد، فعدى بعن.

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾

﴿ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾، قيل: بعث كل رسول إلى قومه خاصة، وبعث محمد ـ ﷺ ـ إلى كافة الإنس، وكافة الجن، «وجميعاً»: نصب على الحال من إليكم.

فإن قلت: ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، ما محله؟

قلت: الأحسن أن يكون منتصباً بإضمار أعني؛ وهو الذي يسمى النصب على المدح. ويجوز أن يكون جرًا على الوصف، وإن حيل بين الصفة والموصوف بقوله: «إليكم»، ﴿ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾، وقوله: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾: بدل من الصلة التي هي له ملك السموات والأرض، وكذلك: ﴿ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾، وفي ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾: بيان للجملة قبلها؛ لأنّ من ملك العالم، كان هو الإله على الحقيقة، وفي يحيي ويميت: بيان لاختصاصه بالإلهية؛ لأنه لا يقدر على الإحياء والإماتة غيره، ﴿ وَكَلِمَٰتِهِۦ ﴾: وما أنزل عليه، وعلى من تقدّمه من الرسل من كتبه ووحيه.

وقرىء: «وكلمته» على الإفراد، وهي: «القرآن»، أو أراد جنس ما كلم به، وعن مجاهد: أراد عيسى ابن مريم.

وقيل: هي الكلمة التي تكوّن منها عيسى وجميع خلقه، وهي قوله: (كن)، وإنما قيل: إن عيسى كلمة الله، فخص بهذا الإسم؛ لأنه لم يكن؛ لكونه سبب غير الكلمة، ولم يكن من نطفة تمنى، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾: إرادة أن تهتدوا.

فإن قلت: هلا قيل: فآمنوا بالله وبي، بعد قوله: إني رسول الله إليكم؟

قلت: عدل عن المضمر إلى الاسم الظاهر، لتجري عليه الصفات التي أجريت عليه، ولما في طريقة الالتفات من مزية البلاغة، وليعلم أنّ الذي وجب الإيمان به واتباعه هو هذا الشخص المستقل بأنه النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته، كائناً من كان، أنا أو غيري؛ إظهاراً للنصفة، وتفادياً/ ٢٥٩ب من العصبية لنفسه.

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ ﴾ هم: المؤمنون التائبون من بني إسرائيل؛ لما ذكر الذين تزلزلوا منهم في الدين، وارتابوا، حتى أقدموا على العظيمتين: عبادة العجل، واستجازة رؤية الله

ـ تعالى ،ذكر أنّ منهم أمة موقنين، ثابتين، يهدون الناس بكلمة الحق، ويدلونهم على الاستقامة ويرشدونهم، وبالحق يعدلون بينهم في الحكم لا يجورون، أو أراد الذين وصفهم من أدرك النبي ـ ﷺ ـ وآمن به من أعقابهم.

وقيل: إنّ بني إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم، وكفروا، وكانوا اثني عشر سبطاً تبرأ سبط منهم مما صنعوا واعتذروا، وسألوا الله أن يفرق بينهم وبين إخوانهم، ففتح الله لهم نفقاً في الأرض، فساروا فيه سنة ونصفاً حتى خرجوا من وراء الصين، وهم هنالك حنفاء مسلمون، يستقبلون قبلتنا، وذكر عن النبي ـ ﷺ ـ أن جبريل ذهب به ليلة الإسراء نحوهم، فكلمهم، فقال لهم جبريل: هل تعرفون من تكلمون؟ قالوا: لا، قال: هذا محمد النبي الأمي، فآمنوا به وقالوا: يا رسول الله، إن موسى أوصانا من أدرك منكم أحمد، فليقرأ عليه مني السلام، فردّ محمد على موسى ـ عليهما السلام ـ ثم أقرأهم عشر سور من القرآن نزلت بمكة، ولم تكن نزلت فريضة غير الصلاة والزكاة، وأمرهم أن يقيموا مكانهم، وكانوا يسبتون، فأمرهم أن يجمعوا ويتركوا السبت، وعن مسروق، قرىء: بين يدي عبد الله، فقال رجل: إني منهم، فقال عبد الله ـ يعني: لمن كان في مجلسه من المؤمنين ـ: وهل يزيد صلحاؤكم عليهم شيئاً من يهدي بالحق وبه يعدل.

وقيل: لو كانوا في طرف من الدنيا متمسكين بشريعة ولم يبلغهم نسخها، كانوا معذورين، وهذا من باب الفرض والتقدير، وإلا فقد طار الخبر بشريعة محمد ـ ﷺ ـ إلى كل أفق، وتغلغل في كل نفق، ولم يبق الله أهل مدر، ولا وبر، ولا سهل، ولا جبل، ولا برّ، ولا بحر في مشارق الأرض ومغاربها، إلا وقد ألقاه إليهم، وملأ به مسامعهم، وألزمهم به الحجة، وهو سائلهم عنه يوم القيامة.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾ وصيرناهم قطعاً، أيّ فرقاً، وميزنا بعضهم من بعض؛ لقلة الألفة بينهم.

وقرىء: «وقطّعناهم» بالتخفيف، ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا﴾؛ كقولك: اثنتي عشرة قبيلة، «والأسباط»: أولاد الولد، جمع سبط، وكانوا اثنتي عشرة قبيلة من اثني عشر ولداً من ولد يعقوب، عليه السلامُ.

فإن قلت: مميز ما عدا العشرة مفرد، فما وجه مجيئه مجموعاً؟ وهلا قيل: اثني عشر سبطاً؟

قلت: لو قيل ذلك لم يكن تحقيقاً لأن المراد (٢٦٠/أ): وقطعناهم اثنتي عشرة قبيلة، وكل قبيلة أسباط لا سبط، فوضع أسباطاً موضع قبيلة؛ ونظيره [من الرجز]:

بَـيْـنَ رِمَـاحَـيْ مَـالِـكٍ وَنَـهْـشَـلِ[1]

﴿وأُمَمًا﴾: بدل من اثنتي عشرة، بمعنى: وقطعناهم أمماً؛ لأنّ كل أسباط كانت أمة عظيمة، وجماعة كثيفة العدد، وكل واحدة كانت تؤمّ خلاف ما تؤمّه الأخرى، لا تكاد تأتلف.

وقرىء: «اثنتي عشِرة» بكسر الشين، ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ﴾: فانفجرت، والمعنى واحد، وهو الانفتاح بسعة وكثرة، قال العجاج [من الرجز]:

وَكِـيـفَ غَـرْبَـيْ دَالِـجٍ تَـبَـجَّـسَـا[2]

---

(١) تـبـقـلـت فـي أول الـتـبـقـل بـيـن رمـاحـي مـالـك ونـهـشـل
في حـبـة حـرف وحـمـض هـيـكـل مـسـتـأسـد ذبـانـه فـي عـيـطـل
يـقـلـن لـلـرائـد: أعـشـبـت انـزل

لأبي النجم، يصف رمكة باعتيادها الحروب واقتحامها المكاره من أول أمرها. يقال: تبقلت الغنم وغيرها: رعت البقل وهو النبات الرطب. شبه اقتحام تلك الفرس للحروب من صغرها حتى اعتادتها برعي الدابة للكلأ واعتيادها عليه، بجامع التمرن والاعتياد والسهولة، بل والاستلذاذ، ثم استعار التبقل لذلك على طريق التصريحية، وبلغ في ذلك حيث أسند الفعل إليها، كأنه لا دخل له فيه. ويروى: من أول التبقل، بين رماحي مالك ونهشل: أي بين رماح مالك بن ضبعة ورماح نهشل بن دارم من أمراء العرب، فثنى الرماح دلالة على التنويع والتمايز. وقال أبو حنيفة: الحبة بالكسر اليبس المنكسر المتراكم. وقال الأزهري: هي البذور الساقطة مع الأوراق في آخر الصيف والحرف: اليابسة الدقيقة. والحمض نوع من النبات. والهيكل: الطويل الضخم. والمستأسد: الطويل الغليظ أيضاً. وذبان جمع ذباب، كغربان وغراب. والعيطل ـ بالعين المهملة ـ: الأصوات المختلطة. والرائد: هو الذي يتقدم القوم لطلب الخصب. يقلن، أي الذبان. وأعشب الرجل: وجد العشب، وصف النبات بالكثرة والالتفاف حتى كثر ذبابه وصارت له أصوات مختلطة، فكان يدعو الرائد ويحمله على النزول في هذا المكان عند سماع صوته، فاستعار القول لذلك على سبيل التصريح. وروي: مستأسد أذنابه في عيطل. تقول للرائد، فالأذناب جمع ذنب، أي أطرافه تصوت بالريح بقول ذلك النبات والمجاز كما تقدم. هذا، وحق الرواية: بين رماكي مالك ونهشل. والرمكة: الأنثى من البراذين والخيل، وجمعها رماك وأرماك ورمكات، كثمرة وثمار وأثمار وثمرات. يصف فرسه بأنها رعت البقل حقيقة مع تلك الخيول والبراذين؛ فلا مجاز هنا.
ينظر: العمدة ٢/ ٤١٣، الخزانة ٢/ ٣٩٠، الدر المصون ٣/ ٣٥٧.

(١) وانـحـلـبـت عـيـنـاه مـن فـرط الأسـى وكـيـف غـربـي دالـج تـبـجّـسـا

فرط الأسى: شدة الحزن. والوكيف: مصدر نصب بانحلبت؛ لأن معناه: وكفت. والغرب: الدلو =

فإن قلت: فهلا قيل: فضرب فانبجست؟

قلت: لعدم الإلباس، وليجعل الإنبجاس مسبباً عن الإيحاء بضرب الحجر؛ للدلالة على أنّ الموحى إليه لم يتوقف عن اتباع الأمر، وأنه من انتفاء الشك عنه، بحيث لا حاجة إلى الإفصاح به، من قوله: ﴿كُلُّ أُنَاسٍ﴾: نظير قوله: اثنتي عشرة أسباطاً، يريد كل أمّة من تلك الأمم الثنتي عشرة، «والأناس»: اسم جمع غير تكسير، نحو، رخال، وثناء، وتوام[1]، وأخوات لها، ويجوز أن يقال: إن الأصل الكسر والتكسير، والضمة بدل من الكسرة؛ كما أبدلت في نحو: سكارى، وغيارى[2]، من الفتحة[3]، ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ﴾: وجعلناه ظليلاً عليهم في التيه، و﴿وَكُلُوا﴾: على إرادة القول، ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾: وما رجع إلينا ضرر ظلمهم بكفرانهم النعم، ولكن كانوا يضرون أنفسهم، ويرجع وبال ظلمهم إليهم.

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا

= العظيم. والدالج: من يأخذ الدلو من البئر فيفرغه في الحوض. والتبجس. اتساع الانفجار. يقول: انصبت دموع عينيه من شدة الحزن، كانصباب دلوي رجل مفرغ لها في الحوض تفجرا بسعة. وفيه تشبيه العينين بالغربين.

ينظر: ديوانه (١/ ١٨٥)، ومقاييس اللغة (١/ ١٩٩)، وأساس البلاغة (بجس)، و(كف)، وكتاب العين (٥/ ٤١٣)، لسان العرب (بجس)، وتهذيب اللغة (١٠/ ٥٩٩).

(١) قوله: «ونحو رخال وثناء وتؤام» رخال: هي الإناث من أولاد الضأن. والثناء: القاطنون بالبلد. والتؤام ـ بالمد ـ واحده توأم، وزان كوكب. أفاده الصحاح (ع).

(٢) قوله: «نحو سكارى وغيارى» غار الرجل على أهله فهو غيور. وجمعه غير وغيران. وجمعه غيارى وغيارى، كذا في الصحاح.

(٣) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «ولا يجوز ما قال؛ لوجهين، أحدهما: أنه لم يُنْطَق بـ «إناس» بكسر الهمزة، فيكون جمع تكسير، حتى تكون الضمة بدلاً من الكسرة، بخلاف «سُكَارى» و «غُيَارى» فإنّ القياس فيه «فَعَالى» بفتح فاء الكلمة وهو مسموع فيهما. والثاني: أن «سُكَارَى، وغُيَارَى، وعُجَالَى» وما ورد من نحوها ليست الضمة فيه بدلاً من الفتحة، بل نص سيبويه في كتابه على أنه جمع تكسير أصل، كما أن «فُعَالَى» جمع تكسير أصل، وإنْ كان لا ينقاس الضم كما ينقاس الفتح. قال سيبويه ـ في حد تكسير الصفات ـ: «وقد يكسّرون بعض هذا على «فُعَالى» وذلك قول بعضهم: عُجَالَى، وسُكَارَى». وقال سيبويه ـ في الأبنية أيضاً ـ: «ويكون «فُعَالى» في الاسم، نحو: حُبَارى، وسُمَانى، ولُبَادى. ولا يكون وصفاً إلا أن يكسَّرَ عليه الواحد للجمع، نحو: سُكارَى، وعُجَالى». فهذان نصان من سيبويه على أنه جمع تكسير. وإذا كان جمع تكسير أصلاً لم يسغ أن يدعى أن أصله «فعالى» وأنه أبدلت الحركة فيه. وذهب المبرد إلى أنه اسم جمع أعني فعالى بضم الفاء وليس بجمع تكسير، فالزمخشري لم يذهب إلى ما ذهب إليه سيبويه، ولا إلى ما ذهب إليه المبرد، لأنه عند المبرد اسم جمع، فالضمة في فائه أصل، ليست بدلاً من الفتحة، بل أحدث قولاً ثالثاً انتهى». انتهى. الدر المصون.

ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ﴾: واذكر إذ قيل لهم؛ والقرية: بيت المقدس.

فإن قلت: كيف اختلفت العبارة ههنا وفي سورة البقرة؟

قلت: لا بأس باختلاف العبارتين، إذا لم يكن هناك تناقض، ولا تناقض بين قوله: «اسكنوا هذه القرية وكلوا منها»، وبين قوله: «فكلوا»، لأنهم إذا سكنوا القرية فتسببت سكناهم للأكل منها، فقد جمعوا في الوجود بين سكناها والأكل منها، وسواء قدموا الحطة على دخول الباب أو أخروها، فهم جامعون في الإيجاد بينهم، وترك ذكر الرغد لا يناقض إثباته، وقوله: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: موعد بشيئين: بالغفران، وبالزيادة؛ وطرح الواو لا يخلّ بذلك؛ لأنه استئناف مرتب على تقدير قول القائل: وماذا بعد الغفران؟ فقيل له: سنزيد المحسنين؛ وكذلك زيادة: ﴿مِنْهُمْ﴾: زيادة بيان، وأرسلنا، وأنزلنا، و﴿يَظْلِمُونَ﴾: ويفسقون من واد واحد.

وقرىء: «يغفر لكم خطيئاتكم»، و«تغفر لكم خطاياكم»، وخطيئاتكم، وخطيئتكم، على البناء للمفعول.

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾

﴿وسلهم﴾: وسل اليهود، وقرىء: «واسألهم»، وهذا السؤال معناه: التقرير، والتقريع، بقديم كفرهم، وتجاوزهم حدود الله، والإعلام بأنّ هذا من علومهم التي لا تعلم إلا بكتاب أو وحي، فإذا أعلمهم به من لم يقرأ كتابهم، علم أنه من جهة ٢٦٠/ ب الوحي، ونظيره: همزة الاستفهام التي يراد بها التقرير في قولك: أعدوتم في السبت؟ والقرية: أيلة، وقيل: مدين، وقيل: طبرية، والعرب تسمى المدينة قرية، عن أبي عمرو بن العلاء، ما رأيت قرويين أفصح من الحسن والحجاج، يعني: رجلين من أهل المدن،

﴿حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾: قريبة منه راكبة لشاطئه، ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ﴾: إذ يتجاوزون حدّ الله فيه، وهو اصطيادهم في يوم السبت، وقد نهوا عنه.

وقرىء: «يَعدّون»، بمعنى: يعتدون، أدغمت التاء في الدال، ونقلت حركتها إلى العين» و«يُعدّون» من الإعداد، وكانوا يعدّون آلات الصيد يوم السبت، وهم مأمورون بألاّ يشتغلوا فيه بغير العبادة، والسبت: مصدر سبتت اليهود، إذا عظمت سبتها بترك الصيد والاشتغال بالتعبد، فمعناه: يعدون في تعظيم هذا اليوم؛ كذلك قوله: ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾، معناه: يوم تعظيمهم أمر السبت؛ ويدل عليه قوله: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾، قراءة عمر بن عبد العزيز: «يوم إسباتهم».

وقرىء: «لا يسبُتون»، بضم الباء، وقرأ علي: «لا يُسبتون» بضم الياء، من أسبتوا، وعن الحسن: «لا يسبتون» على البناء للمفعول، أي: لا يدار عليهم السبت، ولا يؤمرون بأن يسبتوا.

فإن قلت: إذ يعدون، وإذ تأتيهم، ما محلهما من الإعراب؟

قلت: أمّا الأول: فمجرور بدل من القرية، والمراد بالقرية: أهلها؛ كأنه قيل: واسألهم عن أهل القرية، وقت عدوانهم في السبت، وهو من بدل الاشتمال، ويجوز أن يكون منصوباً بكانت، أو بحاضرة، وأما الثاني: فمنصوب بيعدون، ويجوز أن يكون بدلاً بعد بدل، والحيتان: السمك، وأكثر ما تستعمل العرب الحوت في معنى السمكة، ﴿شُرَّعًا﴾: ظاهرة على وجه الماء، وعن الحسن: تشرع على أبوابهم كأنها الكباش البيض، يقال: شرع علينا فلان إذا دنا منا وأشرف علينا، وشرعت على فلان في بيته فرأيته يفعل كذا، ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم﴾ أي: مثل ذلك البلاء الشديد نبلوهم بسبب فسقهم، ﴿وَإِذْ قَالَتْ﴾: معطوف على إذ يعدون، وحكمه حكمه في الإعراب، ﴿أُمَّةٌ مِّنْهُمْ﴾: جماعة من أهل القرية من صلحائهم الذين ركبوا الصعب والذلول في موعظتهم، حتى أيسوا من قبولهم، لآخرين كانوا لا يقلعون عن وعظهم، ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ أي: مخترمهم، ومطهر الأرض منهم، ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾: لتماديهم في الشر؛ وإنما قالوا ذلك، لعلمهم أن الوعظ لا ينفع فيهم، ﴿قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أي: موعظتنا إبلاء عذر إلى الله، ولئلا ننسب في النهي عن المنكر إلى بعض التفريط، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾: ولطمعنا في أن يتقوا بعض الاتقاء، وقرىء: (معذرة) بالنصب، أي: وعظناهم/ ٢٦١أ معذرة إلى ربكم، أو اعتذرنا معذرة، ﴿فَلَمَّا نَسُوا﴾ يعني: أهل القرية، فلما تركوا ما ذكرهم به الصالحون، ترك الناسي لما ينساه، ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا﴾: الظالمين الراكبين للمنكر.

فإن قلت: الأمة الذين قالوا: (لم تعظون)، من أي الفريقين هم؟ أمن فريق الناجين أم المعذبين؟

قلت: من فريق الناجين؛ لأنهم من فريق الناهين، وما قالوا ما قالوا إلا سائلين عن علة الوعظ والغرض فيه؛ حيث لم يروا فيه غرضاً صحيحاً لعلمهم بحال القوم، وإذا علم الناهي حال المنهي، وأن النهي لا يؤثر فيه، سقط عنه النهي، وربما وجب الترك لدخوله في باب العبث؛ ألا ترى أنك لو ذهبت إلى المكاسين القاعدين على المآصر[1]، والجلادين المرتبين للتعذيب لتعظهم وتكفهم عما هم فيه، كان ذلك عبثاً منك؛ ولم يكن إلا سبباً للتلهي بك، وأما الآخرون: فإنما لم يعرضوا عنهم، إمّا: لأن بأسهم لم يستحكم كما استحكم بأس الأولين، ولم يخبروهم كما خبروهم، أو لفرط حرصهم وجدّهم في أمرهم كما وصف الله ـ تعالى ـ رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ في قوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ [الكهف: ٦]، وقيل: الأمة هم الموعوظون؛ لما وعظوا قالوا للواعظين: لم تعظون منا قوماً تزعمون أنّ الله مهلكهم أو معذبهم؟

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: يا ليت شعري ما فعل بهؤلاء الذين قالوا: لم تعظون قوماً؟

قال عكرمة: فقلت: جعلني الله فداك؛ ألا ترى أنهم كرهوا ما هم عليه، وخالفوهم وقالوا: لم تعظون قوماً الله مهلكهم، فلم أزل به حتى عرفته أنهم قد نجوا، وعن الحسن: نجت فرقتان، وهلكت فرقة، وهم الذين أخذوا الحيتان، وروي أنّ اليهود أُمروا باليوم الذي أُمرنا به، وهو يوم الجمعة، فتركوه واختاروا يوم السبت، فابتلوا به، وحرّم عليهم فيه الصيد، وأمروا بتعظيمه، فكانت الحيتان تأتيهم يوم السبت شرعاً، بيضاً، سماناً، كأنها المخاض، لا يرى الماء من كثرتها، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم، فكانوا كذلك برهة من الدهر، ثم جاءهم إبليس، فقال لهم: إنما نهيتم عن أخذها يوم السبت، فاتخذوا حياضاً تسوقون الحيتان إليها يوم السبت، فلا تقدر على الخروج منها، وتأخذونها يوم الأحد، وأخذ رجل منهم حوتاً، وربط في ذنبه خيطاً إلى خشبة في الساحل، ثم شواه يوم الأحد، فوجد جاره ريح السمك، فتطلع في تنوره، فقال له: إني أرى الله سيعذبك، فلما لم يره عذب، أخذ في السبت القابل حوتين، فلما رأوا أنّ العذاب لا يعاجلهم، صادوا، وأكلوا، وملحوا، وباعوا، وكانوا نحواً من سبعين ألفاً، فصار أهل القرية أثلاثاً، ثلث نهوا وكانوا نحواً من اثني عشر ألفاً، وثلث قالوا/ ٢٦١ب: لم تعظون قوماً؟ وثلث: هم أصحاب

---

(١) قوله: «على المآصر» المآصر هي المحابس، من أصره الله حبسه. كذا في الصحاح.

الخطيئة، فلما لم ينتهوا، قال المسلمون: إنا لا نساكنكم، فقسموا القرية بجدار: للمسلمين باب، وللمعتدين باب، ولعنهم داود ـ عليه السلام ـ فأصبح الناهون ذات يوم في مجالسهم، ولم يخرج من المعتدين أحد، فقالوا: إن للناس شأناً، فعلوا الجدار فنظروا، فإذا هم قردة، ففتحوا الباب، ودخلوا عليهم، فعرفت القرود أنسباءها من الإنس، والإنس لا يعرفون أنسباءهم من القرود، فجعل القرد يأتي نسيبه فيشم ثيابه، ويبكي، فيقول: ألم ننهك؟ فيقول برأسه: بلى، وقيل: صار الشباب قردة، والشيوخ خنازير، وعن الحسن: أكلوا والله أوخم أكلة أكلها أهلها، أثقلها خزياً في الدنيا، وأطولها عذاباً في الآخرة، هاه وايم الله، ما حوتٌ أخذه قوم فأكلوه أعظم عند الله من قتل رجل مسلم، ولكن الله جعل موعداً، والساعة أدهى وأمرّ، ﴿بَئِيسٍ﴾: شديد، يقال: بؤس يبؤس بأساً، اذا اشتدّ، فهو بئيس.

وقرىء: «بَئِسٍ». بوزن حَذِر، «وبيس» على تخفيف العين ونقل حركتها إلى الفاء، كما قال: كبد في كبد. وبيس على قلب الهمزة ياء، كذيب في ذئب، وبيئس على فيعل، بكسر الهمزة وفتحها. «وبيس»، بوزن ريس، على قلب همزة بيئس ياء، وإدغام الياء فيها، و«بيس» على تخفيف بيس، كهين في هين، وبائس على فاعل، ﴿فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ﴾: فلما تكبروا عن ترك ما نهوا عنه؛ كقوله: ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾، ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً﴾: عبارة عن مسخهم قردة؛ كقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]، والمعنى: أنّ الله ـ تعالى ـ عذبهم أولاً بعذاب شديد، فعتوا بعد ذلك فمسخهم، وقيل: فلما عتوا، تكرير لقوله: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ﴾ والعذاب البئيس: هو المسخ.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾

﴿تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾: عزم ربك، وهو تفعل من الإيذان، وهو الإعلام؛ لأنّ العازم على الأمر يحدّث نفسه به، ويؤذنها بفعله، وأجرى مجرى فعل القسم؛ كعلم الله، وشهد الله؛ ولذلك أجيب بما يجاب به القسم، وهو قوله: ﴿لَيَبْعَثَنَّ﴾، والمعنى: وإذ حتم ربك وكتب على نفسه، ليبعثنّ على اليهود، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾: فكانوا يؤدّون الجزية إلى المجوس، إلى أن بعث الله محمداً ـ ﷺ ـ فضربها عليهم، فلا تزال مضروبة عليهم إلى آخر الدهر، ومعنى: «ليبعثنّ عليهم» ليسلطنّ عليهم؛ كقوله: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الإسراء: ٥].

﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمُ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾

﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمُ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ﴾: وفرقناهم فيها، فلا يكاد يخلو بلد من فرقة منهم، ﴿ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾: الذين آمنوا منهم بالمدينة، أو الذين وراء الصين، ﴿ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ﴾: ومنهم ناس دون ذلك الوصف منحطون عنه، وهم الكفرة والفسقة.

فإن قلت: ما محل دون ذلك؟

قلت: الرفع، وهو صفة لموصوف محذوف، معناه: ومنهم ناس منحطون عن الصلاح؛ ونحوه: ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ ﴾، بمعنى: وما منا أحد إلا له مقام، ﴿ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾: بالنعم، والنقم، ﴿ لَعَلَّهُمْ ﴾: ينتهون فينيبون، ﴿ فَخَلَفَ ﴾: من بعد المذكورين، ﴿ خَلْفِهِمْ ﴾: وهم الذين كانوا في زمن رسول الله ﷺ، ﴿ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾: التوراة بقيت في أيديهم بعد سلفهم. يقرؤونها ويقفون على ما فيها من الأوامر والنواهي والتحليل والتحريم، ولا يعملون بها، ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ ﴾ أي: حطام هذا الشيء الأدنى، يريد الدنيا وما يتمتع به منها، وفي قوله: (هذا الأدنى): تخسيس وتحقير، والأدنى: إما من الدنوّ بمعنى القرب؛ لأنه عاجل قريب، وإما من دنوّ الحال وسقوطها وقلتها، والمراد: ما كانوا يأخذونه من الرشا في الأحكام على تحريف الكلم للتسهيل على العامة، ﴿ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾: لا يؤاخذنا الله بما أخذنا، وفاعل: (سيغفر) الجار والمجرور، وهو: (لنا)، ويجوز أن يكون الأخذ الذي هو مصدر يأخذون، ﴿ وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ﴾: الواو: للحال، أي: يرجون المغفرة، وهم مصرون عائدون إلى مثل فعلهم، غير تائبين، وغفران الذنوب لا يصح إلا بالتوبة، والمصر لا غفران له، ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ يعني: قوله في التوراة: من ارتكب ذنباً عظيماً؛ فإنه لا يغفر له إلا بالتوبة، ﴿ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ﴾: في الكتاب من اشتراط التوبة في غفران الذنوب، والذي عليه المجبرة[1]، هو مذهب اليهود بعينه كما ترى، وعن مالك بن دينار ـ رحمه الله ـ: يأتي على الناس زمان إن قصروا عما أمروا به، قالوا: سيغفر لنا؛ لأنا لم نشرك بالله شيئاً، كل أمرهم إلى الطمع، خيارهم فيهم المداهنة، فهؤلاء من هذه الأمّة أشباه الذين ذكرهم الله،

---

(١) قوله: «في غفران الذنوب والذي عليه المجبرة» يعني أهل السنة، ومذهبهم تجويز المغفرة بمجرد الفضل، لا الطمع فيها مع الإصرار على المعصية.

وتلا الآية، ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾: من ذلك العرض الخسيس، ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾: الرشا ومحارم الله.

وقرىء: «ورّثوا الكتاب»، «وألا تقولوا»، بالتاء، «وادّارسوا»، بمعنى: تدارسوا، «وأفلا تعقلون»، بالياء والتاء.

فإن قلت: ما موقع قوله: ﴿أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾؟

قلت: هو عطف بيان لميثاق الكتاب، ومعنى: «ميثاق الكتاب»، الميثاق المذكور في الكتاب، وفيه أن إثبات المغفرة بغير توبة خروج عن ميثاق الكتاب، وافتراء على الله، وتقوّل عليه ما ليس بحق، وإن فسر ميثاق الكتاب بما تقدم ذكره كان: (أن لا يقولوا): مفعولاً له، ومعناه: لئلا يقولوا، ويجوز أن تكون: (أن): مفسرة، و(لا تقولوا): نهياً، كأنه قيل: ألم يقل لهم: لا تقولوا على الله إلا الحق؟

فإن قلت: علام عطف قوله: (ودرسوا ما فيه)؟

قلت: على ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم﴾؛ لأنه تقرير، فكأنه قيل: أخذ عليهم ميثاق الكتاب ودرسوا ما فيه.

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾: فيه وجهان، أحدهما: أن يكون مرفوعاً بالابتداء، وخبره: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾، والمعنى: إنا لا نضيع أجرهم؛ لأنّ المصلحين في معنى الذين يمسكون بالكتاب؛ كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾ [الكهف: ٣٠]، والثاني: أن يكون مجروراً عطفاً على الذين يتقون،/ ٢٦٢ب ويكون قوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾: اعتراضاً.

وقرىء: «يمسكون»، بالتشديد؛ وتنصره قراءة أبيّ: «والذين مسكوا بالكتاب».

فإن قلت: التمسك بالكتاب يشتمل على كل عبادة، ومنها إقامة الصلاة، فكيف أفردت؟

قلت: إظهاراً لمزية الصلاة؛ لكونها عماد الدين، وفارقة بين الكفر والإيمان، وقرأ ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «والذين استمسكوا بالكتاب».

﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾: قلعناه ورفعناه؛ كقوله: ﴿ورفعنا فوقهم الطور﴾، ومنه: نتق

السقاء، إذا نفضه ليقتلع الزبدة منه، والظلة: كل ما أظلك من سقيفة أو سحاب، وقرىء: بالطاء، من أطل عليه إذا أشرف، ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَٰقِعٌۢ بِهِمْ﴾: وعلموا أنه ساقط عليهم، وذلك أنهم أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة؛ لغلظها وثقلها، فرفع الله الطور على رؤسهم مقدار عسكرهم، وكان فرسخاً في فرسخ، وقيل لهم: إن قبلتموها بما فيها، وإلا ليقعن عليكم، فلما نظروا إلى الجبل، خرَّ كل رجل منهم ساجداً على حاجبه الأيسر، وهو ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرقاً من سقوطه؛ فلذلك لا ترى يهوديًا يسجد إلا على حاجبه الأيسر، ويقولون: هي السجدة التي رفعت عنا بها العقوبة، ولما نشر موسى الألواح وفيها كتاب الله، لم يبق جبل، ولا شجر، ولا حجر إلا اهتز؛ فلذلك لا ترى يهوديًا تقرأ عليه التوراة إلا اهتز وأنغض لها رأسه[1]، ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾: على إرادة القول، أي: وقلنا خذوا ما آتيناكم، أو قائلين: خذوا ما آتيناكم من الكتاب، ﴿بِقُوَّةٍ﴾: وعزم على احتمال مشاقه وتكاليفه، ﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾: من الأوامر، والنواهي، ولا تنسوه، أو واذكروا ما فيه من التعريض للثواب العظيم فارغبوا فيه، ويجوز أن يراد: خذوا ما آتيناكم من الآية العظيمة بقوّة إن كنتم تطيقونه؛ كقوله: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ﴾ [الرحمن: ٣٣]، ﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾: من الدلالة على القدرة الباهرة والإنذار، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: ما أنتم عليه، وقرأ ابن مسعود: «وتذكروا»، وقرىء: «واذّكروا»، بمعنى: وتذكروا.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾

﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾: بدل من بني آدم بدل البعض من الكل، ومعنى أخذ ذرّياتهم من ظهورهم: إخراجهم من أصلابهم نسلاً وإشهادهم على أنفسهم، وقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ﴾: من باب التمثيل والتخييل[2]! ومعنى ذلك أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته

---

(١) قوله: «وأنغض لها رأسه» أي حرك رأسه كالمتعجب. أفاده الصحاح.

(٢) قال محمود: «هذا من باب التمثيل والتخييل... إلخ» قال أحمد: إطلاق التمثيل أحسن، وقد ورد الشرع به. وأما إطلاقه التخييل على كلام الله تعالى فمردود، ولم يرد به سمع، وقد كثر إنكارنا عليه لهذه اللفظة. ثم إن القاعدة مستقرة على أن الظاهر ما لم يخالف المعقول يجب إقراره على ما هو عليه، فلذلك أقره الأكثرون على ظاهره وحقيقته ولم يجعلوه مثالاً. وأما كيفية الإخراج والمخاطبة فالله أعلم بذلك.

ووحدانيته، وشهدت بها عقولهم، وبصائرهم التي ركبها فيهم، وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى، فكأنه أشهدهم على أنفسهم، وقررهم، وقال لهم: ألست بربكم؟ وكأنهم قالوا: بلى، أنت ربنا، شهدنا على أنفسنا، وأقررنا بوحدانيتك، وباب التمثيل واسع في كلام الله ـ تعالى ـ ورسوله ـ عليه السلام ـ وفي كلام العرب، ونظيره قوله تعالى/ ٢٦٣أ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠]، ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، وقوله [من الرجز]:

إِذْ قَالَتِ الأَنْسَاعُ لِلْبَطْنِ: ٱلْحَقِي[1]

[ومن الرجز]:

قَالَتْ لَهُ رِيحُ الصَّبَا: قَرْقَارِ[2]

ومعلوم أنه لا قول ثم، وإنما هو تمثيل، وتصوير للمعنى، ﴿أَن تَقُولُوا﴾: مفعول له، أي: فعلنا ذلك من نصب الأدلة الشاهدة على صحتها العقول، كراهة ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾: لم ننبه عليه، ﴿أَوْ﴾: كراهة أن: ﴿تَقُولُوٓا إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ

---

(١) مر شرح هذا الشاهد عند تفسير آية ١١٧ من سورة البقرة فراجعه هناك إن شئت اهـ.

(٢) قالت له ريح الصبا قرقار واختلط المعروف بالإنكار

لأبي النجم العجلي. و«قرقار» اسم فعل بمعنى قرقر: أمر للسحاب لتنزيله منزلة العاقل، أي: صوت بالرعد. هذا قول سيبويه. وقال المبرد تبعاً للمازني: هو حكاية صوت الرعد، وهو على كل مبني على الكسر على أصل التخلص من التقاء الساكنين، لكنه على الأول متحمل للضمير، فهو مركب. وعلى الثاني: لا ضمير فيه، فهو مفرد، لكن فيه أن حكاية الأصوات لا تفيد حثا ولا زجراً. وهنا يفيد الحث لقرينة المقام ولا فعل لها، وهذا له فعل. يقال: قرقرت الدجاجة إذا صوتت، إلا أن يقال إن المعنى: صوت يا رعد قرقار. وقولهم: قرقرت الدجاجة، مأخوذ من قرقار، كما أخذوا العياط من عيط بكسرتين بينهما سكون، حكاية لصوت المتلاعبين. واختلط يحتمل أنه أمر وهو أنسب بما قبله. ويحتمل أنه ماض. والمراد بالإنكار المنكر، ولا قول للريح. وإنما شبهها حيث تسوق السحاب بمن يصح منه القول، على طريق المكنية والقول تخييل. ويجوز أن يستعار القول لصوت السحاب، على طريق التصريح. ويجوز أنه من باب الكناية. وعلى هذا النحو قوله في ناقة صالح: فأتاها أحيمر كأخي السهم بغضب، فقال كوني عقيراً. وصرف الممنوع للضرورة. وأضاف الملقى لغير الملقى، ليدل على الملازمة لوجه شبه العاقر بالمبهم. أي قالت الصبا للسحاب: قرقر بالرعد. واختلط الأماكن التي اعتدت سقيها بالتي كنت لا تبلغها بالسقي، أي سو بين الجميع فيه. ويحتمل أن المعروف المطر والمنكر الرعد والبرق والصواعق، أي افعل الجميع على أنه ماض، فهو عطف على قالت. وليس من قول الريح. وعليه فيجوز أيضاً رفع المعروف، ويكون الفعل لازماً. وهذا البيت من أبيات الكتاب.

ينظر: الكتاب (٣/ ٢٧٦)، وشرح المفصل لابن يعيش (٤/ ٥١)، والأشموني (٣/ ١٦٠)، الدر المصون (٣/ ٣٧١).

﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾: فاقتدينا بهم؛ لأن نصب الأدلة على التوحيد، وما نبهوا عليه قائم معهم، فلا عذر لهم في الإعراض عنه، والإقبال على التقليد، والاقتداء بالآباء، كما لا عذر لآبائهم في الشرك ـ وأدلة التوحيد منصوبة لهم.

فإن قلت: بنو آدم وذرّياتهم من هم[1]؟

قلت: عنى ببني آدم: أسلاف اليهود الذين أشركوا بالله؛ حيث قالوا: عزير ابن الله، وبذرّياتهم: الذين كانوا في عهد رسول الله ـ ﷺ ـ من أخلافهم المقتدين بآبائهم؛ والدليل على أنها في المشركين وأولادهم: قوله: ﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ والدليل على أنها في اليهود: الآيات التي عطفت عليها هي، والتي عطفت عليها، وهي على نمطها وأسلوبها؛ وذلك قوله: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ [الأعراف: ١٦٣]، ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ﴾، ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾، ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾، ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ [الأعراف: ١٧٥]. ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي: كانوا السبب في شركنا؛ لتأسيسهم الشرك، وتقدّمهم فيه، وتركه سنة لنا، ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: ومثل ذلك التفصيل البليغ، ﴿نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾: لهم، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: وإرادة أن يرجعوا عن شركهم نفصلها.

وقرىء: «ذريتهم»، على التوحيد، «وأن يقولوا»: بالياء.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾: على اليهود، ﴿نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾: هو عالم من علماء بني إسرائيل، وقيل: من الكنعانيين، اسمه «بلعم بن باعوراء» أوتي علم بعض كتب الله، ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾: من الآيات، بأن كفر بها، ونبذها وراء ظهره، ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: فلحقه الشيطان، وأدركه، وصار قريناً له، أو: فأتبعه خطواته.

وقرىء: «فاتبعه»، بمعنى: فتبعه، ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾: فصار من الضالين الكافرين، روي أن قومه طلبوا إليه أن يدعو على موسى، ومن معه، فأبى، وقال: كيف

---

(١) عاد كلامه. قال: «فإن قلت بنو آدم وذرياتهم من هم... إلخ»؟ قال أحمد: والأظهر أنها شاملة لجملة بني آدم فتدخل اليهود في عمومها، لأن كل واحد من بني آدم يصدق عليه الأمران جميعاً أنه ابن آدم وأنه ذريته، ولا يخرج من هذا إلا آدم عليه السلام، وإنما لم يذكر لظهوره، ولا يخلو الكلام عن النوع المسمى في فن البلاغة باللف اختصاراً وإيجازاً.

أدعو على من معه الملائكة، فألحوا عليه، ولم يزالوا به حتى فعل، ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾: لعظمناه، ورفعناه إلى منازل الأبرار من العلماء بتلك الآيات، ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾: مال إلى الدنيا، ورغب فيها، وقيل: مال إلى السفالة.

فإن قلت: كيف علق رفعه بمشيئة الله ـ تعالى ـ ولم يعلق بفعله الذي يستحق به الرفع؟

قلت: المعنى: ولو لزم/ ٢٦٣ب العمل بالآيات، ولم ينسلخ منها، لرفعناه بها، وذلك أن مشيئة الله ـ تعالى ـ رفعه تابعة؛ للزومه الآيات، فذكرت المشيئة، والمراد: ما هي تابعة له ومسببة عنه، كأنه قيل: ولو لزمها لرفعناه بها؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ فاستدرك المشيئة بإخلاده الذي هو فعله، فوجب أن يكون: (ولو شئنا)، في معنى ما هو فعله، ولو كان الكلام على ظاهره، لوجب أن يقال: ولو شئنا لرفعناه، ولكنا لم نشأ، ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾: فصفته التي هي مثل في الخسة والضعة، كصفة الكلب في أخس أحواله، وأذلها، وهي حال دوام اللهث[1] به واتصاله، سواء حمل عليه ـ أي: شدّ عليه، وهيج فطرد ـ أو ترك غير متعرّض له بالحمل عليه؛ وذلك أنّ سائر الحيوان لا يكون منه اللهث إلا إذا هيج منه وحرّك، وإلا لم يلهث، والكلب يتصل لهثه في الحالتين جميعاً، وكان حق الكلام أن يقال: ولو شئنا لرفعناه بها، ولكنه أخلد إلى الأرض، فحططناه، ووضعنا منزلته، فوضع قوله: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾: موضع حططناه أبلغ حط؛ لأنّ تمثيله بالكلب في أخس أحواله، وأذلها في معنى ذلك، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: الكلب منقطع الفؤاد، يلهث إن حمل عليه، أو لم يحمل عليه، وقيل: معناه إن وعظته فهو ضال، وإن لم تعظه فهو ضال، كالكلب إن طردته فسعى لهث، وإن تركته على حاله لهث.

فإن قلت: ما محل الجملة الشرطية؟

قلت: النصب على الحال؛ كأنه قيل: كمثل الكلب ذليلاً دائم الذلة لاهثاً في الحالتين، وقيل: لما دعا بلعم على موسى ـ عليه السلام ـ خرج لسانه فوقع على صدره، وجعل يلهث كما يلهث الكلب، ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾: من اليهود بعد ما قرؤا نعت رسول الله ـ ﷺ ـ في التوراة، وذكر القرآن المعجز وما فيه، وبشروا الناس

---

(١) قوله: «دوام اللهث به» في الصحاح لهث الكلب إذا خرج لسانه من التعب أو العطش. وقوله تعالى ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ لأنك إذا حملت على الكلب نبح وولى هارباً. وإن تتركه شد عليك ونبح، فيتعب نفسه في الحالين فيعتريه عند ذلك ما يعتريه عند العطش من إخراج اللسان.

باقتراب مبعثه، وكانوا يستفتحون به، ﴿فَٱقْصُصِ﴾: قصص بلعم الذي هو نحو قصصهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾: فيحذرون مثل عاقبته، إذ ساروا نحو سيرته، وزاغوا شبه زيغه، ويعلمون أنك علمته من جهة الوحي، فيزدادوا إيقاناً بك، وتزداد الحجة لزوماً لهم.

﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾

﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ﴾: أي: مثل القوم، أو ساء أصحاب مثل القوم، وقرأ الجحدري: ساء مثل القوم»، ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾: إما أن يكون معطوفاً على كذبوا، فيدخل في حيز الصلة بمعنى: الذين جمعوا بين التكذيب، بآيات الله، وظلم أنفسهم، وإما أن يكون كلاماً منقطعاً عن الصلة، بمعنى: وما ظلموا إلا أنفسهم بالتكذيب، وتقديم المفعول به للاختصاص؛ كأنه قيل: وخصوا أنفسهم بالظلم لم يتعدّها إلى غيرها.

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾

﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى﴾: حمل على اللفظ، و﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾: حمل على المعنى.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

﴿كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾/ ٢٦٤أ: هم المطبوع على قلوبهم الذين علم الله أنه لا لطف لهم، وجعلهم في أنهم لا يلقون أذهانهم إلى معرفة الحق، ولا ينظرون بأعينهم إلى ما خلق الله نظر اعتبار، ولا يسمعون ما يتلى عليهم من آيات الله سماع تدبر، كأنهم عدموا فهم القلوب، وإبصار العيون، واستماع الآذان، وجعلهم ـ لإعراقهم[1] في الكفر، وشدّة شكائمهم فيه، وأنه لا يأتي منهم إلا أفعال أهل النار ـ مخلوقين للنار؛ دلالة على توغلهم في الموجبات، وتمكنهم فيما يؤهلهم لدخول النار؛ ومنه كتاب عمر ـ رضي الله عنه ـ إلى خالد بن الوليد: بلغني أن أهل الشام اتخذوا لك دلوكاً[2] عجن تخمر، وإني لأظنكم آل المغيرة ذرء النار (٦١٢)، ويقال لمن كان عريقاً في بعض الأمور: ما خلق فلان إلا لكذا،

---

٦١٢ ـ عزاه الزيلعي في «تخريج الكشاف» (١/ ٤٧٣) إلى أبي عبيد القاسم بن سلام في «غريب الحديث».
قال الحافظ: أخرجه أبو عبيد في غريبه: حدثني إسماعيل بن عياش عن حميد بن ربيعة عن سليمان. =

---

(١) قوله: «لإعراقهم» يقال أعرق الشجر والنبات ـ بالعين المهملة ـ إذا امتدت عروقه في الأرض. وأغرق النازع في القوس ـ بالمعجمة ـ أي استوفى مدها اهـ من الصحاح.

(٢) قوله: «دلوكاً» في الصحاح: الدلوك ما يدلك به من طيب وغيره.

والمراد: وصف حال اليهود[1] في عظم ما أقدموا عليه من تكذيب رسول الله ـ ﷺ ـ مع علمهم أنه النبي الموعود، وأنهم من جملة الكثير الذين لا يكاد الإيمان يتأتى منهم، كأنهم خلقوا للنار، ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾: في عدم الفقه، والنظر للاعتبار، والاستماع للتدبر، ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾: من الأنعام، عن الفقه، والاعتبار، والتدبر، ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾: الكاملون في الغفلة، وقيل: الأنعام تبصر منافعها ومضارّها فتلزم بعض ما تبصره، وهؤلاء أكثرهم يعلم أنه معاند فيقدم على النار.

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾: التي هي أحسن الأسماء[2]؛ لأنها تدل على معان حسنة، من تمجيد وتقديس، وغير ذلك، ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾: فسموه بتلك الأسماء، ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾: واتركوا تسمية الذين يميلون عن الحق والصواب فيها، فيسمونه بغير الأسماء الحسنى؛ وذلك أن يسموه بما لا يجوز عليه، كما سمعنا البدو يقولون بجهلهم[3]: يا أبا المكارم، يا أبيض الوجه، يا نخيّ، أو أن يأبوا تسميته ببعض أسمائه الحسنى، نحو أن يقولوا: يا أَلَه، ولا يقولوا: يا رحمن، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ﴾ [الإسراء: ١١٠] ويجوز أن يراد: ولله الأوصاف الحسنى[4]، وهي الوصف بالعدل، والخير، والإحسان، وانتفاء شبه الخلق فصفوه بها، وذروا الذين

= قال الحافظ: أخرجه أبو عبيد في غريبه: حدثني إسماعيل بن عياش عن حميد بن ربيعة عن سليمان بن موسى: أن عمر كتب إلى خالد ـ فذكره منقطعاً. انتهى.

---

(١) قوله: «والمراد وصف حال اليهود» إنما فسره بذلك لأنه تعالى يجب عليه الأصلح للعبد عند المعتزلة، وخلقه لجهنم ليس أصلح له. وعند أهل السنة لا يجب عليه شيء.

(٢) قال محمود: «معنى الحسنى التي هي أحسن الأسماء... إلخ» قال أحمد: أي مما يجوز عليه وإن لم يرد إطلاقه شرعاً، كالشريف والعارف، ونحو ذلك.

(٣) قال محمود: «كما سمعنا البدو يقولون بجهلهم... إلخ» قال أحمد: وفي هذا التأويل بعد، لأن ترك الدعاء ببعض الأسماء لا يطلق عليه إلحاد في العرف، وإنما يطلق على فعل لا على ترك، ولكن يتميز عن الوجه السالف بأنه أضاف الأسماء الملحد فيها إلى ذاته، وهذا أدل على الرحمن منه على مثل أبيض الوجه ونحوه، فإن هذا ليس من أسمائه، إلا أن يقال: أضافه إليه تنزيلاً على زعمهم.

(٤) قال محمود: «ويجوز أن يراد: ولله الأوصاف الحسنى، وهي الوصف بالعدل والخير... إلخ» قال أحمد: لا يدع حشو العقائد الفاسدة في غير موضع يسعها، فإن يكن المراد الأوصاف، فالحسنى منها وصف الله بعموم القدرة والانفراد بالمخلوقات، حتى لا يشرك معه عباده في خلق أفعالهم. =

يلحدون[1] في أوصافه، فيصفونه بمشيئة القبائح، وخلق الفحشاء، والمنكر، وبما يدخل في التشبيه، كالرؤية، ونحوها، وقيل: إلحادهم في أسمائه: تسميتهم[2] الأصنام: آلهة، واشتقاقهم اللات من الله، والعزى من العزيز.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾

لما قال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا﴾ فأخبر أنّ كثيراً من الثقلين عاملون بأعمال أهل النار، أتبعه قوله: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾، وعن النبي ـ ﷺ ـ أنه كان يقول إذا قرأها: «هٰذِهِ لَكُمْ، وَقَدْ أُعْطِيَ القَوْمُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ مِثْلُهَا» (٦١٣)، ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾/ ٢٦٤ب، وعنه ـ ﷺ ـ: «إِنَّ مِنْ أُمَّتِي قَوْماً عَلَى الْحَقِّ حَتَّىٰ يَنْزِلَ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلاَمُ» (٦١٤)، وعن الكلبي: هم الذين آمنوا من أهل الكتاب، وقيل: هم العلماء، والدعاة إلى الدين.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾

---

٦١٣ ـ ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٢٧٢)، وعزاه الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار (١/ ٤٧٤) رقم (٤٧٧) إلى الثعالبي في تفسيره.
قال الحافظ:
ذكره الثعلبي عن قتادة وابن جريج. وإسناده إليهما مذكور في أول كتابه. انتهى.

٦١٤ ـ أخرجه أحمد في مسنده: (٤/ ٤٢٩ و٤٣٤ و٤٣٧) عن عمران بن حصين به.
وأخرجه أبو يعلى الموصلي في مسنده: (٤/ ٥٩ ـ ٦٠) رقم (٣١٣/ ٢٠٧٨)، وأحمد (٣/ ٣٤٥ ـ ٣٨٤) عن جابر فذكره.
وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٢٧٢)، وعزاه الزيلعي (١/ ٤٧٤) رقم (٤٧٨) إلى البخاري في تاريخه الأوسط في ترجمة عبيد الله الطفاوي عن جابر به.
كما عزاه إلى الثعلبي في تفسيره عن الربيع بن أنس به. =

= ويعظم الله تعالى بأنه لا يسأل عما يفعل، وأن كل قضائه عدل، وأنه لا يجب عليه رعاية ما يتوهمه الخلق مصلحة بعقولهم، وأن وعده الصدق وقوله الحق. وقد وعد رؤيته فوجب وقوعها، إلى غير ذلك من أوصافه الجليلة، وذروا الذين يلحدون في أوصافه فيجحدونها، ثم يزعمون أنه لا تشمل قدرته المخلوقات، بل هي مقسومة بينه وبين عباده، ويوجبون عليه رعاية ما يتوهمونه مصلحة، ويحجرون واسعاً من مغفرته وعفوه وكرمه على الخطائين من موحديه، إلى غير ذلك من الإلحاد المعروف بالطائفة المتلقبين عدلية، المزكين لأنفسهم وهو أعلم بمن اتقى.

(١) قوله: «وذر الذين يلحدون» يريد أهل السنة القائلين: كل كائن فهو مراد ومخلوق له تعالى ولو شرا، وتجوز رؤيته، خلافاً للمعتزلة في كل ذلك، كما تقرر في محله.

(٢) قال محمود: «وقيل إلحادهم في أسمائه: تسميتهم... إلخ» قال أحمد: وهذا تفسير حسن ملائم، والله أعلم.

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾

الاستدراج: استفعال من الدرجة بمعنى الاستصعاد، أو الاستنزال درجة بعد درجة؛ قال الأعشى [من الطويل]:

فَلَوْ كُنْتَ فِي جُبِّ ثَمَانِينَ قَامَةً ... وَرُقِّيتَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسُلَّمِ

لَيَسْتَدْرِجَنْكَ الْقَوْلُ حَتَّى تَهُرَّهُ ... وَتَعْلَمَ أَنِّي عَنْكُمُ غَيْرَ مُفْحَمِ[1]

ومنه: درج الصبي إذا قارب بين خطاه، وأدرج الكتاب: طواه شيئاً بعد شيء، ودرج القوم: مات بعضهم في أثر بعض، ومعنى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾: سنستدنيهم قليلاً قليلاً إلى ما يهلكهم، ويضاعف عقابهم، ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾: ما يراد بهم، وذلك أن يواتر الله نعمه عليهم مع انهماكهم في الغيّ، فكلما جدّد عليهم نعمة، ازدادوا بطراً، وجدّدوا معصية، فيتدرّجون في المعاصي بسبب ترادف النعم، ظانين أنّ مواترة النعم أثرة من الله وتقريب؛ وإنما هي خذلان منه وتبعيد، فهو استدراج الله تعالى، نعوذ بالله منه، ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ﴾: عطف على (سنستدرجهم)، وهو داخل في حكم السين، ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾: سماه كيداً؛ لأنه شبيه بالكيد؛ من حيث أنه في الظاهر إحسان وفي الحقيقة خذلان، ﴿مَا بِصَاحِبِهِم﴾: بمحمد ـ ﷺ ـ ﴿مِّن جِنَّةٍ﴾: من جنون، وكانوا يقولون، شاعر مجنون، وعن قتادة أنّ النبي ـ ﷺ ـ علا الصفا، فدعاهم فخذاً فخذاً، يحذرهم بأس الله، فقال قائلهم: إن صاحبكم هذا لمجنون، بات يهوّت[2] إلى الصباح (٦١٥) ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟﴾: نظر استدلال،

= قال الحافظ:

ذكره الثعلبي عن الربيع بن أنس: «وإسناده إليه في أول كتابه. رواه أحمد من حديث عمران بن حصين بلفظ: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق حتى يأتي أمر الله، وينزل عيسى بن مريم»، وفي تاريخ البخاري عن عبيدالله الطفاوي عن جابر نحوه، ورواه أبو يعلى من وجه آخر، وزاد: «فيقول إمامهم: تقدم يا روح الله، فيقول: أنتم أحق، أمر أكرم الله به هذه الأمة». انتهى.

٦١٥ ـ أخرجه الطبري في تفسيره (٦/ ١٣٤ ـ ١٣٥) رقم (١٥٤٧٢)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٢٧٣) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن قتادة به. وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (١/ ٤٧٥) رقم (٤٨٠) إلى الثعالبي في تفسيره. =

---

(١) تقدم.

وينظران في ديوانه ١٨٢، الكتاب ٢/ ٢٨ مجاز القرآن ١/ ٣٠٢، ابن يعيش ٢/ ٧٤، الجامع لأحكام القرآن ٩/ ١٣٢، اللسان؛ سبب: درج الدر المصون ٣/ ٣٧٦.

(٢) قوله: «بات يهوت» أي يصيح.

﴿فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: فيما تدلان عليه من عظم الملك، والملكوت: الملك العظيم، ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾: وفيما خلق الله مما يقع عليه اسم الشيء، من أجناس لا يحصرها العدد، ولا يحيط بها الوصف، ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ﴾: «أنْ» مخففة من الثقيلة، والأصل: أنه عسى، على أن الضمير ضمير الشأن، والمعنى: أو لم ينظروا في أن الشأن والحديث عسى، ﴿أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾: ولعلهم يموتون عما قريب، فيسارعوا إلى النظر، وطلب الحق، وما ينجيهم، قبل مغافصة الأجل[1]، وحلول العقاب، ويجوز أن يراد باقتراب الأجل: اقتراب الساعة، ويكون من «كان» التي فيها ضمير الشأن.

فإن قلت: بم يتعلق قوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾؟

قلت: بقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾، كأنه قيل: لعلّ أجلهم قد اقترب، فما لهم لا يبادرون إلى الإيمان بالقرآن قبل الفوت، وماذا ينتظرون بعد وضوح الحقّ، وبأيّ حديث أحقّ منه يريدون أن يؤمنوا.

﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

قرىء: ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾، بالياء والنون، والرفع على الاستئناف/ ٢٦٥أ، ويذرهم، بالياء، والجزم، عطفاً على محل، ﴿فَلَا هَادِيَ لَهُۥ﴾، كأنه قيل: من يضلل الله لا يهده أحد ويذرهم.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾: قيل إن قوماً من اليهود قالوا: يا محمد، أخبرنا متى الساعة إن كنت نبيًّا؛ فإنا نعلم متى هي، وكان ذلك امتحاناً منهم، مع علمهم أن الله ـ تعالى ـ قد استأثر بعلمها، وقيل: السائلون قريش، و﴿ٱلسَّاعَةِ﴾: من الأسماء الغالبة، كالنجم للثريّا، وسميت القيامة بالساعة؛ لوقوعها بغتة أو لسرعة حسابها، أو على العكس لطولها، أو لأنها عند الله على طولها كساعة من الساعات عند الخلق، ﴿أَيَّانَ﴾ بمعنى: متى، وقيل: اشتقاقه من أيّ

= قال الحافظ: أخرجه الطبري بإسناد صحيح إلى قتادة قال: «ذكر لنا ـ فذكره. فأنزل الله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ... الآية﴾ انتهى.

---

(١) قوله: «قبل مغافصة الأجل» أي أخذه إياهم على حين غفلة. اهـ من الصحاح.

فعلان منه؛ لأن معناه: أيّ وقت، وأي فعل، من أويت إليه؛ لأن البعض آوٍ إلى الكل متساند إليه، قاله ابن جنى، وأبى أن يكون من «أين»؛ لأنه زمان، و«أين»: مكان، وقرأ السلمي: «إيان»، بكسر الهمزة[1]، ﴿مُرْسَىٰهَا﴾: إرساؤها، أو وقت إرسائها؛ أي إثباتها وإقرارها، وكل شيء ثقيل رسوّه ثباته واستقراره، ومنه: رسى الجبل، وأرسى السفينة، والمرسى: الأنجر الذي ترسى به، ولا أثقل من الساعة؛ بدليل قوله: ﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والمعنى: متى يرسيها الله، ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا﴾ أي: علم وقت إرسائها عنده قد استأثر به، لم يخبر به أحداً من ملك مقرّب، ولا نبيّ مرسل، يكاد يخفيها من نفسه؛ ليكون ذلك أدعى إلى الطاعة، وأزجر عن المعصية، كما أخفى الأجل الخاص، وهو وقت الموت لذلك، ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا تزال خفية، لا يظهر أمرها، ولا يكشف خفاء علمها، إلا هو وحده إذا جاء بها في وقتها بغتة، لا يجليها[2] بالخبر عنها قبل مجيئها أحد من خلقه؛ لاستمرار الخفاء بها على غيره إلى وقت وقوعها، ﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: كل من أهلها من الملائكة والثقلين أهمه شأن الساعة، وبودّه أن يتجلى له علمها، وشق عليه خفاؤها، وثقل عليه، أو ثقلت فيها؛ لأن أهلها يتوقعونها، ويخافون شدائدها وأهوالها، أو لأن كل شيء لا يطيقها، ولا يقوم لها، فهي ثقيلة فيها، ﴿إِلَّا بَغْتَةً﴾: إلا فجأة على غفلة منكم، وعن النبي ـ ﷺ ـ «إِنَّ السَّاعَةَ تُهِيجُ بِالنَّاسِ وَالرَّجُلُ يُصْلِحُ حَوْضَهُ[3]، وَالرَّجُلُ يَسْقِي مَاشِيَتَهُ، وَالرَّجُلُ يُقَوِّمُ سِلْعَتَهُ فِي سُوقِهِ، وَالرَّجُلُ يَخْفِضُ مِيزَانَهُ وَيَرْفَعُهُ» (٦١٦)، ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾: كأنك عالم بها، وحقيقته: كأنك بليغ في السؤال عنها[4]؛ لأن من بالغ في المسألة عن الشيء والتنقير عنه، استحكم علمه فيه

---

٦١٦ ـ أخرجه الطبري في تفسيره (٦/ ١٣٨) رقم (١٥٤٩٠)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٢٧٤)، وعزاه لابن جرير وعبد بن حميد وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (١/ ٤٧٦) رقم (٤٨٠) إلى الثعالبي في تفسيره.

قال الحافظ: أخرجه الطبري بالإسناد المذكور إلى قتادة قال ذكر لنا ـ فذكره، وفي الصحيحين عن أبي هريرة رفعه: «لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن... ـ الحديث». انتهى.

---

(١) قوله: «وقرأ السلمي إيان بكسر الهمزة» في الصحاح «أيان» سؤال عن زمان و«إيان» بكسر الهمزة لغة سليم. وبه قرأ السلمي (إيان يبعثون) (ع).

(٢) قوله: «بغتة لا يجليها» لعله: وقيل لا يجليها، بل لعله «أو لا يجليها» (ع).

(٣) قوله: «والرجل يصلح حوضه» في البخاري: يليط حوضه. وروى «يلوط» أي يصلحه اهـ.

(٤) قال محمود: «معناه كأنك بليغ في السؤال عنها... إلخ» قال أحمد وفي هذا النوع من التكرير نكتة لا تلقى إلا في الكتاب العزيز، وهو أجل من أن يشارك فيها، وذاك أن المعهود في أمثال هذا التكرير أن الكلام إذا بني على مقصد، واعترض في أثنائه عارض فأريد الرجوع لتتميم المقصد =

ورصن[1]، وهذا التركيب معناه المبالغة، ومنه: إحفاء الشارب، واحتفاء البقل: استئصاله، وأحفى في المسألة، إذا ألحف[2]، وحفى بفلان وتحفى به: بالغ في البرّ به، وعن مجاهد: استحفيت عنها السؤال حتى علمت.

وقرأ ابن مسعود: «كأنك حفيّ بها»، أي: عالم بها، بليغ في العلم/ ٢٦٥ب بها، وقيل: (عنها): متعلق بيسألونك، أي: يسألونك عنها كأنك حفيّ، أي: عالم بها، وقيل: إن قريشاً قالوا له: إن بيننا وبينك قرابة، فقل لنا متى الساعة؟ فقيل: يسألونك عنها كأنك حفيّ تتحفى بهم، فتختصهم بتعليم وقتها، لأجل القرابة، وتزوي علمها عن غيرهم، ولو أخبرت بوقتها لمصلحة عرفها الله في إخبارك به، لكنت مبلغه القريب والبعيد من غير تخصيص؛ كسائر ما أوحي إليك، وقيل: «كأنك حفيّ بالسؤال عنها تحبه وتؤثره»، يعني: أنك تكره السؤال عنها؛ لأنها من علم الغيب الذي استأثر الله به، ولم يؤته أحداً من خلقه.

= الأول وقد بعد عهده، طرى بذكر المقصد الأول لتتصل نهايته ببدايته، وقد تقدم لذلك في الكتاب العزيز أمثال، وسيأتي وهذا منها، فإنه لما ابتدأ الكلام بقوله ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ ثم اعترض ذكر الجواب المضمن في قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ إلى قوله (بغتة) أريد تتميم سؤالهم عنها بوجه من الإنكار عليهم، وهو المضمن في قوله ﴿كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾ وهو شديد التعلق بالسؤال، وقد بعد عهده فطرى ذكره تطرية عامة، ولا نراه أبداً يطري إلا بنوع من الإجمال كالتذكرة للأول مستغنى عن تفصيله بما تقدم، فمن ثم قيل (يسألونك) ولم يذكر المسؤول عنه وهو الساعة، اكتفاء بما تقدم، فلما كرر السؤال لهذه الفائدة كرر الجواب أيضاً مجملاً فقال ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ ويلاحظ هذا في تلخيص الكلام بعد بسطه. ومن أدق ما وقفت عليه العرب في هذا النمط من التكرير لأجل بعد العهد تطرية للذكر قوله [من الرجز]:

عجل لنا هذا وألحقنا بذا الـ ... ـشحم إنا قد مللناه بجل

أي فقط، فذكر الألف واللام خاتمة للأول من الرجزين، ثم لما استفتح الرجز الثاني استبعد العهد بالأولى، فطرى ذكرها وأبقى الأولى في مكانها. ومن ثم استدل ابن جني على أن ما كان من الرجز على ثلاثة أجزاء فهو بيت كامل وليس بنصف، كما ذهب إليه أبو الحسن، قال: ولو كان بيتاً واحداً لم يكن عهد الأولى متباعداً، فلم يكن محتاجاً إلى تكريرها. ألا ترى أن عبيداً لما جاء بقصيدة طريلة الأبيات وجعل آخر المصراع الأول أل، لم يعدها أول المصراع الثاني، لأنها بيت واحد، فلم ير عهدها بعيداً. وذلك قوله [من الرمل]:

يا خليلي أربعا واستخبرا الـ ... ـمنزل الدارس من أهل الحلال

مثل سحق البرد عني بعدك الـ ... ـقطر مغناه وتأويب الشمال

ثم استرسل فيها كذلك بضعة عشر بيتاً، فانظر هذه النكتة كيف بالغت العرب في رعايتها حتى عدت القريب بعيداً والمتقاصر مديداً، فتأملها فإنها تحفة إنما تنفق عند الحذاق الأعيان في صناعتي العربية والبيان، والله المستعان.

(١) قوله: «ورصن» أي: ثبت وتمكن اهـ (ع).

(٢) قوله: «إذا ألحف» أي ألح وعنف اهـ (ع).

فإن قلت: لم كرر يسألونك، وإنما علمها عند الله؟

قلت: للتأكيد، ولما جاء به من زيادة قوله: ﴿كأنك حفي عنها﴾، وعلى هذا تكرير العلماء الحذاق في كتبهم لا يخلون المكرر من فائدة زائدة، منهم: محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة ـ رحمهما الله ـ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: أنه العالم بها، وأنه المختص بالعلم بها.

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى﴾: هو إظهار للعبودية، والانتفاء عما يختص بالربوبية من علم الغيب، أي: أنا عبد ضعيف، لا أملك لنفسي اجتلاب نفع، ولا دفع ضرر، كما المماليك والعبيد، ﴿إِلَّا مَا شَآءَ﴾: ربي ومالكي من النفع لي والدفع عني، ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾: لكانت حالي على خلاف ما هي عليه، من استكثار الخير، واستغزار المنافع، واجتناب السوء والمضار، حتى لا يمسني شيء منها، ولم أكن غالباً، مرة ومغلوباً أخرى في الحروب، ورابحاً وخاسراً في التجارات، ومصيباً مخطئاً في التدابير، ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا﴾: عبد أرسلت نذيراً وبشيراً، وما من شأني أني أعلم الغيب، ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: يجوز أن يتعلق بالنذير، والبشير جميعاً؛ لأن النذارة والبشارة إنما تنفعان فيهم، أو يتعلق بالبشير وحده، ويكون المتعلق بالنذير محذوفاً، أي: إلا نذير للكافرين، وبشير لقوم يؤمنون.

﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾

﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾: وهي نفس آدم، عليه السلام، ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾: وهي حواء، خلقها من جسد آدم من ضلع من أضلاعه، أو من جنسها؛ كقوله: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [الشورى: ١١]. ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾: ليطمئن إليها، ويميل ولا تنفر؛ لأن الجنس إلى الجنس أميل وبه آنس، وإذا كانت بعضاً منه، كان السكون والمحبة أبلغ، كما يسكن الإنسان إلى ولده، ويحبه محبة نفسه، لكونه بضعة منه.

وقال: (ليسكن): فذكر بعد ما أنث في قوله: واحدة منها زوجها، ذهاباً إلى معنى النفس؛ ليبين أن المراد بها آدم، ولأن الذكر هو الذي يسكن إلى الأنثى ويتغشاها، فكان

التذكير أحسن طباقاً للمعنى، والتغشي: كناية عن الجماع، وكذلك الغشيان والإتيان، ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾: خف عليها، ولم تلق منه ما يلقى بعض الحبالى من حملهن من الكرب والأذى، ولم تستثقله كما يستثقلنه، وقد تسمع/ ٢٦٦أ بعضهن تقول في ولدها: ما كان أخفه على كبدي حين حملته، ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾: فمضت به إلى وقت ميلاده من غير إخداج، ولا إزلاق[١]، وقيل: ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ يعني: النطفة، (فمرت به): فقامت به وقعدت، وقرأ ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: «فاستمرت به»، وقرأ يحيى بن يعمر: «فمرت به»، بالتخفيف، وقرأ غيره: «فمارت به»، من المرية؛ كقوله: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ [النجم: ١٢] وأفتمرونه. ومعناه: فوقع في نفسها ظن الحمل، فارتأبت به، ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ حان وقت ثقل حملها؛ كقولك: أقربت[٢]، وقرىء: «أُثقلت»، على البناء للمفعول: أي أثقلها الحمل (دعوا الله ربهما) دعا آدم وحواء ربهما، ومالك أمرهما الذي هو الحقيقي بأن يدعى ويلتجأ إليه، فقالا: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا﴾: لئن وهبت لنا. ﴿صالحاً﴾: ولداً سوياً قد صلح بدنه وبرىء[٣]، وقيل: ولداً ذكراً؛ لأن الذكورة من الصلاح والجودة، والضمير في: ﴿ءَاتَيْتَنَا﴾، و﴿لَنَكُونَنَّ﴾: لهما، ولكل من يتناسل من ذرّيتهما[٤]، ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا﴾: ما طلباه من الولد الصالح السويّ، ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ أي: جعل أولادهما له شركاء، على حذف المضاف، وإقامة المضاف إليه مقامه، وكذلك: ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ أي: آتى أولادهما؛ وقد دلّ على ذلك بقوله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ حيث جمع الضمير، وآدم وحواء بريئان من الشرك، ومعنى إشراكهم فيما آتاهم الله: تسميتهم أولادهم بعبد العزى، وعبد مناة[٥]،

---

(١) قوله: «من غير إخداج ولا إزلاق» إخداج: أي نقصان. ولا إزلاق: أي إسقاط.

(٢) قوله: «كقولك أقربت» أي قرب ولادها (ع).

(٣) قوله: «وبرىء» لعله: وبرئ من الآفات (ع).

(٤) قال محمود: «الضمير في (آتيتنا) و(لنكونن) لهما ولكل من يتناسل من ذريتهما... إلخ» قال أحمد: وأسلم من هذين التفسيرين وأقرب ـ والله أعلم ـ أن يكون المراد جنسي الذكر والأنثى، لا يقصد فيه إلى معين، وكان المعنى ـ والله أعلم ـ خلقكم جنساً واحداً، وجعل أزواجكم منكم أيضاً لتسكنوا إليهن، فلما تغشى الجنس الذي هو الذكر الجنس الآخر الذي هو الأنثى جرى من هذين الجنسين كيت وكيت. وإنما نسب هذه المقالة إلى الجنس وإن كان فيهم الموحدون، لأن المشركين منهم ﴿أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۝﴾ و﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧﴾، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ كما أنه كذلك على التفسير الأول أضاف الشرك إلى أولاد آدم وحواء وهو واقع من بعضهم وعلى التفسير الثاني أضافه إلى قصي وعقبة، والمراد البعض؛ فهذا السؤال وارد على التأويلات الثلاثة، وجوابه واحد ويسلم هذا الثالث من حذف المضاف المضطر إليه في التأويل الأول. ومما ينصرف إلى التأويل الثاني من استبعاد تخصيص قصي بهذا الأمر المشترك في الجنس، وهو جعل زوجته منه وكون المراد بذلك أن يسكن إليها لأن ذلك عام في الجنس، والله أعلم.

(٥) قوله: «وعبد مناة» في النسفي: وعبد مناف (ع).

وعبد شمس، وما أشبه ذلك، مكان عبد الله، وعبد الرحمن، وعبد الرحيم، ووجه آخر، وهو: أن يكون الخطاب لقريش، الذين كانوا في عهد رسول الله ـ ﷺ ـ وهم آل قصى؛ ألا ترى إلى قوله في قصة أم مَعْبَدٍ (٦١٧) [من الطويل]:

فَيَا لَقُصَيٍّ مَا زَوَى اللهُ عَنْكُمُ ... بِهِ مِنْ فَخَارٍ لاَ يُبَارَىٰ وَسُؤْدَدِ[1]

---

٦١٧ ـ أخرجه الحاكم (٣/ ٩ ـ ١٠)، وأبو نعيم في «دلائل النبوة» ص (٢٤٤ ـ ٢٤٦)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٤٩٤)؛ كلهم من طريق حبيش بن خالد به.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأخرجه أيضاً الطبراني في «المعجم الكبير» (٧/ ١٢٣ ـ ١٢٤) رقم (٦٥١٠)، وأخرجه الحاكم (٣/ ١١) من حديث أبي معبد الخزاعي.

وسكت عنه.

قال الحافظ: هذا طرف من حديث أم معبد في هجرة النبي ﷺ. وقد أخرجه الحاكم مطولاً. من حديثها وحديث أخيها حبيش بن خالد. ومن حديث زوجها أبي معبد، وطريق أم معبد رويناها في الغيلانيات. وفي الطبراني وفي الدلائل لأبي نعيم والبيهقي. انتهى.

---

(١) جزى الله رب الناس خير جزائه ... رفيقين حلا خيمتي أم معبد
هما نزلا بالبر ثم ترحلا ... فيا فوز من أمسى رفيق محمد
فيا لقصي ما زوى الله عنكم ... به من فخار لا يبارى وسؤدد
ليهن بني سعد مقام فتاتهم ... ومقعدها للمؤمنين بمرصد

لرجل من الجن، سمعوا صوته بمكة ولم يروا شخصه، حين خرج رسول الله ﷺ من مكة مع أبي بكر مهاجراً وجهل أهلها خبرهما بعد خروجهما من الغار. ويروى «جزاية» بالتاء كهداية. ويروى «قالا» بدل «حلا» والمعنى متقارب، إلا أن الثاني خاص بالاستراحة في منتصف النهار. و«خيمتي» نصب على التوسع بحذف حرف الجر و«أم معبد» امرأة من بني سعد نزلا عندها بالبر والخير. ذكر بعضهم أن اسمها عاتكة بنت خالد الخزاعية و«يالقصي» أصله «يا آل قصي» فخفف وقد اختلف فيها، فقيل: أصلها يا آل قصي أيضاً. وقيل: هي حرف جر، فقيل زائد. وقيل أصلي متعلق بيا عند سيبويه، وبالفعل الذي نابت عنه عند ابن جني «وما» استفهامية، والمعنى: يا آل قصي، أتدرون ما قبضه الله ومنعه بخروج رسول الله من بينكم من فخار لا يضاهى ومن شرف عظيم؟ وفي هذا الاستفهام معنى التعجب والاستعظام، حتى كأن المستفهم عنه لا يعرف كنهه. ويجوز أن اللام للتعجب، و«ما» موصول بدل من «قصي». ويجوز أن اللام للاستغاثة، كأنه استغاث بهم لعلهم يتداركون ما فاتهم. وساد في قومه: شرف، ومصدره السؤدد، بالهمز وضم الدال، وبالواو فتفتح داله كما هنا. والأصل: السود ـ بالضم ـ كالحسن، فزيدت الدال للإلحاق يبرفع وجندب. و«ليهن» مجزوم بلام الأمر، والمقصود الدعاء. و«مقام» فاعل، و«بنى» مفعول. يقال: هنأه الطعام ونحوه، بالهمز: إذا نفعه وحمدت عاقبته عنده، وهو من بابي نفع وضرب، ويبدل همزه بما يناسب ما قبله، وقد يحذف البدل كما هنا، كأنه أصلي، لكن الحذف عامي. والمرصد والمرصاد: الطريق يرصد فيه الرصد. وقوله: «للمؤمنين» فيه حث على الهجرة.

البيت للفرزدق. ينظر: ديوانه ١/ ١٧٣، الكتاب ٢/ ٢٣٤، الهمع ١/ ٢٠٠، الشذور ٢٣٥، الدرر ١/ ١٦٩، الدر المصون ١/ ٢٣١.

ويراد: هو الذي خلقكم من نفس قصيّ، وجعل من جنسها زوجها عربية قرشية؛ ليسكن إليها، فلما آتاهما ما طلبا من الولد الصالح السويّ جعلا له شركاء فيما آتاهما؛ حيث سميا أولادهما الأربعة بعبد مناف، وعبد العزى، وعبد قصيّ، وعبد الدار، وجعل الضمير في: (يشركون) لهما، ولأعقابهما، الذين اقتدوا بهما في الشرك، وهذا تفسير حسن لا إشكال فيه، وقرىء: «شركا»، أي: ذوي شرك وهم الشركاء، أو أحدثا لله شركاً في الولد.

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾

أجريت الأصنام مجرى أولي العلم في قوله: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾، بناء على اعتقادهم فيها، وتسميتهم إياها آلهة، والمعنى: أيشركون ما لا يقدر على خلق شيء كما يخلق الله، وهم يخلقون؟ لأن الله ـ عزّ وجلّ ـ خالقهم، أو لا يقدر على اختلاق شيء؛ لأنه جماد، وهم يخلقون؛ لأن عبدتهم يختلقونهم، فهم أعجز من عبدتهم، ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ﴾: لعبدتهم، ﴿نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾: فيدفعون عنها ما يعتريها من الحوادث، بل عبدتهم هم الذين يدفعون عنهم ويحامون عليهم، ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ﴾: وإن تدعوا هذه الأصنام/ ٢٦٦ب ﴿إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: إلى ما هو هدى ورشاد، وإلى أن يهدوكم، والمعنى: وإن تطلبوا منهم كما تطلبون من الله الخير والهدى، لا يتبعوكم إلى مرادكم وطلبتكم، ولا يجيبوكم كما يجيبكم الله؛ ويدل عليه قوله: ﴿فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٤]، ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ﴾: أم صمتم عن دعائهم، في أنه لا فلاح معهم.

فإن قلت: هلا قيل: أم صمتم؟ ولم وضعت الجملة الإسمية موضع الفعلية؟

قلت: لأنهم كانوا إذا حزبهم أمر، دعوا الله دون أصنامهم؛ كقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ﴾، فكانت حالهم المستمرة أن يكونوا صامتين عن دعوتهم، فقيل: إن دعوتموهم، لم تفترق الحال بين إحداثكم دعاءهم، وبين ما أنتم عليه من عادة صمتكم عن دعائهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: تعبدونهم وتسمونهم آلهة من دون الله، ﴿عباد أمثالكم﴾، وقوله: ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾: استهزاء بهم، أي: قصارى أمرهم أن يكونوا أحياء

عقلاء، فإن ثبت ذلك، فهم عباد أمثالكم، لا تفاضل بينكم، ثم أبطل أن يكونوا عباداً أمثالهم فقال: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ﴾ وقيل: عباد أمثالكم مملوكون أمثالكم، وقرأ سعيد بن جبير: «إنْ الذين تدعون من دون الله عباداً أمثالكم» بتخفيف «إن»، ونصب «عباداً أمثالكم»، والمعنى: ما الذين تدعون من دون الله عباداً أمثالكم، على إعمال: «إن» النافية عمل «ما»: الحجازية، ﴿قُلِ ادْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾: واستعينوا بهم في عداوتي، ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾: جميعاً أنتم وشركاؤكم، ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾: فإني لا أبالي بكم، ولا يقول هذا إلا واثق بعصمة الله، وكانوا قد خوّفوه آلهتهم فأمر أن يخاطبهم بذلك، كما قال قوم هود له: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَىٰكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ قال لهم: ﴿أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٥].

﴿إِنَّ وَلِيِّيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾﴾

﴿إِنَّ وَلِيِّيَ ٱللَّهُ﴾ أي: ناصري عليكم الله، ﴿ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الذي أوحى إليّ كتابه وأعزني برسالته، ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، ومن عادته أن ينصر الصالحين مِنْ عباده وأنبيائه، ولا يخذلهم.

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُواْ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾

﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾: يشبهون الناظرين إليك؛ لأنهم صوَّروا أصنامهم بصورة من قلب حدقته إلى الشيء ينظر إليه، ﴿وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾: وهم لا يدركون المرئي.

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾

﴿ٱلْعَفْوَ﴾: ضد الجهد، أي: خذ ما عفا لك من أفعال الناس وأخلاقهم وما أتى منهم، وتسهل من غير كلفة، ولا تداقهم، ولا تطلب منهم الجهد، وما يشق عليهم؛ حتى لا ينفروا؛ كقوله ـ ﷺ ـ: «يَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا» (٦١٨) قال [من الطويل]:

---

٦١٨ ـ أخرجه البخاري (١/١٩٦): كتاب العلم: باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا، حديث (٦٩) وطرفه في (٦١٢٥)، ومسلم (٦/ ٢٨٣ ـ النووي) كتاب الجهاد والسّير؛ باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير، حديث (٨/ ١٧٣٤). من طريق أنس بن مالك فذكره.
قال الحافظ: متفق عليه من حديث أنس أتم منه. انتهى.

خُذِي الْعَفْوَ مِنِّي تَسْتَدِيمِي مَوَدَّتِي وَلاَ تَنْطِقِي فِي سَوْرَتِي حِينَ أَغْضَبُ[1]

وقيل: خذ الفضل وما تسهل من صدقاتهم؛ وذلك قبل نزول آية الزكاة، فلما نزلت، أمر أن يأخذهم بها طوعاً أو كرهاً، والعرف: المعروف والجميل من الأفعال، ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَٰهِلِينَ﴾: ولا تكافىء السفهاء بمثل سفههم، ولا تمارهم، واحلم عنهم، وأغض على ما يسوؤك منهم، وقيل: لما نزلت الآية، سأل «جبريل»، فقال: لا أدري حتى أسأل، ثم رجع، فقال: «يا محمد، إن ربك أمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك» (٦١٩) وعن جعفر الصادق: أمر الله نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم/ ٢٦٧أ الأخلاق منها.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾: وإما ينخسنك منه نخس، بأن يحملك بوسوسته على خلاف ما أمرت به، ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾: ولا تطعه، النزغ والنسغ: الغرز والنخس، كأنه ينخس الناس حين يغريهم على المعاصي، وجعل النزغ نازغاً، كما قيل: جدّ جدّه، وروي أنها لما نزلت، قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «كَيْفَ يَا رَبِّ وَالغَضَبُ» (٦٢٠)، فنزل: ﴿وَإِمَّا

---

٦١٩ ـ أخرجه الطبري في تفسيره (٦/ ١٥٤) رقم (١٥٥٥٨ ـ ١٥٥٥٩)، وعبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٢٤٦)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٢٨٠)، وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (١/ ٤٧٧) رقم (٤٨٢) إلى ابن مردويه في تفسيره.
قال الحافظ:
أخرجه الطبري من طريق سفيان بن عُيينة عن أبي المرادي قال: لما أنزل الله فذكره وهذا منقطع.
وأخرجه ابن مردويه موصولاً من حديث جابر، ومن حديث قيس بن سعد. وزاد في أوله: «لما نظر رسول الله ﷺ إلى حمزة قال: والله لأمثلن بسبعين منهم. فجاء جبريل بهذه الآية، فذكر الحديث»، وفي مسند أحمد عن عقبة بن عامر «أن النبي ﷺ قال له: يا عقبة، ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا: أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك، وغفل الطيبي فقال في حديث الأصل: رواه أحمد من حديث عقبة بن عامر. انتهى.

٦٢٠ ـ أخرجه الطبري (٦/ ١٥٥) رقم (١٥٥٦٤)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٢٨٣)، وعزاه الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار (١/ ٤٨١) رقم (٤٨٤) إلى الثعالبي في تفسيره، وإلى الواحدي في تفسيره الوسيط.
قال الحافظ: أخرجه الطبري من رواية ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم «لما نزلت» فذكره مفصلاً. انتهى.

---

(١) تقدم.

﴿يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾، ويجوز أن يراد بنزغ الشيطان: اعتراء الغضب؛ كقول أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ: إنّ لي شيطاناً يعتريني (٦٢١)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾

﴿طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾: لمة منه مصدر؛ من قولهم: طاف به الخيال يطيف طيفاً؛ قال [من الكامل]:

أَنَّىٰ أَلَمَّ بِكَ الْخَيَالُ يُطِيفُ[1] .....

أو هو تخفيف طيف فيعل، من طاف يطيف كلين، أو من طاف يطوف كهين، وقرىء: «طائف»، وهو يحتمل الأمرين ـ أيضاً ـ وهذا تأكيد، وتقرير لما تقدم من وجوب الإستعاذة بالله عند نزغ الشيطان، وأنّ المتقين هذه عادتهم: إذا أصابهم أدنى نزغ من الشيطان، وإلمام بوسوسته: ﴿تَذَكَّرُوا۟﴾، ما أمر الله به، ونهى عنه، فأبصروا السداد، ودفعوا ما وسوس به

---

٦٢١ ـ عزاه الزيلعي في «تخريج الكشاف» (١/ ٤٨٢) وعزاه إلى إسحاق بن راهويه بسنده إلى الحسن عن أبي بكر الصديق، وأخرجه أيضاً الزيلعي بإسناده عن الحسن عن أبي بكر.

قال الحافظ:

أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده. وابن سعد في الطبقات قالا: حدثنا وهب بن جرير حدثنا جرير بن حازم سمعت الحسن يقول: «خطب أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ يوماً. فقال: أما والله، ما أنا بخيركم ولقد كنت لمقامي هذا كارهاً. ولوددت أن فيكم من يكفيني أفرط، وأن أعمل فيكم بسنة رسول الله ﷺ إذ لا أقوم لها، إن رسول الله ﷺ كان يعتصم بالوحي. وكان معه ملك. وإن لي شيطاناً يعتريني. فإذا غضبت فاجتنبوني الحديث، رواه عبد الرزاق عن معمر عن رجل عن الحسن نحوه. ورويناه في جزء الأنصاري من طريق أبي هلال عن الحسن قال: «لما استخلف أبو بكر بدأ بكلام والله ما تكلم به أحد غيره» فذكر نحوه. انتهى.

---

(١) أنى ألم به الخيال يطيف ومطافه بك ذكرة وشغوف

لكعب بن زهير. وأنى: استفهام تعجبي بمعنى كيف، أو من أين. وألم: أي نزل للزيارة. والخيال: ما يراه النائم. وطاف به الخيال يطيف طيفاً ومطافاً: أقبل عليه. وطاف حوله يطوف طوافاً وطوفانا: حام عليه ودار حوله، ويكنى به عن اللمس. وقوله: «يطيف»جملة حالية مؤكدة أو مؤسسة. ومطافه: أي طيفه هو سبب التذكر ووصول الحب لشغاف القلب، فأقام المسبب مقام السبب، وعبر عن نفسه أولاً بضمير الغيبة، وثانياً بالخطاب. على طريق الالتفات فراراً من شبهة التكرار. وروى بك بالخطاب.

ينظر: ديوانه (٨٤)، والطبري ١٣/ ٣٣٥، اللسان «ذكر» والكشاف ٢/ ١٣٩، والبحر ٤/ ٤٤٥ والدر المصون ٣/ ٣٨٨.

إليهم، ولم يتبعوه أنفسهم، وأما إخوان الشياطين الذين ليسوا بمتقين، فإن الشياطين يمدونهم في الغي، أي: يكونون مدداً لهم فيه ويعضدونهم، وقرىء: «يُمدّونهم» من الإمداد، «ويمادّونهم» بمعنى: يعاونونهم، ﴿ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾: ثم لا يمسكون عن إغوائهم حتى يصروا ولا يرجعوا، وقوله: ﴿ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ ﴾؛ كقوله [من البسيط]:

قَوْمٌ إِذَا الْخَيْلُ جَالُوا فِي كَوَاثِبِهَا[1] . . . . . .

في أنّ الخبر جار على ما هو له، ويجوز أن يراد بالإخوان: الشياطين، ويرجع الضمير المتعلق به إلى الجاهلين، فيكون الخبر جارياً على ما هو له؛ والأوّل أوجه؛ لأن إخوانهم في مقابلة الذين اتقوا.

فإن قلت: لم جمع الضمير في إخوانهم والشيطان مفرد؟

قلت: المراد به الجنس؛ كقوله: ﴿ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾

اجتبى الشيء، بمعنى جباه لنفسه أي جمعه؛ كقولك: اجتمعه، أو جبى إليه فاجتباه: أي أخذه؛ كقولك: جليت إليه العروس فاجتلاها، ومعنى: ﴿ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ﴾: هلا اجتمعتها، افتعالاً من عند نفسك؛ لأنهم كانوا يقولون: ﴿ ما هذا إلا إفك مفتري ﴾ [سبأ: ٤٣]، أو هلا أخذتها منزلة عليك مقترحة؟ ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ﴾: ولست بمفتعل للآيات، أو لست بمقترح لها، ﴿ هَٰذَا بَصَآئِرُ ﴾: هذا القرآن بصائر، ﴿ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ أي: حجج بنية يعود المؤمنون بها بصراء بعد العمي، أو هو بمنزلة بصائر القلوب.

---

(١) قوم إذا الخيل جالوا في كواثبها فوارس الخيل لا ميل ولا قدم

«الخيل» الأفراس. و«الكاثبة» للفرس القربوس، وللبعير الغارب، وللرجل الكاهل. وللحمار السيسيا. و«الميل» جمع أميل، وهو الذي لا يثبت على ظهر فرسه. والقدم: جمع أقدم، وهو اللئيم الضعيف. أو جمع قدم بالسكون بمعناه. وضمير «جالوا» للقوم، فجرى الخبر على غير ما هو له. أي إذا الخيل جالوا هم في سروجها وما يبرز الضمير هكذا، لأن محل وجوبه في الصفة لا الفعل، أو لأمن اللبس، لأن الواو ضمير العقلاء. فإن قيل: إن «إذا» لا تضاف إلا للجملة الفعلية، فالخيل فاعل فعل محذوف. أجيب بمنع أنها لا تضاف إلا للفعلية، وبأن ذلك في الشرطية لا الظرفية كما هنا. وقيل: يحتمل على بعد أن الخيل بمعنى الفرسان، وضمير كواثبها للأفراس المدلول عليها بذكر الخيل: أي قوم إذا الفرسان جالوا في كواثب الأفراس، فوارس الخيل، ثابتون عليها لا مائلون عن ظهورها، ولا عاجزون كأن أيديهم مغلولة.

البيت لزياد بن منقذ ينظر: المحتسب ١/ ٢٩١، والبحر المحيط ٤/ ٤٤٧، والصحاح واللسان «قزم» والدر المصون ٣/ ٣٨٩.

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾: ظاهره وجوب الاستماع، والإنصات وقت قراءة القرآن في صلاة وغير صلاة، وقيل: كانوا يتكلمون في الصلاة فنزلت، ثم صار سنة في غير الصلاة أن ينصت القوم إذا كانوا في مجلس يقرأ فيه القرآن، وقيل: معناه: وإذا تلا/ ٢٦٧ب عليكم الرسول القرآن عند نزوله، فاستمعوا له، وقيل: معنى «فاستمعوا له»: فاعملوا بما فيه ولا تجاوزوه.

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾: هو عامّ في الأذكار من قراءة القرآن، والدعاء، والتسبيح، والتهليل، وغير ذلك، ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾: متضرعاً وخائفاً، ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ﴾: ومتكلماً كلاماً دون الجهر؛ لأنّ الإخفاء أدخل في الإخلاص، وأقرب إلى حسن التفكر، ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ﴾: لفضل هذين الوقتين، أو أراد الدوام، ومعنى بالغدوّ: بأوقات الغدوّ، وهي الغدوات، وقرىء: «والإيصال»، من آصل إذا دخل في الأصيل، كأقصر وأعتم[1]، وهو مطابق للغدوّ، ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ﴾: من الذين يغفلون عن ذكر الله ويلهون عنه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾: هم الملائكة ـ صلوات الله عليهم ـ ومعنى (عند): دنوّ الزلفة، والقرب من رحمة الله ـ تعالى ـ وفضله؛ لتوفرهم على طاعته، وابتغاء مرضاته، ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾: ويختصونه بالعبادة لا يشركون به غيره، وهو تعريض بمن سواهم من المكلفين.

عن رسول الله ـ ﷺ ـ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الأَعْرَافِ جَعَلَ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ إِبْلِيسَ سِتْراً، وَكَانَ آدَمُ شَفِيعاً لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (٦٢٢)

---

٦٢٢ ـ تقدم تخريجه وهو حديث فضائل القرآن سورة سورة.
وينظر حديث (٣٤٦).
قال الحافظ: ذكرت أسانيده في تفسير آل عمران، وسيأتي في آخر الكتاب. انتهى.

---

(١) قوله: «كأقصر وأعتم» أقصر: أي دخل في القصر أي العشي، وأعتم: دخل في العتمة، أي وقت العشاء. أفاده الصحاح (ع).